

نظرية الإعلام في الدعوة الإسلامية

أمينة الصاوي - د. عبد العزيز شرف

مطبوعات مكتبة مصر

نظرية الإعلام في الدعوة الإسلامية

بقلم

أمينه الصاوي - د. عبد العزيز شرف

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

بسم الله الرحمن الرحيم

إهـداء . .

إلى رائد الإعلام الإسلامي فى القرن الخامس عشر الهجرى :

حضرة صاحب الجلالة الملك المفدى

فهد بن عبد العزيز

حفظه الله ورعاه ، وأعزّ به الإسلام والمسلمين .

أمينة الصاوى

و

عبد العزيز شرف

محتويات الكتاب

المقدمة

لقد حظيت نظم الإعلام فى المجتمعات المختلفة بالدراسة العلمية الدقيقة التى توضح علاقة الإعلام بالبيئة الفكرية والقوى الاقتصادية والاجتماعية والسياسية ، فظهرت بحوث شتى حول الإعلام فى النظام الفاشيستى والنظام النازى ، وكذلك فى النظم المعاصرة فى الغرب وفى الشرق على حد سواء .

وفى هذه الدراسات نجد أن دراسة الإعلام تعنى ببحث علاقة الفرد بالمجتمع ، بالدولة ، ومفهوم المعرفة ، وطرق الوصول إليها ، وأنظمة إصدار الصحف والمطبوعات والرقابة وغيرها .

وعلى الرغم من كثرة هذه الدراسات فى مختلف دول العالم ، إلا أن علماء الإعلام يقرون جميعا بقصور النظم الإعلامية المختلفة عن الوفاء بنظام أمثل للإعلام على المستويات القومية والدولية . ولم يفطن هؤلاء — ولا لوم عليهم — إلى ما يتضمنه نظام الإعلام الإسلامى من حلول لأكثر المشكلات تعقيدا فى أحدث النظم الإعلامية المعاصرة ، بل أن هذا الميدان فى الدراسات العربية المعاصرة لا يزال بكرا لم يظفر باهتمام من الباحثين لدراسة نظم الاتصال والدعوة والإعلام ، مع أن المجتمع الإسلامى قد قام أساسا على فكر جديد ، وتشريعات مستحدثة لم يعرفها العالم من قبل ، ونظرة رائدة إلى الإنسان ، ومفهوم متطور للغاية للمجتمع والدعوة ووسائلها .

حقيقة أن هناك بعض الدراسات السريعة عن الدعوة الإسلامية ، ولكن معظمها يفتقر إلى التحليل والتكامل والأسلوب العلمى . لذلك فإننا نرى أن هذا الميدان البكر جدير بالدراسة والاهتمام : ونؤمن بأن دراسة الإعلام الإسلامى ستوفر على الصعيدين الإسلامى والدولى حلولا لأعقد المشكلات التى يتصدى لها الإعلام فى العالم اليوم ، ولذلك طرحنا فى البداية عددا من الافتراضات على أمل أن يجيب عنها البحث فى فصوله المختلفة ، حتى يتسنى لنا فهم النظام الإعلامى فى الإسلام :

— ماذا يتوقع الإنسان المعاصر من النظام الإعلامى فى الإسلام ؟

— ما هى وظائف نظام الإعلام الإسلامى ؟

— ما مدى الحرية التى يتمتع بها ؟ وماذا تعنيه بالحرية ؟

ولذلك كان على هذا البحث حتى يجيب عن هذه التساؤلات أن يدرس ما يعتنقه المجتمع الإسلامى من معتقدات :

ــ ما هو رأى المجتمع الإسلامى فى طبيعة الإنسان ؟
ــ وما هى نظرة المجتمع الإسلامى إلى العلاقة المثلى بين الإنسان والدولة ؟
ــ ما هى فكرة المجتمع الإسلامى عن الحقيقة ؟

والإسلام يجيب عن هذه التساؤلات على النحو الذى يجعلنا قادرين ــ بعون الله وتوفيقه ــ على تحديد الصورة العلمية لنظام الإعلام الإسلامى ونظريته فى الاتصال بالجماهير .

وإذا كان الاتصال كلمة عامة شاملة ، فإننا قد اتخذنا منها إطارا للبحث فى هذا الكتاب ، ودراسة الإعلام الإسلامى من خلال دراسة الاتصال الطبيعى والشخصى والجمعى والصناعى غير المباشر ، والذى تستخدم فيه الوسائل التكنولوجية العصرية كوسائل للاتصال . ذلك أن الاتصال كمفهوم أو مصطلح يشير إلى العلاقة التى تكون بين الناس داخل نسق اجتماعى معين يختلف من حيث الحجم ومن حيث نوع النشاط السائد فيه ، بمعنى أن هذا النسق قد يكون مجرد علاقة ثنائية نمطية بين شخصين ، أو بين جماعة صغيرة أو مجتمع محلى أو مجتمع قومى ، ويمكن أن يكون على مستوى العالم كله . والاتصال الحضارى فى الإسلام موجه إلى الإنسانية جميعها على توالى العصور واختلاف الأزمان ، ولذلك فإن الإعلام الإسلامى يستمد منطلقاته من القرآن الكريم والسنة الصحيحة .

ومن ذلك أن عملية الإعلام فى الاتصال الإسلامى تشتمل على خمسة عناصر رئيسية هى : **المُرسِل** الذى يصوغ فكرته فى **رموز معينة** ، ويبعث بها إلى **المُستقبِل** الذى يفك هذه الرموز **ويفسر معناها** ، ثم يستجيب لها معبرا عن رد فعله أو انطباعه **برسالة جديدة** يصوغها فى رموز ، ويبعث بها إلى المرسل الأول الذى يستقبلها ويحل رموزها ويستجيب لها . وهكذا تدور دورة الاتصال وتشكل أهم خصائص المجتمع المتفاعل . وهذه التفاعلات يمكن تشبيهها بالمراحل المتداخلة التى تتضمنها علوم **الهندسة والنفس والاجتماع** ، فمن الناحية **الهندسية** نجد الوسائل يقصد بها إرسال واستقبال الإشارات ، وهكذا على نحو ما يفصله العلماء . والواقع أن عملية الإعلام تجرى فى سلسلة ذات حلقات متماسكة ، ويؤدى ضعف أى حلقة فيها إلى ضعف السلسلة كلها . **فالمرسل والمستقبل ووسيلة الإعلام** حلقات متصلة متكاملة فى عملية الإعلام . وهذا ما توفره نظرية الإعلام الإسلامى . **فالمصدر أو المرسل أو المحرر** ينبغى أن يكونوا « أصح ديانة وأكمل أمانة ، وأظهر صيانة ، لأنهم مأمونون على الدماء والأموال » .

فالمرسل فى نموذج الإعلام الإسلامى : يجب أن يختار بعناية حتى يكون « أفضل فى

عقله ، وضبطه ، وأدبه ، وعارضته ، ودينه ومروءته » . فقد كان يقال « ثلاثة تدل على أهلها : الهدية على المهدى ، والرسول على المرسل ، والكتاب على الكاتب » . وكان يقال « رسول الرجل مكان رأيه وكتابه مكان عقله » . وكذلك جعل الله عز وجل — رسله أفضل خلقه ، وأخبر أنه اصطفاهم على العالمين ، فقال ﴿ الله أعلم حيث يجعل رسالته ﴾ الأنعام ١٢٤ .

وعلى المرسل أو الرسول فى عملية الإعلام الإسلامى أن يؤدى ما حمّل ، كما قال الله عز وجل ﴿ فإنما عليه ما حمّل ﴾ النور ٥٤ . وكما قال ﴿ فهل على الرُّسُل إلا البلاغ المبين ﴾ النحل ٣٥ . وإنما وجب عليه البلاغ لأن الرسالة أمانة فعليه تأديتها ، لأن الله عز وجل يقول ﴿ إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ﴾ النساء ٥٨ . وليس للرسول أن يزيد فى الرسالة ، ولا أن ينتقص منها لأن ذلك خيانة للأمانة ، إلا أن يكون المصدر فوض إليه أن يتكلم عنه بما يرى ، فقد قال الشاعر :

إذا كنت فى حاجة مرسلا فأرسل حكيمـــا ولا توصه

ويذهب علماء الإسلام إلى أن المرسل — المصدر — عليه « أن يتخير من الرسل من لا يكون فيه من العيوب مثل : الحدة والحسد والغفلة ، والعجلة » فإن صاحبها يضع الأشياء فى غير مواضعها ، ويسبق بها أوقات فرصتها ، وقد قيل « رب عجلة تهب ريثا » .

وفى كتابنا الكريم آيات ينبغى أن يتمثلها المرسل فى الإعلام الحديث لما ترسمه من مثل عليا . قال تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن ﴾ النحل ١٢٥ .

فالإعلام يقوم فى الأصل على الإقناع ، والنظرية الإسلامية فى الإعلام تنهى عن الإكراه ، قال تعالى ﴿ وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفى شك منه مريب ٥ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم الله ربنا وربكم لنا أعمالنا ولكم أعمالكم لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ الشورى ١٤ — ١٥

و ﴿ قل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ آل عمران ٢٠

﴿ كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون ٥ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ آل عمران ١٠٣ — ١٠٤

﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ ﴾ الشورى ٤٨

﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ سبأ ٢٨ .

كما نص القرآن الكريم فى آيات كثيرة على الأخلاق التى يجب أن يتميز بها رجل الإعلام بوجه عام ، والتى تميز بها الرسول الكريم ﷺ بوجه خاص . ومن هذه الأخلاق : الصبر وحسن المعاملة والجدل بالتى هى أحسن والإعراض عن الجاهلين والمنافقين والبعد عن الغلظة ، قال تعالى ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ صدق الله العظيم .

والبحث بذلك نحوٌ جديد من أنحاء الدراسة الإعلامية أريدَ به شق طريقه أولا ، ثم تأصيل هذا الطريق بعد ، فى سبيل استكمال نظرية الإعلام الإسلامى ، والوقوف عند كل جزئياتها وكلياتها .

ونسأل الله أن يوفقنا فى شق هذا الطريق ، فجل من لا يخطىء تحيزا أو قصورا فى عالم البشر .

المؤلفان

أمينة الصاوى ،

عبد العزيز شرف

المدخل

الإعلام وعملية الاتصال الجماهيرى

الإعلام أسلوب من أساليب الاتصال بالجماهير ، ذلك أن الاتصال بالجماهير يضم عددا من الأساليب الاتصالية ، منها الدعاية والتعليم والعلاقات العامة والإعلان .

ولذلك عند التصدى لدراسة أى أسلوب من هذه الأساليب ، تجب التفرقة بينها بحيث يتوصل الدارسون إلى الدلالة الصحيحة والعلمية لكل منها .

على أن هنالك تحفظا يجب إيراده فى هذا السياق ، وهو أن الفروق بين أساليب الاتصال بالجماهير ليست فروقا عملية واضحة حادة صارمة ـــ فالقول مثلا بأن الإعلام عقلى فى منهجه والدعاية انفعالية فى أسلوبها قول مردود عليه (لأن الداعية يستخدم أحيانا أسلوب الفكر المنطقى إذا كان يسعفه ذلك فى الوصول إلى بغيته ـــ كما أن كثيرا من الأخبار والمعلومات التى تعتبر عناصر إعلامية يعوزها التفكير العقلى والتسلسل المنطقى ـــ ويطغى عليها أحيانا أسلوب التهويل والضخامة المفتعلة ، مما نلمسه فى كثير من الصحف والمجلات والإذاعات . وقد درجت الصحف والإذاعات على اختيار الأخبار وترتيبها بطريقة فنية وعرضها بأسلوب إيحائى يقترب من الدعاية)[1] .

ولذلك يخلط البعض بين الإعلام والدعاية ، ويذهبون إلى أن الإعلام كالدعاية فى محاولته التأثير فى أفكار الناس وحفزهم إلى سلوك معين مرغوب فيه من وجهة نظر المرسل ـــ أى المصدر الذى يوجه الرسالة الإعلامية ـــ وهذا التعريف ينطبق على الدعاية بصفة خاصة ولا ينطبق على الإعلام .. فـ والتر ليبان Walter Lippmann يقول : « إن الدعاية هى محاولة التأثير فى نفوس الجماهير والتحكم فى سلوكهم لأغراض تعتبر غير علمية ، أو ذات قيمة مشكوك فيها فى مجتمع ما وفى زمن معين » . أما لندلى فريزر Lindley Fraser فيقول : « إن الدعاية نشاط أو فن إغراء الآخرين بالتصرف بطريقة معينة بحيث إنهم ما كانوا ليتصرفوا بها فى حالة غياب هذه الدعاية » . ويقول فريزر أيضا : « إن الدعاية ليست محدودة النطاق بمجال خاص من مجالات الحياة ، رغم أن أهم مجال تستعمل فيه هو المجال الذى يتعلق بالسياسة الدولية ـــ إلا أنه

---

(١) د . إبراهيم إمام : الإعلام والاتصال بالجماهير ، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ١٩٧٥ ط ٢ ص ٢٣

ليست كل دعاية سياسية دعاية عالمية والعكس صحيح .. وفى نطاق المجال السياسى نجد أن الدعاية تمارس عن طريق الأحزاب ومجموعات الضغط أو التأثير — إذ تحاول كل منها إقناع الجماهير بالانحياز إليها وتأييد قضيتها » .

وإذا كان الإعلام يستند إلى التنوير والتثقيف ، ويخاطب العقول لا العواطف والأهواء ، ويستخدم أسلوب الشرح والتفسير والجدل المنطقى ، فإن الكثير من الدول أخذت تنبذ كلمة الدعاية وتفضل عليها كلمة الإعلام — على اعتبار أنها تعبر عن الدقة والموضوعية والصدق .

ومن الملاحظ أن الدول تعتبر نشاطها إعلاما — ولكنها تعتبر نشاط الدول المعادية دعاية — غير أن كلمة إعلام نفسها قد أخذت هى الأخرى تتسم بنفس السمات التى لحقت بكلمة الدعاية ، وذلك نتيجة لما حدث من تزييف وعبث فى الأرقام والحقائق والمعلومات ، واستخدام الأخبار للتأثير على الناس عن طريق اختيار بعضها دون البعض الآخر ، وعن طريق أساليب العرض فى الصفحات المختلفة والمساحات المتنوعة — وكذلك إهمال بعض الأخبار وعدم الإشارة إليها أو وضعها فى أماكن غير ملفتة للأنظار ، وعرضها بطريقة تبين أنها غير هامة .. بل إن فى الإذاعات وساعات الإرسال التليفزيونى فترات تسمى بالفترات الميتة ، وهى الفترات التى يهبط فيها اهتمام المستمعين أو المشاهدين أو تمنعهم أعمالهم بن الاهتمام بها — وهذه الفترات هى التى تحال إليها المواد غير الهامة أو التى يراد لها أن تكون كذلك .

والمعروف أن الأخبار الموضوعية قد أصبحت نهبا للاستغلال والتحريف والاختيار ، من أجل خدمة قضية معينة بأسلوب ظاهره الموضوعية وحقيقته التحيز والبعد عن الإنصاف(١) .

ولذلك يذهب البعض إلى وضع الإعلام فى نفس مرتبة السياسة الخارجية ؛ التى توصف عادة بأنها « كفاح من أجل السيطرة على عقول الناس » .

ومن هؤلاء هانز مورجنثا و — فى كتابه « السياسات الدولية » يصف الدعاية بأنها « تجمع بين الدبلوماسية والقوة العسكرية بوصفها قوة ثالثة تحاول السياسة الخارجية عن طريقها تحقيق أهدافها التى ترمى أبدا إلى تحقيق مصالح فرد بعينه بتغيير تفكير خصمه » .

معنى ذلك أن الأعلام يتوخى ، من حيث الهدف النهائى ، ما تتوخاه السياسة

---

(١) المرجع نفسه ص ١٢

الخارجية ، أى تحقيق الأهداف عن طريق تغيير تفكير الجمهور المستهدف ، أو التأثير فى تفكيره .. والفارق هو أن الاعلام ، وخاصة ما يمكن أن يسمى بالإعلام « الرسمى » أو « الحكومى » وهو الإعلام السائد فى العالم العربى وفى غيره من الدول الشمولية ، لا يتولى بنفسه تحديد أهدافه التى يسعى من أجل تحقيقها إلى « تغيير تفكير الخصم » ، وإنما « السياسة الخارجية » أو « سياسة الدولة » بصفة عامة هى التى تتولى تحديد هذه الأهداف .

وهذا يجعل « الإعلام » — فى حالته هذه — أى الإعلام « الرسمى » أو « الحكومى » — خادما للسياسة الخارجية ، وتابعا لها . وذلك على عكس ما هو عليه فى النظم الليبرالية غير الشمولية حين يكون الإعلام حرا ، أو غير متقيد بالأهداف الرسمية المحددة له سلفا .. ففى هذه الحالة الأخيرة يسهم الإعلام فى تحديد أهداف الدولة وسياستها الخارجية ، كما يسهم فى تعديلها والتأثير فيها على نحو أو آخر ..

وتعتبر حرب فيتنام نموذجا للدور الإعلام فى « تغيير الأفكار » فى مجتمع حر . فقد استطاعت « فيتنام » — وهى قوة صغرى بالنسبة للولايات المتحدة — أن تقنع الشعب الأمريكى بعدم جدوى الحرب مما أدى إلى تغير فى التفكير الأمريكى — أو فى تفكير الجمهور المستهدف — وبالتالى فى أهداف السياسة الأمريكية ذاتها . ولعل هذا يثبت عدم دقة تعريف « مورجنتاو » السابق حين جعل الدعاية قوة ثالثة بعد قوتين هما القوة الدبلوماسية والقوة العسكرية . إذ الواقع أن « الإعلام » فى كل المجتمعات الحرة قد يكون القوة الأولى التى تتأثر بها كل من « القوة الدبلوماسية » و « القوة العسكرية » .

وإذا كان مفهوم الدعاية قد تدهور فأصبحت تعنى خلق جو من الإغراء والاستهواء بغض النظر عن الموضوع الذى ترمى إلى الاستمالة إليه ، فإن الإعلام قد تحدد مفهومه العلمى بأنه يعنى تزويد الناس بالأخبار الصحيحة — والمعلومات السليمة والحقائق الثابتة التى تساعدهم على تكوين رأى صائب فى واقعة من الوقائع أو مشكلة من المشكلات ، بحيث يعبّر هذا الرأى تعبيرا موضوعيا عن عقلية الجماهير واتجاهاتها وميولها . وهكذا تكون الغاية الوحيدة من الإعلام هى الإقناع عن طريق المعلومات السليمة والحقائق والأرقام والإحصاءات وما إلى ذلك . ويقدم أوتو جروث Otto-Groth تعريفا للإعلام يقول فيه « الإعلام هو التعبير الموضوعى لعقلية الجماهير وروحها وميولها واتجاهاتها فى الوقت نفسه »(١) .

---

(١) Otto Groth; Die Unerkannte Kulturmacht, (Berlin, De bryer) 1961

وهكذا يمكن القول إن الإعلام بأبسط تعاريفه هو التبليغ والتوعية والتوجيه عن طريق الاتصال بالجماهير ، ولذلك يعتبر الإعلام شكلا من أشكال الاتصال الجماهيرى .

وكلمة الاتصال Communication مشتقة فى لفظها الإنجليزى من الأصل اللاتينى Communis أى Common ومعناها مشترك .. فعندما نقوم بعملية الاتصال ، فنحن نحاول أن نقيم « رسالة مشتركة Commonness مع شخص أو جماعة أخرى ، أى أننا نحاول أن نشترك سويا فى معلومات أو مواقف واحدة » .

وتحتاج عملية الاتصال إلى عناصر ثلاثة على الأقل : المصدر والرسالة والهدف Destination .

المصدر : يمكن أن يكون شخصا « يتحدث أو يكتب أو يرسم أو يومئ .. » أو هيئة اتصال « مثل الصحيفة أو دار للنشر أو محطة تليفزيون أو استوديو السينما » .

أما الرسالة : فيمكن أن تكون على شكل حبر على الورق .. أو موجات صوتية فى الهواء .. أو نبضات فى تيار كهربائى ، كما يمكن أن تكون تلويحا باليد أو علما يرفرف فى الهواء أو أى إشارة أخرى يمكن تفسيرها وذات دلالة ومعنى ..

أما الهدف : فيمكن أن يكون شخصا ينصت أو يشاهد أو يقرأ ، ويمكن أن يكون عضوا فى جماعة مثل جماعة مناقشة ، أو شخصا من بين المستمعين لمحاضرة ، أو فردا فى حشد يشاهد كرة القدم .. أو قارئا لصحيفة ، أو مشاهدا للتليفزيون ، وغير ذلك من مستقبلى الرسالة الاتصالية(١) .

ويعرف الاتصال بالجماهير بأنه « بث رسائل واقعية كالمعلومات والأخبار التى تنشرها وسائل الإعلام عن الأحداث المختلفة ، أو بث رسائل خيالية كالقصص والروايات والأغانى على مجموعات كبيرة من الناس .. على اختلاف مستوياتها الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والثقافية ، وعلى اختلاف أماكن تواجد هذه المجموعات .

وإذا كان بعض المفكرين(٢) قد حدد عناصر عملية الاتصال بثلاثة عناصر هى :

---

(١) Badr, Ahmad A. "Some Aspects of National and International Understanding as affected by Freedom of Communication". Master's Thesis, School of Library Science, Western Reserve Univ. 1961, Schramm, (ed.) The Process and Effects of Mass Communication. Urbana, 1954.

(٢) Ohara, Robert C. Media for the Million, New York 1961, p. 6

(المصدر والرسالة والهدف) .

فإن مفكرين آخرين أهمهم هارولد لاسويل قد أطلقوا السؤال التالى باعتباره معبرا عن عملية الاتصال بعناصرها الخمسة وهى :

(من يقول ؟ ماذا يقول ؟ بأية طريقة يقول ؟ إلى من يوجه قوله ؟ بأية فاعلية ؟

وطبقا لهذا التعريف فإن العملية الإعلامية تمر بخمس مراحل :

١ — وجود مصدر أو معلم Source or Informer لديه شيء يريد نقله إلى آخرين .

٢ — هذا الشيء هو ما يسمى بالرسالة الإعلامية أو Message .

٣ — لابد من تحديد « الوسيلة » الإعلامية لنقل هذه الرسالة (خطابة — إذاعة — تليفزيون — نشرة — صحيفة — سينما .. إلخ) .

٤ — ولابد من تحديد « الجمهور » المستهدف بهذه الرسالة الإعلامية .

٥ — ثم قياس فاعلية التأثير فى هذا الجمهور ، والذى يعرف أحيانا بوجهة الإعلام أو هدفه Destination .

تحدد أهداف الإعلام بأنها أهداف :

١ — تعليمية ثقافية .

٢ — سياسية .

٣ — ترفيهية ، والبعض يغفل هذا الجانب أو الهدف الأخير على أساس أن الترفيه كالجملة الاعتراضية فى هدف ثقافى أو سياسى متصل . ولكننا نعتقد أن الترفيه أساسى لبناء الإنسان أولا ، ولخلق الجو الملائم لتوصيل الرسالة الإعلامية ثانيا . فالرسالة الثقافية أو التعليمية أو السياسية التى تأتى لإنسان فى حالة تقبل نفسى للمعرفة بسبب قسط وآخر من الترفيه ، تستقر فى نفسه بصورة أكثر تمكنا وأقوى مفعولا .

ولكن ستيفنسون[1] Stephenson وجه نقده لنظرية لاسويل .. على اعتبار أن الأخير يطالب بأن يحكم العالم علماء السياسة ، مشبها لاسويل بأفلاطون فى جمهوريته المثالية التى حبّذ فيها ضمنا حكم الفلاسفة للعالم .. وقد قدم ستيفنسون « نظرية الإمتاع » باعتبار أن التسلية والترويح يشكلان الجزء الأكبر والأهم فى عملية الاتصال .

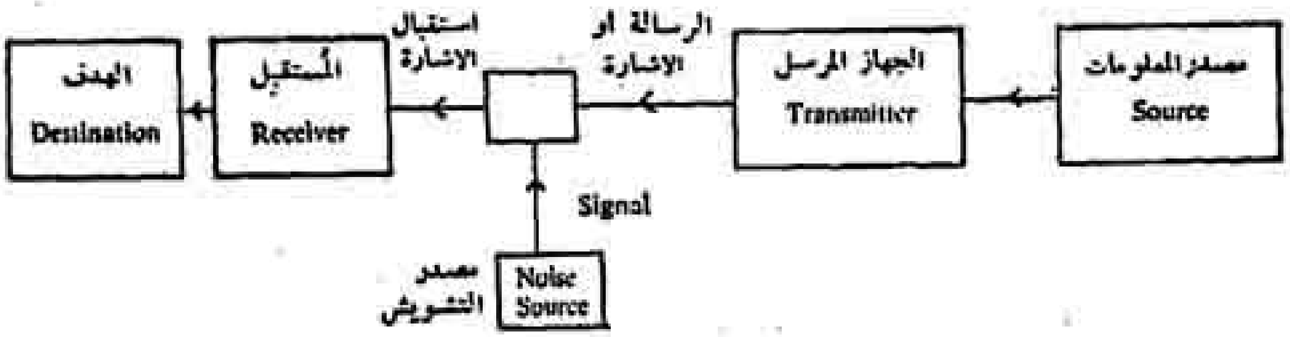
وإذا كانت بحوث الاتصال تهتم بتكوين الرأى العام عن طريق الحوار والمناقشة — فقد أصبح من الضرورى كذلك أن تهتم بحوث الاتصال بتكوين الذوق العام والثقافة عن طريق العناصر الاجتماعية كالقصص والفنون والآداب .. ولاحظ ستيفنسون مثلا

---

(١) Stephenson, W. The play theory of mass communication Chicago, Univ. of Chicago Press, 1969.

أن البرنامج الإذاعى الناجح يحتوى على الأخبار السياسية والتعليقات وأخبار الأحداث والكوارث .. وغيرها من الإيقاع الاتصالى الذى يمثل التوتر .. ثم تأتى بعد ذلك البرامج الموسيقية والغنائية والتمثيليات الخفيفة تمثل الهدوء والإمتاع — أى أنه إذا استمر الضغط الإعلامى أصبح الاتصال أمرا لا يطاق ، وقد يعطى تأثيرا عكسيا ، ولكن الفترات الإمتاعية تبدد قوة الضغط وتعطى القارئ أو المستمع أو المشاهد فترة من الراحة تماما كما يحدث فى التراجيديات والأعمال الدرامية بوجه عام ، حيث يتحتم تقديم مشهد ترفيهى يتخلل المشاهد التراجيدية العنيفة وهو المشهد الذى يطلق عليه Releif Scene والذى يمثل فترة الاسترخاء العقلى والنفسى عند المتلقى بعد المشهد العنيف الذى مرّ به ، وفى الوقت نفسه يجعله مستعدا لاستقبال المشهد العنيف التالى .

وهناك نماذج وأنماط أخرى لعملية الاتصال فى مقدمتها ما قال به علماء الهندسة والطبيعة والرياضة ، وما قدموه من مقارنات بين الاتصال الإليكترونى والاتصال البشرى ومنهم ويفر W. Weaver وشانون Claude Shannon وقد عبرا عن نموذجهما على النحو التالى :



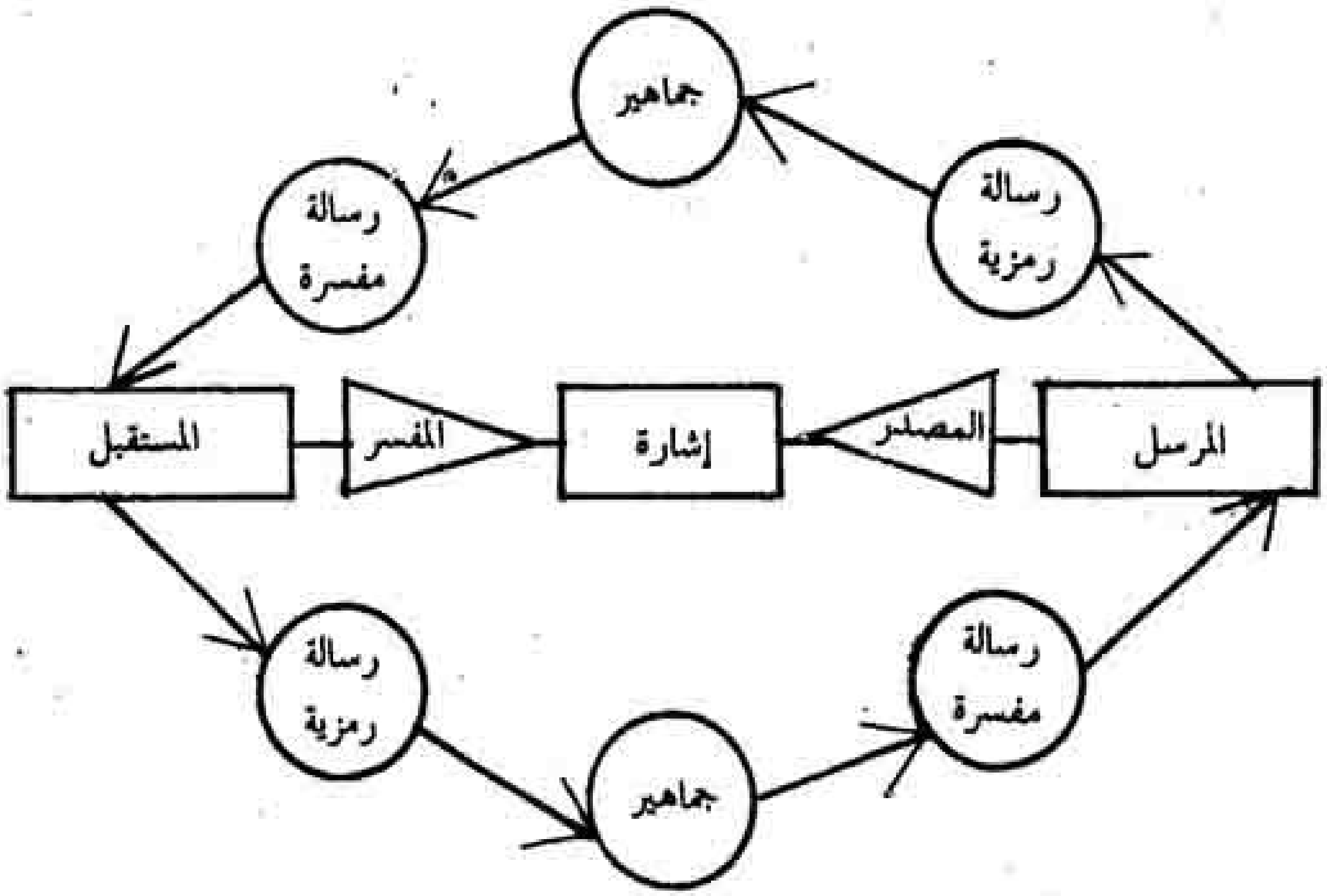
ومن هذا النموذج يتضح أن مصدر المعلومات يختار رسالة معينة ليرسلها إلى هدف معين ، ثم يبعث بهذه الرسالة عبر الجهاز المرسل ، ويمكن أن يكون المرسل ميكرفون يحول الموجات الصوتية المنبعثة من المصدر إلى موجات كهربائية تسرى بشكل إشارات فى الأسلاك إلى سماعة المستقبل — أى الهدف — التى تحول الموجات الكهربائية إلى موجات صوتية يستطيع الهدف أن يلتقطها(١) . وهذا النموذج يقضى على كل مصادر التداخل والتشويش فى نظام الاتصال ونقل المعلومات — ولعل هذا هو الذى جعل الكثير من العلماء فى الأحياء واللغة والفلسفة والوراثة والمشتغلين بالفنون وعلماء الرياضيات والنفس يهتمون بهذا النموذج ، ويطبقونه فى مجالات واسعة من اختصاصاتهم.

(١) Shannon, C. & W., Weaver., The mathematical theory of communication - 1949

وهناك نموذج آخر طرحه ولبور شرام يقول فيه « إننا عندما نتصل بغيرنا فإننا نحاول أن نقيم مشاركة مع من نتصل به ، أو بعبارة أخرى — إننا نحصل على المرسل والمتسلم لرسالة معينة »(١) .

فالمرسل عند شرام يحاول توصيل معلوماته أو مشاعره التي يحولها إلى كلمات مسموعة أو مكتوبة ، وبعد أن ترسل الرسالة يتوقع المرسل أنها قد رسمت في ذهن المتلقي الصورة نفسها التي كانت في ذهنه .

وقد ركز شرام تركيزا قويا على عنصر الاستجابة لدى المتلقي ورجع الصدى Feed back الذي يمثل هذه الاستجابة لما قاله المرسل وبعث به إلى المتلقي — وبذلك تكون الدورة الاتصالية عند شرام ممثلة على النحو التالي :



ومن هذا يتضح لنا أن الاتصال « عملية يتم فيها تبادل المفاهيم بين الأفراد — وذلك باستخدام نظام الرموز المعروفة — كاللغة بمفهومها العام — وهذا التعريف يتفق مع ما جاء في قاموس وبستر — فالاتصال يتضمن تفاعلات متبادلة — أولها يتمثل في إرسال واستقبال الرسائل — وثانيها في تحرير وفهم تلك الرسائل — وثالثها في المشاركة والتناغم مع أفكارها . وهذه التفاعلات يمكن تشبيهها بالمراحل المتداخلة التي تتضمنها

(١) Wilbur Schramm, How communication works, the process and effects of mass commuication, Univ. of Illinois, Urbana, 1955. p. 3.

الهندسة وعلما النفس والاجتماع — فمن الناحية الهندسية نجد أن الرسائل يقصد بها إرسال واستقبال الإشارات وهكذا .

ويمكن تشبيه عملية الإعلام بالعمود الفقرى للكائن الحى ، كما يمكن القول إن أى ضعف فى أى فقرة من فقرات هذا العمود يؤدى إلى ضعفه ، وبالتالى ضعف الكائن الحى نفسه .

فالمرسل والمستقبل والرسالة ووسيلة الإعلام فقرات متكاملة مترابطة شديدة التماسك فى عملية الإعلام السليمة .

والمستقرئ للتراث العربى والإسلامى يخرج من استقرائه بنماذج أوفى وأوفر لعملية الاتصال التى وإن لم تكن قد عرفت بهذا الاسم ؛ إلا أنها قد عرفت عند البلاغيين العرب بأسماء أخرى تفيد معنى الاتصال بمفهومه المعاصر .

وإذا كانت اللغة هى المتلاغين ، فإن اللغة العربية هى مصدرنا فى الوصول إلى هذه النتيجة . فالبلاغة العربية تنبئ لغةً عن « **الوصول والانتهاء** » . يقال « بلغ فلان مراده » إذا وصل إليه ، « وبلغ الركب المدينة » إذا انتهى إليها .. « وأبلغه هو إبلاغا وبلغه تبليغا » ، ومنه قول أبى قيس بن الأسلت السلمى :

فأنت ولم تقصد لقيل الخنا مهلا فقد **أبلغت** أسماعى

أى قد انتهيت فيه ، والبلاغ ما يتبلغ به ويتوصل به إلى الشيء المطلوب ، « والبلاغ ما بلغك » وتقول « بلغت الرسالة » والبلاغ والإبلاغ .. وفى التنزيل يقول سبحانه وتعالى ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ﴾ المائدة ٦٦ . ﴿ وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ ﴾ الأنعام ١٨ . ﴿ أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون ﴾ الأعراف ٦٢ . ﴿ أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين ﴾ الأعراف ٦٧ . ﴿ قل إنما العلم عند الله وأبلغكم ما أرسلت به ولكنى أراكم قوما تجهلون ﴾ الأحقاف ٢٣ . ﴿ الذين يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحدا إلا الله وكفى بالله حسيبا ﴾ الأحزاب ٣٩ . ﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين ﴾ الأعراف ٧٩ . ﴿ فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين ﴾ الأعراف ٩٣ . ﴿ فإن تولوا فقد أبلغتكم ما أرسلت به إليكم ﴾ هود ٥٧ . ﴿ إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم وأحاط بما لديهم وأحصى كل شيء عددا ﴾ الجن ٢٨ . ﴿ وإن أحدا من المشركين

استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون ﴾ التوبة ٦ . ﴿ أولئك الذين يعلم الله ما فى قلوبهم فأعرض عنهم وعظهم وقل لهم فى أنفسهم قولا بليغا ﴾ النساء ٦٢ . ﴿ وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ آل عمران ٢٠ . ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول واحذروا فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ المائدة ٩٢ . ﴿ ما على الرسول إلا البلاغ والله يعلم ما تبدون وما تكتمون ﴾ المائدة ٩٨ . ﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ الرعد ٤٠ . ﴿ هذا بلاغ للناس ولينذروا به ﴾ إبراهيم ٥١ . ﴿ فهل على الرسل إلا البلاغ المبين ﴾ النحل ٣٥ . ﴿ فإن تولوا فإنما عليك البلاغ المبين ﴾ النحل ٨١ . ﴿ وما على الرسول إلا البلاغ المبين ﴾ العنكبوت ١٧ . ﴿ وما علينا إلا البلاغ المبين ﴾ ياسين ١٧ . ﴿ فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظا إن عليك إلا البلاغ ﴾ الشورى ٤٨ . ﴿ وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن توليتم فإنما على رسولنا البلاغ المبين ﴾ التغابن ١٢ . ﴿ إن فى هذا لبلاغا لقوم عابدين ﴾ الأنبياء ١٠٦ . ﴿ إلا بلاغا من الله ورسالاته ﴾ الجن ٢٣

وتأسيسا على هذه المفاهيم التى أوضحها القرآن الكريم وحدد بها دلالة البلاغ والتبليغ والإبلاغ ، فإننا نجد أنفسنا بإزاء نظرية إعلامية أصيلة ترتبط أوثق الارتباط بالفطرة الإنسانية وما تستوجبه من ضرورات الاتصال الإنسانى الذى بدأ مع مولد البشرية .

ويرتبط مفهوم البلاغ بالاتصال فى نظريات الإعلام المعاصرة ارتباطا وثيقا — هذا الارتباط نجده فى لغتنا العربية منذ أقدم عصورها .. بل مصطلح (التوصيل) فى اللغة العربية يعنى : أن يتلطف المرء حتى يصل إلى جمهوره — وهى الدلالة التى عنيت بها نظريات الإعلام المعاصرة فى تحقيق التجاوب بين المرسل والمستقبل .. بين الكاتب والقارئ .. بين المذيع والمستمع .. بين الممثل والجمهور .. بين المقدم بالتلفاز والمشاهد ... الخ .

واللغة العربية توصى المرسل بأن يحقق ذلك حينما تقول « وصله .. يصله .. وصلا : أى برّه وتودد إليه ولم يجفه » وينال من هذا .. « وصل رحمه وقرابته والمؤمنين » — أى قام بما ينبغى لهم من حسن المعاملة والبرّ — وأصل ذلك أن يقال « وصل الشىء بالشىء إذا ربطه به وجمعه عليه » .

فالإنسان عندما يحسن إلى امرئ يربطه بنفسه برباط لطيف ، ويجمعه عليه جمع الود والرأفة . ومن هذا يقال فى ضده « قطعه إذا جفاه وأساء إليه » — ويقال أيضا « وصل إلى كذا وصولا : أى بلغه وانتهى إليه » . فالصلة إذن بين البلاغ والاتصال هى الصلة التى تحقق ترابط فقرات العمود الإعلامى ترابطا وثيقا لطيفا ..

وفى القرآن الكريم يأتى الاتصال دالا على التآلف والترابط ، فيقول سبحانه وتعالى ﴿ والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ﴾ الرعد ٢١ . ﴿ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ﴾ النساء ٩٠ . ﴿ ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون ﴾ البقرة ٢٧

ومن هذه الآيات الكريمة يتضح لنا أن الإعلام حقيقة أساسية من حقائق الاتصال ، بحيث يحقق معنى البلاغ ويمثل الوسائل التى يتوسل بها المرسل للتأثير فى المتلقى « بالود والتودد وعدم القطيعة والجفاء » كما لو كان « يصل رحمه وقرابته والمؤمنين » .

والعملية الإعلامية تحقق غرضها فى البلاغ والاتصال بالجماهير من خلال تقديم المعلومات متتابعة ، استلهاما لما جاء فى نظرية الإعلام القرآنية .

قال تعالى ﴿ ولقد وصلنا لهم القول لعلهم يتذكرون ﴾ القصص ٥١ . وتوصيل القول هنا كما يقول المفسرون إتباع بعضه بعضا فى التنزيل .

ولقد استلهم العلماء العرب من القرآن الكريم الأسس والقواعد التى تقوم عليها نظرية الإعلام فى الإسلام ، ومنهم البلاغى العربى أبو الحسن إسحق بن إبراهيم بن سليمان بن وهب الكاتب صاحب كتاب « البرهان فى وجوه البيان » الذى نسب خطأ إلى قدامة بن جعفر ونشرت منه فصول بعنوان نقد النثر .

وقال ابن وهب فى وصف المصدر أو المرسل أنه يجب أن يكون « أصح ديانة وأكمل أمانة وأظهر صيانة لأنه مأمون على الدماء والأموال » .

وابن وهب يقول هذا القول فى صدد حديثه عن « صاحب الخبر » فى الحضارة الإسلامية — حيث يمثله بأنه « عين الوزير » التى ينظر بها فى رعيته ، ورائده فى مصالح من تحت يده ، فما ينبغى أن يتقدمه أحد فى الصدق والثقة والأمانة غير القضاة ومن جرى بجراهم — ومتى نصّب الوزير لرفع الأخبار من يخالف هذه الصفات فقد غش نفسه وأضاع الحزم فى سياسته وخان الأمانة فى رعيته — وعلى الوزير أن يوسع على صاحب الخبر فى رزقه ويشترى بذلك دينه وأمانته ويعلمه أنه إنما فعل ذلك به من بين نظرائه لئلا تشره نفسه إلى أموال الرعية . ولا يحتاج إلى استئكالها والتكسب منها » .

وقد عنى الباحثون المعاصرون بدراسة هذا العنصر فى عملية الإعلام — ويرجعون الفضل فى ذلك إلى عالم النفس النمساوى الأصل الأمريكى الجنسية « كيرت لوين » فى تطوير ما أصبح يعرف بنظرية (الحارس) Gatekeeper حيث تصل المادة الإعلامية إلى الجمهور فى رحلتها الطويلة عبر نقاط أو بوابات يتم فيها اتخاذ قرارات بشأن المدخلات والمخرجات من المواد الإعلامية إخبارية أو غير إخبارية .

ولو أن هؤلاء الباحثين المعاصرين رجعوا إلى الماضى العربى لوجدوا أن البلاغى العربى قد فطن إلى هذا العنصر وأطلق عليه اسم « الحاجب » وهو كما وصفه ابن وهب « المؤتمن على الأعراض — وأداء الأمانة فى الأعراض أوجب منها فى الأموال ، لأن الأموال وقاية للأعراض » .

وكذلك يتحتم على وسائل الإعلام أن تجعل حجابها ممن « صحت عقولهم وسمت غريزتهم وحسن خلقهم ولانت كلمتهم » . وهؤلاء الحجاب هم الإعلاميون فى وسائل الإعلام المختلفة ، ذلك لأن الرسالة تمر بمراحل كثيرة وهى تنتقل من المصدر إلى المتلقى ، ولهذا تعنى الدراسات الحديثة بتناول تأثير الظروف المحيطة برجال الإعلام ، وتأثير النواحى المهنية عليهم والجوانب الفنية والمادية لعملهم .

والمرسل فى نموذج الإعلام الإسلامى يجب أن يختار بعناية كما يقول ابن وهب حتى « يكون أفضل فى عقله . وضبطه . وأدبه . وعارضته . ودينه ومروءته — فقد كان يقال « ثلاثة تدل على أهلها : الهدية على المهدى ، والرسول على المرسل ، والكتاب على الكاتب » .

وكان يقال « رسول الرجل مكان رأيه ، وكتابه مكان عقله » . وكذلك جعل الله عز وجل رسله أفضل خلقه ، وأخبر أنه سبحانه اصطفاهم على العالمين ، ويقول جل جلاله فى كتابه الحكيم :

﴿يسٓ ۝ والقرآن الحكيم ۝ إنك لمن المرسلين ۝ على صراط مستقيم﴾ ياسين ١ — ٥ ..

﴿ واضرب لهم مثلا أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون ﴾ يسٓ ١٣

والمصدر فى هذه الآيات جميعها هو الله جلّ جلاله ، والرسالة هى القرآن الكريم ، والرسول هو محمد بن عبد الله ﷺ . ولهذا فقد جاءت العملية الإعلامية فى صورة مثلى تضرب بجذورها فى الإعجاز الإعلامى والبيانى على السواء . ولن نصل إلى هذه الدرجة من الكمال مهما حاولنا ولكننا سنحاول الاستنارة بالهدى الإلٰهى والاستفادة منه فى بناء إعلام إسلامى يقدم للعالم نموذجا رفيعا فى النظرية والتطبيق على السواء .

وعلى المرسل البشرى فى عملية الإعلام « أن يؤدى ما حُمّل » كما قال الله تعالى ﴿ فإنما عليه ما حمل ﴾ النور ٥٤ . وليس للرسول أن يضيف إلى الرسالة ولا أن ينتقص منها ولا أن يحرفها أو يغير مفهومها بأية وسيلة من الوسائل ، لأن ذلك خيانة للأمانة . إلا أن يكون المصدر قد سمح له أن يضع الرسالة فى صورة أفضل ، أو فوضه فى التحدث بلسانه . والشاعر العربى يقول حول هذا المعنى :

وإن كنت فى حاجة مرسلا   فأرسل حكيما ولا توصه

ويذهب ابن وهب إلى أن المصدر « عليه أن يتخير من الرسل من لا يكون فيه من العيوب التي يذكرها وهي : الحدة والحسد والغفلة والعجلة — فإن صاحبها يضع الأشياء في غير مواضعها ، ويسبق بها أوقات فرصتها .. وقد قيل : « رب عجلة تهب ريثا » والريث هو البطء .

وإذا تأملنا قول العلي الحكيم لرسوله الكريم ﴿ لو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ وقوله تعالى ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ﴾ النحل ١٢٥ . لتأكد عندنا أن النظرية الإعلامية المثالية وهي المستقاة من القرآن الكريم تنهى عن الإكراه ، وتوضح أن الإعلام يقوم في جوهره على الإقناع باللطف واللين والموعظة الحسنة ، وعلى شخصية الرسول أيضا . فقد كانت شخصية على درجة عالية من الخلق الكريم وسمو الطباع والترفع عن الصغائر ، وكانت قدوة يتطلع الناس إلى التشبه بها والعمل بعملها . ويكفي أن نذكر هنا قول الله عز وجل لرسوله الخاتم ﷺ ﴿ وإنك لعلى خلق عظيم ﴾ القلم ٤ — ولو أننا درسنا شخصية محمد بن عبد الله ﷺ ، لوجدناه القدوة المثلى في الصدق والأمانة والصبر وحسن المعاملة ولطف المحاورة والتسامح والبعد عن الغلظة والعفو عند المقدرة ، وكل الأخلاقيات التي تصدر عن التقوى باعتبارها أم الفضائل .

وهكذا يكون رسولنا الكريم محمد ﷺ هو الإعلامي الأمثل في تاريخ البشرية من بدايته إلى نهايته ، فقد اصطفاه الله تعالى ليكون شاهدا ومبشرا ونذيرا وداعيا إلى الله بإذنه وسراجا منيرا .

وقد أدى ﷺ الرسالة التي أمره الله سبحانه وتعالى بتبليغها إلى الناس كافة . إذ قال ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ سبأ ٢٨ . وقال ﴿ قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا ﴾ الأعراف ١٥٨ .

— والرسالة التي أداها رسول الله ﷺ هي الدعوة الإسلامية — أو دعوة الناس كافة إلى المنهج القويم الذي وضعه الله سبحانه وتعالى لهم .

— لذلك فإن الذين آمنوا بهذه الدعوة جعلهم الله أمة واحدة ، تقيم نظام حياتها على هدى من نوره سبحانه وتعالى .. وتتخذ من القرآن الكريم — كتاب الدعوة — دستورها .

— قال تعالى ﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف ﴾ آل عمران ٣ .

وقال جلّ جلاله ﴿ وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم ﴾ الحديد ٥٧ .

— قال عز من قائل ﴿ والله يدعو إلى دار السلام ﴾ يونس ١٠ .

ـــ وقال سبحانه وتعالى ﴿ إنك لتدعوهم إلى صراط مستقيم ﴾ المؤمنون ٢٣ .

وكان المفروض بعد أن ارتفع رسول الله إلى الرفيق الأعلى ، وترك فينا الكتاب والسنة ، وعلّمنا ما لو اتبعناه فلن نضل أبدا ـــ كان المفروض أن نستمر على المنهج الذى حدده ، وأن نسير على الجادة التى خطها لنا ، وأن نعمل على نشر الدعوة الإسلامية والإعلام لها بنفس الوسائل والأساليب .. لا سيما وأن الإسلام دين إعلامى بطبعه ، وكل مسلم مكلف بأن يدعو لدينه ـــ فالإعلام فريضة إسلامية ، وهو فرض عين وفرض كفاية . ولو أننا عملنا بهذه المعانى وقام كل مسلم بواجبه الإعلامى كما حدده الإسلام ، لأصبحنا بحق كما أراد الله ـــ جل شأنه ـــ لنا عندما قال ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ﴾ ..

الفصل الأول

الإعلام فى المجتمعات القديمة

يجدر بنا عند التحدث عن الإعلام قبل الإسلام أن نتعرف على صور الإعلام فى بعض المجتمعات القديمة بصفة عامة ، ثم على صورته فى المجتمع العربى القديم بصفة خاصة ، وذلك تأسيسا على أن الإعلام كحقيقة اجتماعية قديم قدم الإنسان ذاته .. ولكن وسائله وأساليبه هى التى تخضع للتطور والتغيّر عبر العصور والأجيال .

ولذلك يفرق علماء الإعلام بين مصطلحى « اتصال » و « اتصالات » . فالاتصال هو عملية الاتصال ، والاتصالات هى الوسائل التكنولوجية المستخدمة لتنفيذ عملية الاتصال .

والاتصال إذن هو حقيقة أساسية للوجود الإنسانى والعملية الاجتماعية .. بل إن الاتصال هو حامل العملية الاجتماعية — وهو الذى يجعل التفاعل بين الجنس البشرى ممكنا — ويمكن الناس من أن يكونوا كائنات اجتماعية . وقد بدأ الإعلام فى المجتمعات القديمة بثلاث صور هى : صورة **الديدبان** أو **المراقب** الذى يتولى عملية المراقبة من فوق قمم الجبال ، وإنذار عشيرته أو قبيلته بالأخطار المقبلة أو الكوارث التى توشك أن تلحق بها وإبلاغها بذلك لتأخذ أهبتها لمواجهة العدو والدفاع عن نفسها . وهذا يمثل فى عصرنا الحديث وظيفة الإخبار التى تقوم بها وسائل الإعلام اليوم ، مما يؤكد أن وظيفة الإخبار أو الإبلاغ قديمة قدم الإنسان كما قلنا .

والصورة الثانية هى صورة **الحكيم المشير** ، وكان أكبر رجال القبيلة سنا وأكثرهم خبرة وأغزرهم معرفة بحوادث الأيام ومغازيها ، والأساطير السائدة فى البيئة ، والمعتقدات والتقاليد .. وإليه يلجأ أفراد القبيلة للاستشارة وطلب النصح — وهذا الحكيم المشير يمثل فى عصرنا هذا وظيفة الموجه المرشد الداعية ، التى تحتل مكانة كبيرة فى التحليل الوظيفى لوسائل الإعلام .

والصورة الثالثة هى صورة **المعلم المربى** ، وكان يختار من بين أكثر أفراد القبيلة علما لكى يقوم بتربية الأطفال وتنشئتهم النشأة الاجتماعية الصالحة ، على النحو الذى يجعلنا نقول إن وظيفة التنشئة الاجتماعية من بين وظائف الإعلام المعاصر كان يقوم بها المعلم المربى فى العصور البدائية .

الإعلام فى مصر القديمة :

ولم تلبث هذه الصور الإعلامية أن اتخذت أشكالا أكثر تطورا تبعا لتطور الحضارات القديمة .. فكانت فى مصر الفرعونية أعيادا واحتفالات دينية تقدم فيها عظات ومسرحيات ورقصات وإخباريات تستقطب اهتمام الناس ، كما كانت هذه الصور تسجّل على جدران المعابد وأوراق البردى .. وكان البعض منها متعلقا بالقوانين وإجراءات التقاضى والأحكام والعقوبات ، بل إنها تناولت النصائح والإرشادات الخاصة بالأسرة وشكل العلاقات داخلها .. وتناولت أيضا توجيهات تحذر الشعب من الأمراض الاجتماعية الخطيرة .

يقول المصرلوجى الشهير « جيمس برستد — James Breasted » إن المصريين القدماء عرفوا صورا متقدمة من الإعلام الحربى ، فهم لم يشيدوا الأهرامات والمعابد الضخمة من أجل الاحتفاظ بجثثهم وممارسة الطقوس الدينية فحسب ، ولكنهم أقاموها ليسطروا على جدرانها أمجادهم الحربية وانتصاراتهم فى المعارك المختلفة .

ويقول جيمس برستد أيضا إن المسلات المصرية كانت تمثل إحدى الوسائل الإعلامية ، بما كان يسجل عليها من مفاخر حضارية إلى جوار ما تؤديه من وظيفة دينيه .

ويعتبر فك رموز الهيروغليفية المصرية بعد الحملة الفرنسية على مصر — وحل رموز المسمارية الأشورية البابلية فتحا جديدا فى تاريخ العالم — ذلك لأنها كشفت عن تقدم فى فنون الإعلام فى الحضارات القديمة التى عرفت الكتابة واعتمدت عليها فى الإعلام .

ويقول علماء المصريات كذلك : إن الفراعنة عرفوا الصحافة من ٣٧ قرنا خلت ، وكانوا يسجلونها على أوراق البردى التى تعتبر بمثابة الصحف فى عصرنا .. فظهرت عندهم صحيفة « القصر » وكانت صحيفة هزلية تسخر من بعض أوضاع المجتمع وتتعرض لها بالنقد ، بل إنها كانت تتناول أعمال الملوك والفراعنة الكبار وتناقشها فى أسلوب فكاهى ساخر .

وقد ذكر المؤرخ الإغريقى المعروف هيرودوت هذه الصحيفة ضمن ما ذكره عن الحضارات المصرية الفرعونية .

وإذا كانت الوظيفة الاجتماعية هى التى تخلق مبررات ظهور الصحافة وقيامها على أداء تلك الوظيفة ، فإن أوراق البردى التى اكتشفها « فلندرز بترى » والتى يرجع تاريخها إلى أربعة آلاف سنة قبل الميلاد ، توضح مدى اهتمام المصريين القدماء بإثارة

ميول القراء ، وجذب انتباههم . وإذا اختلف المؤرخون حول المكان الأصيل الذى نبتت فيه الصحافة أول مرة وسايرت تطور الإنسان وتقدمه من البدائية إلى الاستقرار إلى التحضر ، فإن ذلك لا يحول دون اتفاقهم على أن مصر قد عرفت الصحافة بهذا المفهوم منذ سبعة وثلاثين قرنا . فهناك وثيقة يرجع عهدها إلى سنة « ١٧٥٠ قبل الميلاد » تدل على وجود جريدة رسمية تنطق بلسان الحكومة ويكتب فيها الوزير « رخمارا » مقالات تبين اتجاهات الحكومة . ومن العجيب أن ورق البردى انقرض من العالم وحلت محله هذه الأوراق التى تجمعها الكتب بين دفتيها . وذهب النسخ وجاءت المطبعة ، ولا يزال الاسم الذى أطلق على ورق البردى Papyrus هو الأصل الذى اشتقت منه الأسماء التى تطلق على الورق والصحف فى اللغات الغربية . فورقة البردى التى سميت « بريس » بدار الكتب الأهلية بباريس ، تعد — كما يقول « جوستاف لوبون » — أقدم من أشعار هوميروس وأقدم من كتب التوراة ، يرجع عهدها إلى الأسرة الثانية عشرة ، ففيها إذن ما خطته الأقلام منذ خمسة آلاف من السنين .

ومن ذلك تبين لنا قيمة هذه الوثيقة العريقة والتى حملت اسما ذا دلالة حديثة فى لغة الحضارة Presse إلى جانب ما توحى إليه من جذور مقالية فى التراث القديم ، إذ تضمنت مقالا أخلاقيا ألفه « كاكمنا » فى حكم الملك سنيفرو من الأسرة الثالثة ، ومعلومات فتاحوتب التى ترجع إلى الأسرة الخامسة . وإلى جانب هذه الوثيقة عرفت مصر لونا من صحافة الرأى فى النقد والتوجيه والمعارضة .

الإعلام عند الإغريق :

وكانت الصور الإعلامية عند الإغريق تتخذ شكل الخطابة السياسية والملاحم والأعمال الدرامية، وقد سجلت الإلياذة والأوديسا ملاحم البطولات الحربية فى أشعار حماسية تلهب مشاعر الجماهير .. وكانت مسرحيات سوفكليس ويوريبدس وإيسكيلوس تمثل شكلا من أشكال الاتصال الجماهيرى بما تقدمه من عروض تراجيدية وكوميدية وساتيرية يستعرض فيها الكاتب أمجاد الماضى والواقع المعاش وتقاليد المجتمع ، ويقوم بعرض المشكلات التى يعانى منها الناس ويطرح حلولا مقترحة لها ، كما يسخر من الأوضاع الاجتماعية المناقضة للعادات والتقاليد . كذلك فإن الكتاب المسرحيين كانوا يبشرون بمستقبل أفضل ينبع من تصوراتهم ورؤاهم الخاصة ..

أما سقراط وأفلاطون وأرسطو وغيرهم من الفلاسفة الإغريق ، فإنهم كانوا من المنظرين الرواد فى الإعلام كنتيجة لازدهار الكلمة وتأثير المسرح والخطابة فى

الجماهير .. وعلى الرغم من أن سقراط كان يتوسل بالجدل فى الاتصال بالناس ، إلا أن أفلاطون وأرسطو كانا أكثر اهتماما بحقيقة الاتصال وجديته .. فقد كان أفلاطون يرى أن المجتمع وحدة متكاملة تشبه الجسد الحى الذى لا ينقص منه ولا يزاد عليه ، ويرى أن العلاقات بين الأفراد هى التى تربط بين أجزاء المجتمع ويقول « إذا كانت القوى الحاكمة تشبه العقل فى الإنسان ، فإن القوى الحارسة التى تتمثل فى الجند تشبه الانفعالات أو القوى الغضبية — أما القوى العاملة فى المجتمع فهى تمثل النزوات والشهوات » .

ومن أهم عناصر الاتصال فى نظر أفلاطون — القيادة أو الزعامة والفن — وخاصة الشعر والموسيقى . ويشترط أفلاطون أن يكون القائم بالقيادة أو الزعامة والمنتج للفن سواء أكان شعرا أم موسيقى أن يكون من الجادين الدارسين لأحوال المجتمع ، الراغبين فى إصلاحه ، البعيدين كل البعد عن التضليل وإثارة الأهواء .

وكان للمنادى عند أفلاطون أهمية كبرى ، فهو فى مكانة رجل الإعلام المعاصر ، وهو المسئول عن تبليغ الناس بما يجدّ من أنباء أو أحداث داخل المجتمع ، الذى تصوره أفلاطون وصوّره محدود العدد لكى يستطيع مناد واحد أن يقوم بالإعلام فيه على الوجه الأكمل .

ولم ينس أفلاطون اللغة كعنصر اتصالى هام ، فخصّها بمحاورة « أقرطليس » التى فنّد فيها آراء السابقين حول الألفاظ ومدلولاتها .

وكان أرسطو يقول « إن الخطابة هى القدرة على النظر فى كل ما يوصل إلى الاقناع فى أية مسألة من المسائل » . ذلك لأن أرسطو كان معنيا بالخطابة والبلاغة على النحو الذى تعنى به دراسات الاتصال الحديثة .. فحدد عناصرها واهتم بدراسة الخطيب والجمهور — أى المرسل والمستقبل — كما اهتم بالرسالة الاتصالية « الخطبة » وعناصرها وما فيها من حجج وبراهين للتأثير على نفوس وعقول الجماهير المستمعة .

وركز أرسطو بشكل خاص على مصدر المعلومات الذى تعنى به نماذج الاتصال الحديثة ، فقال « ومن ننصت لهم هم القريبون منا ومن لنا بهم كبير صلة وعظيم ثقة ، وهم الذين يشاركوننا فى الوطن .. ومن هم على قيد الحياة والعلماء لا الجهلاء .. والعدد الأكبر فى ذلك خير من العدد الأصغر . فشهادة هذه الجماعات مظنة الصدق أكثر من غيرهم من الجماعات التى لا تتصف بهذه الصفات ، لأن من لا نهتم بهم ولا بأحكامهم كالأطفال والحيوانات لا يهمنا تقديرهم ولا أفكارهم من هذه الناحية على الأقل ، فإذا اهتممنا بشأنهم فمن نواح أخرى » .

الإعلام عند الرومان :

أما الصور الإعلامية عند الرومان فقد استخدمت بعض الأشكال الإغريقية والأشكال التى استوردتها من بعض البلاد التى احتلتها وفى مقدمتها مصر ، ثم ركزت على الإعلام الرياضى . وكان هذا التركيز ضروريا كوسيلة لصرف أنظار الشعب عن المشكلات الحكومية ، وتوجيه اهتمامه إلى الأخبار الخاصة بالرياضة على اختلاف أشكالها . فكان الجمهور الرومانى يحتشد فى الساحات العامة لمشاهدة الأبطال الرياضيين والمصارعين ، كما كان يحضر الحفلات التى كانت تقام لمصارعة الحيوانات المفترسة . وفى أيام يوليوس قيصر صدرت صحيفة « الحوادث اليومية » Acta Diurna التى كانت تهتم بالأخبار عامة ، ومنها أخبار السياسة كما يريدها الحاكم — لا كما هى فى واقعها الفعلى — . كذلك فقد ظهرت الدعاية التبشيرية كنوع جديد من الاتصال فى الحضارات القديمة ، ممثلا فى رسالة المبشرين المسيحيين الأوائل . ويعتبر هذا التبشير نوعا جديدا فى تاريخ الدعاية الدينية ، فاليهودية التى سبقت المسيحية لم تكن تعنى بالدعاية أو محاولة اجتذاب الناس إليها ، فى حين أخذت المسيحية تدعو لنفسها منذ البداية ، كما اجتهدت لنشر تعاليم المسيح واجتذاب أكبر عدد ممكن لاعتناق المسيحية .. وقد انتشرت الدعوة المسيحية بسرعة ، لأن أوربا كانت تعيش فى ذلك الوقت فى دياجير الوثنية ، وكانت مناطقها الغربية قبل ميلاد المسيح تعيش جاهلية عمياء . ورغم أن المسيحية وصلت إليهم بعد أن شاهت وتغير جوهرها وعدل وبدل فى تعاليمها ، إلا أنهم أقبلوا عليها إقبالا شديدا ، واعتنقوها كبديل للوثنية القديمة ، وتحت تأثير الجهود التبشيرية المنظمة التى استمرت حتى عصرنا هذا — بل إن كلمة دعاية فى أصلها تعنى نشر مذهب معين أو زرع شجيرات صغيرة لكى تثمر وتينع . (Propagare) وهذا هو المعنى الأصلى الذى استخدمه البابا أربان الثامن (Urban ١٦٣٣ م) عندما أنشأ مجلس الدعاية لنشر العقيدة الكاثوليكية ، ومواجهة الحركات البروتستنطية ، وللتبشير فى الدول الأخرى .

الإعلام فى حضارة الفرس :

دلت البحوث الأثرية الأخيرة عند أكباتانا عاصمة الميديين ، على أن الميديين ابتدعوا حروفا هجائية جديدة تبلغ تسعا وثلاثين علامة مسمارية ، وكانوا يستخدمون هذه الحروف فى كتابة اللغة الفارسية على القطع الفخارية . كما استخدموها أيضا كلما أرادوا أن يسجلوا وقائع إعلامية على المبانى الحجرية . وهكذا بدأ الفرس — كما يقول

برستد — والذين ظلوا فترة طويلة دون علم بالكتابة ، يسجلون وقائع إعلامية ووثائق تاريخية لتخلد بعدهم على مر الدهور . وتعتبر هذه الآثار أقدم ما وصل إلينا من وثائق ميدية أو فارسية . وترجع أهمية المدوّنات المسمارية الفارسية أنها هى التى مكنتنا من حل رموز وقراءة النقوش المسمارية فى غرب آسيا . وكانت هذه المدونات وسيلة من وسائل الإعلام ، شأنها شأن النظام البريدى الذى استخدمه الرسل الملكيون فى الإعلام القديم ، وشأن فن المعمار الذى أخذ البناءون الفرس يتعلمونه من الشعوب الشرقية القديمة التى خضعت لإمبراطوريتهم ، فاقتبسوا المدرجات الهائلة التى كانت تقوم عليها القصور الفارسية عن البابليين ، كما اقتبسوا الثيران المجنحة التى تقوم أمام أبواب القصر والسلالم المؤدية إليها عن آشور . أما بواكى الأعمدة التى تمتد أمام القصور وتملأ أبهاءها ، والتى كانت أقدم ردهات ذات أعمدة بنيت فى آسيا .. فإنهم اقتبسوها من مصر إذ كانت تقام على ضفاف النيل منذ أكثر من ألفين من السنين قبل ذلك التاريخ . وكذلك جدران القصور الزاهية الألوان والتى بنيت من طوب مزجج ، فإنها جاءت إلى بلاد الفرس من الغرب . وهكذا اندمجت الحضارات العظيمة التى حكمها الأباطرة الفرس فى حياة إمبراطوريتهم .. وأدى اندماج تلك الحضارات القديمة التى نشأت فى الشرق الأدنى تحت نظام شامل ، إلى إيجاد حالة جديدة لها خطرها الكبير فى تاريخ أوربا . فقد رأينا قورش وكيف وصلت انتصاراته إلى شواطئ البحر الإيجى ، ورأينا المدن الإغريقية التى تقع فى غربى آسيا الصغرى وقد أصبحت تحت الحكم الفارسى .

وقد عرف الفرس الأعياد كوسيلة إعلامية .. منها عيد النيروز الذى يعنى فى لغة الفرس اليوم الجديد وموعده الأيام الستة الأوائل من أول شهر فى سنتهم الشمسية ، وهو يوافق ٢٤ آذار أى أنه يوافق أول الربيع واليوم السادس يسمى النيروز الكبير ، لأن الأكاسرة كانوا ينصرفون فيه إلى مجالس أنسهم مع خاصتهم .

والنيروز أعظم أعياد الفرس . به تستقبل السنة وتفتتح جباية الخراج ، وهو زمن تولية العمال واستبدالهم ، وضرب الدراهم والدنانير ، وتذكية بيوت النيران ، وإشادة البنيان ، وما أشبه ذلك .

وقد كان لملوك الفرس نظام معين فى النيروز .. يجلس الملك فى اليوم الأول فيقابل الناس ويحسن إليهم ، ويجلس فى اليوم الثانى لمن هم أرفع مرتبة وهم الدهاقين وأهل البيوتات ، ويجلس فى اليوم الثالث لأساورته .. ثم يختص ولده وصنائعه باليوم الخامس فيصل إلى كل واحد منهم ما يستحقه من رتبة وتكريم ، فإذا كان اليوم السادس نوّر

لنفسه ولم يصل إليه إلا أهل أنسه ومن يصلح لخلوته[1] . أما « المهرجان » فهو الأيام الستة الأوائل من أول شهرهم مهرجان وهو يوافق أول الخريف ، ويسمى اليوم السادس منه المهرجان الكبير حيث كان ملوك الفرس يأمرون بإخراج ما فى خزائنهم من الملابس فتفرق على خاصة الملك وحراسه ، ثم على سائر الناس حسب مراتبهم .

ويقول الجاحظ « إنهم كانوا يتقبلون الهدايا فى العيدين من طبقات شتى ، والنظام فى ذلك أن يهدى الرجل ما يحب من مِلكه إذا كان فى الطبقة العالية .. فإن كان يحب مسكا أهدى مسكا لا غيره ، وإن كان يحب عنبرا أهدى عنبرا ، وإن كان صاحب بزة ولبسة أهدى كسوة وثيابا ، وإن كان من الشجعان والفرسان فكان يهدى نشابا ، وإن كان من أصحاب الأموال فإنه يهدى ذهبا أو فضة ، وكان الشاعر يهدى الشعر ، والخطيب الخطبة ، والنديم التحفة أو الطرفة إلخ[2] .

الإعلام فى الهند :

يعتبر كثير من الباحثين الهند هى البلد الذى نشأ فيه المسرح كوسيلة للاتصال ، وأنها كانت منبعا لمعظم المسرح فى آسيا الذى يتميز عن المسارح الأوربية والإفريقية وغيرها .

وكان للهند القديمة تأثير كبير سجله التاريخ على بلاد آسيا فى المجالات الثقافية والدينية ، فقد ظهر فيها قبل المسيح بعدة قرون أمير هندى عرف فيما بعد باسم جاو تاما بوذا . وكانت الديانة التى نبعت من حياته وتعاليمه حية قوية حتى لقد انتشرت وذاعت فامتدت إلى الصين واليابان شمالا ، وإلى أقصى الجزر الإندونيسيه شرقا .

وقد عرفت هذه الديانة أساليب اتصالية استخدمتها فى التبشير بها عن طريق المبشرين البوذيين ، الذين نقلوا معهم فى حلهم وترحالهم الأخلاق والتقاليد الهندية . وكانت اللغة التى يتحدثون بها هى لغة « براكيت Prakit » أو « بالى » وهى لهجة بوذا المحلية ، وكانت الكتابات التى نقلوها معهم هندية ، فى الوقت الذى كان فيه غالبية سكان آسيا حتى ظهور بوذا أميين ، واستعملوا حركات الرقص والأشكال الدرامية والاستعراضات الفخمة والآلات الموسيقية كوسائل للاتصال بالجماهير .

وقبل ميلاد المسيح بقرن من الزمان وإلى عشرة قرون تالية ، كان جنوب الهند يتسع ويمتد إلى ما وراء البحار بوسيلة اتصالية أخرى . فتارة كان هذا الاتساع يتم بالغزو

---

(١) الآثار الباقية للبيرونى ، ص ٢١٨

(٢) التاج فى أخلاق الملوك — للجاحظ ، تحقيق أحمد زكى باشا ، القاهرة ، المطبعة الأميرية ١٣٣٢ هـ — ١٩١٤ م ، ص ١٤٦ .

المسلح كما فى حالة سيلان ، حيث كان ملوك جنوب الهند الأقوياء الذين يحملون لقب « تاميل » يبعثون جيوشهم مرّةً بعد أخرى .. بيد أن هذا التوسع كان يتم فى أغلب الأحيان بدافع الرغبة فى ممارسة التجارة .

وقد عرفت الهند فن الملاحم فى الإعلام القديم ، فهناك الملحمتان الكبيرتان : الرامايانا والماهبهاراتا ، فى مقابل الإلياذة والأوديسة فى الغرب عند الأغريق. وهى أيضا قصص مغامرات جوالة طويلة تتناول الآلهة والبشر والأبطال العظام والحيوانات العجيبة صانعة المعجزات ، وتزخر بالحكم والأقوال المأثورة التى تفرق بين السلوك النبيل الفاضل والسلوك الدنئ .

ولقد أتاحت الرامايانا والماهبهاراتا عبر الأجيال والقرون سيلا إعلاميا لا ينضب من الأحداث والنوادر والمواقف الروائية المناسبة لأشكال درامية وراقصة لا تقع تحت حصر .

وفى حين غذت الرامايانا والماهبهاراتا المطالب الدينية فى نفوس الهند ، وأشبعت ميولهم الفطرية نحو الفنون الشعبية والمسرح ، كما زودت هيئاتهم الثقافية فيما وراء البحار بالإلهام والقوالب الفنية ، نمت فى الهند نفسها مجموعة مستقلة نسبيا من القصص الدرامية . ففى غضون حقبة معينة تمتد على وجه التقريب من القرن الثالث الميلادى حتى القرن الثامن ، ازدهرت فى الهند أولى القصص الدرامية بالمعنى الذى نفهمه اليوم من لفظة دراما ، وتعرف هذه الحقبة على وجه العموم بالعصر الذهبى للدراما السنسكريتية(١) .

وفى المسرحيات الآسيوية كان الراوى يقوم بدور رجل الإعلام الحديث ، ولذلك يطلق على الراوى أو المنشد فى الدراما السنسكريتية اسم « سوترادهار » أى « ماسك الخيط » وهو الذى يمسك فى الواقع خيوط القصة كلها ، ويعد المشهد ، ويقدم المعلومات التى تشكل خلفية الدراما ، والتى لا تيسر للشخصيات التى تتضمنها الحبكة المسرحية أن تنقلها إلى النظارة من خلال الحركة المسرحية ، ويجهر بالأفكار التى تراود عقول هذه الشخصيات ، ويفسر الأجواء والأحوال ، ويحتفظ لنفسه فى أدائه بالأقسام الدسمة من الأشعار الإيضاحية ، ويترك ما خلا ذلك من الأحاديث للمؤدين الأصليين .

---

(١) فوبيون باورز (المسرح فى الشرق) ترجمة أحمد رضا ، القاهرة ، دار الكاتب العربى ص ١٤

الإعلام فى الصين :

تعتبر الحضارة الصينية من أكبر الحضارات المتجانسة فى العالم ، حيث تربط بين جميع بقاع هذه الكتلة الأرضية الشاسعة وسيلة اتصال مشتركة فى الكتاب والأدب والإعلام.

وتنقسم بلاد آسيا من الوجهة الثقافية ، وبصفة عامة،بين الصين والهند . حيث تنتمى بعض البلاد من الناحية الجمالية إلى الهندوسية فى الهند ، بعقائدها القديمة ذات المغزى الدينى ، والسمات الفنية الخاصة ، والرقص الذى اتخذته وسيلتها التعبيرية الرئيسية .. وبإشراقة الحضارة الصينية القوية القادرة بالمثل على تمدين الشعوب ، أخذ نفوذ الهند الذى كان ينبسط ويغزو البلاد البعيدة يتضاءل ويضعف ، وبدأت حضارة الصين تغشى فيتنام وهونج كونج وكورياو أو كيناوا واليابان . وجرى تبادل منظم إلى حد ما ولفترة طويلة بين مجالى النفوذ الهندى والصينى عن طريق المناوشات على الحدود ، والحجاج والطوافين والعلاقات الدبلوماسية . وقد تغلغلت العقيدة البوذية الهندية فى الصين والبلاد المتاخمة لها منذ ألفى عام بنفس الحماسة التى انتشرت بها فى بلاد جنوب شرق آسيا . وقد كان الوعى المسرحى فى المنطقة الصينية يمثل مظهرا اتصاليا هاما .

ويؤكد فولتير — ولو أنه ليس هناك ما يثبت تأكيده — أنه كانت فى الصين منذ زمن سحيق صحف ومجلات .

وقال ماركوبولو فى كتاب رحلاته . « لن أتجاوز الحقيقة إذا قلت إن إمبراطور الصين كان عليما بأسرار الكيمياء السحرية ، فقد كان يصدر أوراقا تتحول إلى كثير من المال » ، ويقصد بها الأوراق النقدية كوسيلة للتداول .

اتصال العرب بالحضارات القديمة :

وكان للعرب قبل الإسلام اتصال بهذه الحضارات القديمة ونظمها الاتصالية ، وهناك إشارة إلى العرب فى الكتابات الآشورية ، هى الإشارة التى وردت فى كتابات الملك شلمنصر الثالث ملك آشور(١) ، فقد كان هذا الملك أول من أشار إلى العرب فى نص من النصوص التاريخية التى وصلت إلينا ، وهو تسجيل لانتصار عسكرى تم له فى السنة السادسة من حكمه . ثم توالت الإشارات إلى العرب فى أخبار الحملات الآشورية ، وفيها أسماء لمواضع عربية معروفة قديما .. وأسماء لشخصيات عربية أيضا هى أقدم أسماء معروفة لنا ، وقد وردت فى نصوص عربية مثل : زبيبة وشمس والباسق .

---

(١) آدى شير ، تاريخ كلدو وآشور ، بيروت ، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين .

ولما كان العرب يجاورون البابليين وكانوا قد ساعدوهم فى نزاعهم مع آشور ، فليس من المستبعد أن يكون هنالك اتصال بين العرب والكلدانيين — وقد تحدث الإخباريون عن غزو بختنصر من سنة ٦٠٤ إلى سنة ٥٦١ ق م للعرب فى أيام معـد بن عدنان ، ووصوله إلى موضع « ذات عرق » .

وقد حدثتنا الكتابات البابلية أن بختنصر أرسل فى السنة السادسة من ملكه الموافقة لسنة ٥٩٩ ق م ، حملة على القبائل العربية التى تسكن البادية نهبت فيها أملاكهم ومواشيهم كما نهبت آلهتهم — والهدف من سرقة الآلهة كان إكراه تلك القبائل على الاستسلام والخضوع ، وهذا أسلوب من أساليب الحرب النفسية من وجهة نظر الإعلام فى عصرهم ، فالاعتداء على المعبود يمثل اغتصابا للعقيدة ، وهو يقابل فى عصرنا عمليات غسيل المخ(١) وأساليب التلقين المذهبى التى لا تخرج عن كونها تطورات حديثة للسيطرة على معتقدات الإنسان والتحكم فى سلوكه .. ومن ذلك ما يخضع له الأسرى فى عصرنا من أسر بهدف التلقين والضغط على عقولهم لتغيير أفكارهم ، وتحويلهم من عقيدة إلى أخرى .

وكذلك ما يفعله الشيوعيون حينما يقومون بعمليات غسيل المخ وإحلال معتقداتهم محل العقائد الدينية الراسخة فى العقول ، وما تفعله الصهيونية من تخريب للمجتمعات وتقويض لقيمها والمثل العليا فيها لإضعاف تلك المجتمعات والسيطرة عليهم ، على نحو ما نجد فى كتابهم بروتوكولات حكماء صهيون ، حيث جاء فيه « إن الشباب قد انتابه العته لانغماسه فى الفسق المبكر الذى دفعه إليه أعواننا من المدرسين والخدم والمربيات اللائى يعملن فى بيوت الأثرياء والموظفين ، والنساء اللواتى يعملن فى أماكن اللهو ، ونساء المجتمع المزعومات اللواتى يقلدونهن فى الفسق والترف » .

وقد تنبه أدولف هتلر إلى ذلك الخطر من البلاشفة والصهاينة ، وقد نبه إليه فى كتابه « كفاحى » عندما قال « فمنذ أن وضع اليهود والبلاشفة نصب أعينهم تقويض صرح الدولة الألمانية ، رأينا الرذيلة تنصب شراكها فى طريق الشبيبة الألمانية كيفما اتجهت وأنى وجدت ، ورأينا عرش الإباحية والخلاعة ينصب فى دور العرض السينمائى والمرابع والمراقص والحانات وحتى فى الساحات العامة ، وكيف يرجى من شبيبة هذا شأنها أن تهب للذود عن الوطن ، وأن تستميت فى الدفاع عن مؤسساته وتقاليده ؟ » .

والثابت تاريخيا أن الصلة بين العرب والفرس كانت موجودة قبل تأسيس إمارة

---

(١) Brain Washing

الحيرة بقرون ، فالعرب أدوا الجزية للملك قورش بخورا ولبانا فى سنة ٥٥٠ ق . م ، فقد استولى الفرس على أكثر الهلال الخصيب واتصلوا بالعرب اتصالاً مباشرا . ويقال إن قمبيز استعان بالعرب عندما غزا مصر سنة ٥٢٥ ق . م ، حيث زودوه بالإبل والماء والأدلاء ومرشدى الصحراء . كما يقال إن العرب ساعدوا الفرس فى حملتهم على اليونان سنة ٤٩٢ ق . م(١) .

وفى أوائل القرن الثالث بعد الميلاد نازعت أياد مضر بعد انتصارها على جرهم وإجلائها عن مكة ، فهزمت أياد وهاجرت إلى العراق ، وكان أكبر موطن لها عين « أباغ » على أنها استوطنت أجزاء متفرقة من جنوبى الحيرة(٢) منها « سنداد » وهو نهر فيما بين « الحيرة » إلى « الأيلة » وكانت أياد ذات منعة لا تعطى الإتاوة أحدا من الملوك ، وقد أغارت على بلاد الفرس مرتين(٣) .

وقد سجل الشاعر عدى بن زيد على حصن عظيم كان على شاطئ الفرات قصيدة يقول فيها :

أيها الشامت المعير بالدهـــر أأنت المبرأ الموفـــور ؟
من رأيت المنون خلدن أم من ذا عليـــه من أن يضام خفير ؟
أين كسرى .. كسرى الملوك أنوشـــروان أم أين قبلـــه سابـــور ؟
وبنو الأصفر الكرام ملوك الروم لم يبـــق منهم مذكـــور
وأخو الحضر إذ بناه وإذ دجلـــة تجبـــى إليـــه والخابـــور
شاده مرمـــرا وخللـــه كلسا فللطـــير فى ذراه وكـــور
لم يهبه ريب المنون بـأن الســـماك عنـــه فبابـــه مهجـــور
سره مالـــه وكثرة ما يمـــلك والبحر معرض والسديـــر
فارعوى قلبه وقال : ومـا غبـــطـة حىّ إلى الممـــات يصير

ويروى التاريخ أن غارات العرب تكررت على الفرس مما جعلهم يفكرون فى تأسيس إمارة تكون بينهم وبين العرب من ناحية ، وبينهم وبين الروم من ناحية أخرى ، فكانت إمارة الحيرة التى كانت تبعد ثلاثة أميال من الكوفة على بحيرة النجف ، وتقع على حافة البادية .

---

(١) العرب قبل الإسلام ، جورجى زيدان ص ١٠١ ، نقلا عن هيرودوت .
(٢) دائرة المعارف الإسلامية ج ٣ ص ١٦٧
(٣) شرح القصائد العشر للتبريزى ص ٢٧٣

وقد سكن الحيرة ثلاثة من القبائل: « تنوخ » وهم البدو النازلون غربي الفرات ، و « العباد » وهم الساكنون الأصليون للمنطقة ، و « الأحلاف » وهم الوافدون إلى الحيرة من مختلف البقاع .. ولكنهم جميعا من العرب .. ويعتبر النعمان بن امرئ القيس ابن عمرو المعروف بالنعمان الأعور من أعظم ملوكهم ، وقد حكم الحيرة من سنة ٤٠٣ — ٤٣١ م ، وكان آخر ملوكهم الأقوياء النعمان بن المنذر أو النعمان الثالث من سنة ٥٨٥ — ٦١٣ م .

وكانت الحيرة إلى جوار أنها حلقة اتصال بين العرب والفرس مجمعا لأديان عديدة وملل ونحل مختلفة في الجاهلية .. فقد عاش فيها من يعتنق الزرادشتية والمسيحية والمانوية وأصحاب الديانات الوثنية الذين بقيت منهم الصابئة في حران حتى القرون الوسطى (١) .

والثابت تاريخيا أن سيف بن ذى يزن أمير اليمن قد استنجد بالفرس على الأحباش الذين استولوا على اليمن سنة ٥٢٢ م ، فاتجه إلى كسرى أنو شروان سنة ٥٣١ — ٥٧٨ م فمده بجيش خلص اليمن من حكم الأحباش وأخضعها لحماية الفرس (٢) .

وقد سجل الشاعر أبو الصلت فرحة العرب بهذا الانتصار في قصيدة منها :

لا يطلب الثأر إلا كابن ذى يزن ... في البحر خيم للأعداء أهوالا
أتى هرقل وقد شالت نعامته ... فلم يجد عنده النصر الذى سالا
ثم انتحى نحو كسرى بعد عاشرة ... من السنين يهين النفس والمالا
حتى أتى ببنى الأحرار يقدمهم ... تخالهم فوق متن الأرض أجبالا
من مثل كسرى شاهنشاه الملوك له ... أو مثل وهرز يوم الجيش إذ صالا
لله درهمو من فتية صبروا ... ما إن رأيت لهم في الناس أمثالا
بيض مرازبة غلب أساورة ... أسد تربب في الغيضات أشبالا
أرسلت أسدا على سوق الكلاب فقد ... أضحى شريدهمو في الأرض فلالا
فاشرب هنيئا عليك التاج مرتفعا ... في رأس غمدان دارا منك محلالا
واطل بالمسك إذ شالت نعامتهم ... وأسبل اليوم في برديك إسبالا

ومع أن اليمن لم تنعم باستقلال تام ولا حكم عادل من الفرس ، إلا أنها ابتهجت لخلاصها من الأحباش الذين حاولوا الاعتداء على البيت الحرام ، ثم أساءوا استعمال سلطتهم ولم يتورعوا عن ارتكاب أبشع الجرائم الخلقية وانتهاك أعراض النساء ، مما جعل العرب يسخطون عليهم ويقررون التخلص منهم بمساعدة كسرى .. ويذكر التاريخ أن

---

(١) Literary History of Persia - Browne, p. 154.

(٢) سيرة ابن هشام ، ج ١ ص ٦٥ — ٧٣

سيفا قال لكسرى عندما ذهب إليه مستنجدا « أيها الملك غلبتنا على بلادنا الأغربة فجئتك لتنصرنا عليهم وتخرجهم عنا ويكون ملك بلادى لك ، فأنت أحب إلينا منهم » .

وإلى جوار هذه الرابطة التى عقدتها الحرب بين عرب اليمن والفرس ، كانت هناك روابط أخرى تجارية كثيرة امتدت إلى مكة . فكانت العروض اليمنية الفارسية والفارسية الخالصة تفد إلى مكة ، كما كانت رحلة الشتاء التى يقوم بها القريشيون كل عام تفد إلى اليمن بعروض مكة .. وفى مقابل ذلك كانت عير قريش تخرج من مكة كل عام إلى الشام فى رحلة الصيف . وقد بلغ من أهمية رحلتى الشتاء والصيف أن ذكرهما القرآن الكريم حين قال تعالى ﴿ لإيلاف قريش ० إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴾ قريش ١ ، ٢ .

وكانت الشام فى تلك الفترة تحت حكم الرومان ، وعن طريق هذه الرحلة كان للرومان بالعرب اتصال مباشر أساسه التجارة . ثم إن العرب كانت لهم إقامة فى تلك الربوع قبل الميلاد بأحقاب طويلة .

وقد عثر على نقد ضرب فى عهد الحاكم الرومانى اسكورس كان عليه صورة رمزية تشير إلى الاتفاق الذى تم بينه وبين ملك العرب الغساسنة ـــ الحارث ـــ لمنع تحرشات العرب بحدود الإمبراطورية .

والمعروف أن سياسة الرومان كانت الاستعانة بالعرب لحماية الحدود المتاخمة للصحارى والمناطق التى يصعب عليهم حمايتها . وقد ذكر المؤرخ الشهير سترابون أن أحد سادات القبائل العربية كان متحكما فى البادية المتاخمة لبلاد الشام ، وكان من حلفاء الرومان . ثم انقض عليهم وعبر إلى العراق وذلك لإهانة لحقته من الحاكم الرومانى ، ويقول سترابون إن هذا وقع فى سنة ٤٦ ق . م(١) .

وقد ذكرت الأخبار أن عثمان بن الحويرث بعد أن سمع باستقبال قيصر القسطنطينية « يوسطنيوس » للحارث بن جبلة ملك الغساسنة ، وسمع أيضا عن ذهاب امرئ القيس إلى القيصر نفسه ليستعين به على استعادة عرشه ، وكذلك سمع عن سيف بن ذى يزن وما حققه من طرد الأحباش بعد مساعدة كسرى .. فقرر أن يشد الرحال إلى القسطنطينية ليطلب من قيصرها أن يجعله ملكا على مكة ، وأن تكون مكة مركزا من مراكز ملكه .

وراح عثمان يحدث الإمبراطور والإمبراطورة عن مكانة مكة بين العرب ، وكيف أن الكعبة هى قبلة العرب جميعا فى الحيرة والشام وفى الحجاز واليمن ، وكيف أن من يملك مكة تدين له بالولاء كل قبائل العرب .

---

(١) Strabo, Die Araber, I, — 5. 179.

وقد صادف هذا القول هوى فى نفس القيصر فوافق على ما عرضه عثمان ، ثم ألبسه التاج والعباءة الملكية وأرسله إلى مكة ليحكمها بأمره . ولكن قريشا عندما رأته صاحت به « مكة لقاح لا تملك » ، ثم طردته شر طردة فعاد إلى القسطنطينية حيث عاش هناك إلى أن مات .

أما عن صلة العرب باليونان فإننا نجد أن أقدم اسم يونانى سجله تاريخ العلاقات العربية اليونانية هو الإسكندر المقدونى سنة ٣٥٦ — ٣٢٣ ق . م ، الذى فتح الممالك التى تحيط به والتى كانت تطل على البحر الأحمر والخليج العربى . ثم أراد أن يسيطر على جزيرة العرب ليجعلها جزءا من إمبراطوريته العظيمة وليستفيد بما فيها من خيرات ، فأرسل بعثات تستطلع له أمورها وأحوالها حتى يتسنى له إرسال أسطول يستولى على سواحل الجزيرة .. وقد عادت إليه الرسل بما شجعه على البدء فى الاستعداد لغزو الجزيرة ، ولكن الغزو لم يتم حيث فاجأه الموت قبل أن يحقق هذا الأمل .

والمتأمل لفتوحات الإسكندر وتوسعاته فى آسيا بالذات يرى أنها لم تكن فتوحات وتوسعات سياسية فحسب ، ولكنها كانت ربطا للعالمين الشرقى والغربى ودمجا للثقافات والحضارات فيهما ، والتعرف على أمم كانوا يسمعون عنها وشعوب كانوا يتشوقون إلى لقائها للتأكد مما روى إليهم عن عاداتها وتقاليدها وأمجادها وأساطيرها .

وقد جاء إلى مصر علماء من اليونان مع الإسكندر أفادوا واستفادوا ، حتى لقد تحولت القرية الصغيرة التى سميت باسم الإسكندرية إلى مدينة عظيمة تموج فيها الثقافات الشرقية والغربية ، وتمتزج الحضارات ويتلاقى العلماء ، وأصبحت بها أكبر مكتبة عرفت فى ذلك الوقت ، وقد ظلت للإسكندرية مكانتها العلمية والحضارية حتى أشرق على العالم نور الإسلام .

هذا وقد كان من نتائج دخول اليونان إلى البحر الأحمر والخليج العربى أن دخلت النقود اليونانية إلى تلك الأماكن ، وقد عثر فى بعض بلاد الجزيرة العربية على نقد ضرب على النحو الذى كان عليه نقد الإسكندر .

وهذا كله يؤكد أن العرب لم يكونوا منعزلين عن غيرهم من الأمم ، وإنما كانوا على اتصال وثيق بهم .. وكانت هناك علاقات تأثير وتأثر .

الفصل الثانى

الإعلام فى المجتمع العربى القديم

هذا البحث يتناول الإعلام فى الإسلام ماضيه وحاضره ومستقبله .. ولذلك يتعين علينا أن نركز على دراسة المجتمع العربى الذى اختاره الله سبحانه وتعالى وشرفه بنزول دينه القويم عليه — وبخاصة من ناحية « وسائل الاتصال الإعلامى بين أطراف الجزيرة العربية » — ذلك المجتمع الذى قام على البدو والحضر — أهل وبر وأهل مدر — فأما أهل المدر فهم الحواضر وسكان القرى، أو بعبارة أخرى هم القبائل التى استقرت فى مساكن ثابتة وهى المسماة بدنات — وأما أهل الوبر فهم سكان الصحارى الذين يعيشون فى الخيام ويتنقلون تبعا للمراعى وانتجاعا للمياه .

وتطلق لفظة « عرب » على أهل المدر خاصة أى على الحضر « والحاضر والحاضرة من العرب »، أما أهل البادية فعرفوا « بالأعراب »، وإن كانت كلمة العرب قد أطلقت فى لغتنا لتشمل العربين « عرب الحاضرة وعرب البادية » .

ورغم أن العرب كانوا موزعين على الرقعة الصحراوية، إلا أنهم كانوا يمثلون أمة واحدة هى نتاج الاتصال بطرقه المعروفة لديهم — وقد قال الجاحظ « العرب كلهم شىء واحد .. لأن الدار والجزيرة واحدة، والأخلاق والشيم واحدة، وبينهم من التصاهر والتشابك والاتفاق فى الأخلاق وفى الأعراق، وجهة الخئولة المرددة والعمومة المشتبكة، ثم المناسبة التى بنيت على غريزة التربة، وطباع الهواء والماء .. فهم فى ذلك شىء واحد فى الطبيعة واللغة والهمة والشمائل، قالوا والمشاكلة من جهة الاتفاق والطبيعة والعادة ربما كانت أبلغ وأوغل من المشاكلة من جهة الرحم . وقد كان العرب يشعرون بهذه الوحدة الطبيعية، ويحنون إلى تقويتها بجميع كلمهم، وقد قوى تلك الرغبة فيهم محاولة الفرس إذلالهم، ومحاولة الأحباش الاستيلاء على الكعبة موطن تقديسهم، وطمع الأجانب فيهم، لذلك استدعت الحال أن يكون بينهم خطباء يدعون إلى هذه الوحدة الجامعة » .

والمعروف أن الفاصل بين الحضارة والبداوة عند العرب أو غيرهم من الأمم هو أسلوب الحياة ونظامهما، وكيفية الاتصال فيها .

والمعروف أيضا أن القبائل المتنقلة كانت تسكن الخيام على اختلاف أنواعها، وكانت خيمة سيد القبيلة هى أكبر الخيام وتسمى « مضرب القبيلة »، وكانت تستعمل « ناديا » يسمر فيه السيد مع أصحابه، ويأوى إليها الضيوف وكل محتاج للقرى. ويفتخر سيد القبيلة بمضربه هذا وتفتخر قبيلته أيضا، فكانوا إذا مدحوا إنسانا وأرادوا الإشادة به وبمكانته قالوا « إنه الكريم المضرب، شريف النصب ». وإذا أرادوا ذم إنسان قالوا « ما يعرف له مضرب عسلة » « ولا منبض عسلة » أى من النسب والمال.

أما القبائل التى تحضرت واستقرت وأصبح اسمها البدنات، فكانت تقيم بيوتها كما قلنا من الحجارة والخشب ومن مواد أخرى تجعل البناء يدوم أمدا طويلا، خاصة بيوت سادات القبائل والرؤساء. ومن حولها أسوار عالية وأبراج وحصون يأوى إليها المدافعون للمراقبة وشغل العدو عن الدنو ورميه بالحجارة والسهام، وغير ذلك من وسائل الدفاع التى كانت فى متناول أيديهم.

وتؤلف الأبراج صفحة من صفحات الإعلام فى التاريخ الجاهلى، فلم يقصد من وراء بنائها أداء واجب الدفاع فحسب، ولكن قصد منها أيضا أداء وظيفة المراقبة الإعلامية.

المجالس وآداب الإعلام:

كما كانت المجالس عند الجاهليين العرب تمثل وسيلة من وسائل الاتصال لها آدابها ونظمها، ومن ذلك أن على كل إنسان صيانة حرمة بيته وبيت غيره سواء بسواء.. ولعل السبب فى إصرارهم على صيانة حرمة البيوت أن بعض الأعراب كانوا يقتحمون البيوت بلا استئذان. وتحدثنا كتب السيرة والأخبار أن من الأعراب من كان يقف أمام حجرة النبى ويصيح: « اخرج يا محمد ». ولهذا شدد فى الإسلام على الاستئذان وعلى السلام.

كذلك فقد كانت التحية عند الجاهليين العرب وسيلة من وسائل الاتصال الشخصى، وكانت العادة أن يحيى الصديق صديقه إذا رآه. ومن تحياتهم السلام، وحياك الله.. أو حياك.. « ثم يذكر اسم إلٰهه ».

وإذا كان اللقاء صباحا قالوا « أنعم صباحا وعم صباحا ».

وإذا كانوا جماعة فيقول « أنعموا صباحا وعموا صباحا ».

وإذا كان اللقاء مساء قال « أنعم مساء وعم مساء ». وتجمع.

والمصافحة كانت معروفة عند الجاهليين العرب باليد اليمنى، وقد يتصافحون باليدين، وقد يتعانقون إذا كانوا قد عادوا من سفر بعيد أو طالت غيبتهم فى إحدى

الرحلات . وتكون إجابة الصغير للكبير بتلبية مؤدبة . فإذا سأل إنسان ذو مكانة إنسانا آخر أقل منه مكانة ، أجابه بجمل فيها أدب وتقدير مثل « لبيك وسعديك » .

ومن آدابهم فى البيت الامتناع عن قول الفحش والخوض فى المواضيع المثيرة للفزع والرعب بحضور النساء ، وعدم النظر بسوء إليهن ، وعدم تركيز النظر عليهن لأن فى هذا إهانة لرب البيت واستهانة بحرمة الأسرة .

وهذه أمور يركز عليها الآن الإعلاميون بالنسبة للمواد الإعلامية التى تدخل البيوت عن طريق الفيديو والتليفزيون ، ليشاهدها الجميع بما فيهم الأطفال والبنات والنساء .. كالأفلام الجنسية وأفلام الرعب التى تعرضها أحيانا بعض دور السينما أو أجهزة الفيديو ، ولا يجوز بحال من الأحوال عن طريق التليفزيون أو الإذاعة .

أما السمر فقد كان للخاصة الذين كانوا يجتمعون فى البيوت أو المضارب ، حيث يتحدثون بأخبار الأيام الماضية والحاضرة والقبائل البعيدة والقريبة . ويذكر أن عبد المطلب جد رسول الله ﷺ كان يجتمع بدار الندوة كل مساء ليروى للقوم من قريش تاريخ الأقدمين فى الجزيرة وغيرها من البلاد العربية وغير العربية .

ولم يكن السمر للتسلية والترفيه والإمتاع وشغل وقت الفراغ فحسب ، بل كان وسيلة من وسائل الإعلام . ذلك لأن أخبار أيام العرب وقصص رجالها كانت مادة الحديث فى تلك المجالس ، وكان الذين يتصدون للحديث والرواية هم أصحاب الألسنة ومن أوتوا مواهب خاصة يجيدون بها معرفة نفسيات الذين يستمعون إليهم ، والمادة المحببة لديهم . وما كانوا يحدثون به الأخبار والحوادث المسلية الطريفة ، والملح والنوادر ، وقصص الأبطال والفرسان التى كان الجاهليون يتشوقون لسماعها .

ويمكن تقسيم السمر إلى أربعة أقسام هى :

١ — ما يدور حول أخبار العالم كما وصلت إلى البادية .

٢ — ما يدور حول أخبار الملوك وسادات القبائل .

٣ — الشعر والمناسبات التى قيل فيها .

٤ — الجن والأساطير والخرافات .

الأعياد كوسيلة إعلامية :

ولما كان الاتصال بين العرب فى جاهليتهم صعبا ، كنتيجة لتوزعهم على رقعة واسعة من الصحراء كقبائل متنقلة وبدنات مستقرة ، فقد كانت الأعياد هى وسيلتهم للتجمع والاتصال . وأعياد الجاهليين كانت كثيرة نظرا لكثرة آلهتهم ، فقد كانت

« ٣٦٠ صنما » . وكان الحج إلى مكة من أهم هذه **الأعياد** .. حيث يجتمع فيه الناس من مختلف القبائل ، بل من مختلف البلدان فى ظروف أمن وسلام لا يحل فيها قتل ولا قتال ولا اعتداء ولا لغو ولا فحش . وكان الحج موسما تجاريا يعود على الجميع بالكسب الوفير إلى جانب كونه وسيلة من أهم وسائل الإعلام والاتصال — وهو كذلك حتى يومنا هذا .

أما يثرب فكان لها عيدان هما النيروز والمهرجان . وقد ذكر فى جامع الأصول وتاج العروس واللسان والقاموس ومقدمة الصحاح أن الرسول عليه الصلاة والسلام حينما قدم يثرب أبدلهما بيومى الفطر والأضحى .

وكانت الأعياد فرصتهم للتعرف على أخبار القبائل والأقوام من حولهم ، إلى جانب الترفيه والتسلية وتمضية الوقت فى الاستماع إلى الغناء ومشاهدة الرقص واللعب بالسيوف ، والاستمتاع بالمساجلات الشعرية التى كانت تعقد فى تلك الأعياد .

والآلات الموسيقية التى استعملت عند العرب الجاهليين ثلاث : آلات ذات أوتار كالعود ، وآلات نفخ ، وآلات ضرب كالصنوج والطبل والدف .

الأسفار والرحلات :

وكانت الأسفار والرحلات كذلك من وسائل الإعلام ونشر الأخبار ، فقد كان للعرب فى الجاهلية رحلتان : رحلة الصيف وكانوا يذهبون فيها إلى الشام ، ورحلة الشتاء وكانوا يذهبون فيها إلى اليمن . ولم تقتصر هذه الرحلات على التجارة فقط وإنما كانت وسائل إعلامية لها خطرها . فالعير تخرج من قريش فى طريقها إلى الشام أو اليمن فتمر بالعشرات من البلاد والمئات من القرى ، وفى كل بلد أو قرية تأخذ وتعطى ، وعندما تعود إلى مكة ثانية تكون معها حصيلة من الأخبار والقصص والروايات تعيش عليها إلى أن يحين موعد الرحلة القادمة .

دور الندوة :

وتحدثنا كتب التاريخ عن دور للندوة كان أشهرها وأهمها لدى العرب الجاهليين الدار التى شيدها قُصى الجد الأعلى لرسول الله ﷺ ، وجعل بابها يفضى إلى بيت الله الحرام ، وكان يجلس فيها ليصرّف أمور الناس ويحل مشاكلهم الخاصة والعامة . وهى عبارة عن مجلس يشبه المجالس التى كانت فى مدن اليونان ، وقد كونوها لتكون حكومة المدينة المشرفة على شئونها المدبرة لأمورها .

ولم يكن يدخل دار الندوة من قريش من غير ولد قصى إلا ابن أربعين سنة للمشورة ، لما كان قد استقر فى أذهان الناس من أهمية السن فى سداد الرأى ونضج التفكير .

المــلأ :

والمــلأ الذى ورد فى القرآن الكريم بمعنى جماعة يجتمعون على رأى واحد ، وتعبر لفظة الملأ عن الغالبية الساحقة ــ أى بمفهومنا الإعلامى العصرى الرأى العام ــ وعرف علماء العربية الملأ أنه الرؤساء والجماعة وأشراف القوم وسادتهم ورؤساؤهم ومقدموهم الذين يعتد بقولهم ويؤخذ بمشورتهم .

يروى أن النبى ﷺ سمع رجلا من الأنصار وقد رجعوا من غزوة بدر يقول « ما قتلنا إلا عجائز صلعا» . فقال عليه أزكى السلام : (أولئك الملأ من قريش ، لو حضرت فعالهم لاحتقرت فعلك) .

وكان ﷺ يقصد أشراف قريش وسادتها الذين جدلتهم سيوف المسلمين فى بدر .

فالملأ كما يقول لسان العرب « إنما هم القوم ذوو الشارة والتجمع للإدارة » . وورد فى تاج العروس « أن الملأ : التشاور والعلية » . ويظهر من المواضع العديدة التى وردت فيها كلمة الملأ بالقرآن الكريم أن المراد بها فى أكثر تلك المواضع علية القوم من ذوى الرأى والمكانة .

ولقد كان نظام الاتصال فى دور الندوة وفى الملأ على السواء ، يقوم على المشاورة والمناقشة التى تؤدى إلى الاستقرار على الرأى السليم الذى تلتزم به الجماعة ، ولذلك كانت العرب تحمد الأناة فى الرأى . والدليل على ذلك أن عامر بن الظرب حكيم يقول « دعوا الرأى يغب حتى يختمر ، وإياكم والرأى الفطير » . وقال قس بن ساعدة الأيادى لابنه « لا تشاور مشغولا وإن كان حازما ، ولا جائعا وإن كان فهما ، ولا مذعورا وإن كان فطنا ، ولا مهموما وإن كان عاقلا . فالهم يعقل العقل ، فلا يتولد منه رأى ، ولا تصدق به روية » .

وقال الأحنف بن قيس « لا تشاور الجائع حتى يشبع ، ولا العطشان حتى يروى ، ولا الأسير حتى يطلق ، ولا المُقِلّ حتى يجد ، ولا الراغب حتى ينجح » .

البريد كوسيلة اتصال :

وقد عرف البريد بين الجاهليين العرب وإن كان أصل الكلمة فارسيا . والبريد كما جاء فى اللسان بمعنى الرسول وموضع البريد والدابة التى تحمل الرسول والرسالة .

قال الشاعر العربى :

إلى أنس العيسى حتى كأننى   عليها بأجــواز الفــلاة بريــد

ومن أعمال صاحب البريد إرسال الأخبار إلى من عينهم فى هذا المنصب، فهم موظفون مخبرون يقومون بوظيفة المراقب والمخبر. فهم يخبرون الرؤساء والملوك وكبار الموظفين عن الأحوال العامة للمكان الذى يقع فى اختصاصهم، وأخبار الجهات المسئولة عن التصرفات المشبوهة التى قد تدبر ضد الدولة، وعن تحركات الموظفين خشية انفرادهم فى الحكم وإعلانهم العصيان على الحاكم.

الخطابة وبلاغة الاتصال :

والثابت تاريخيا أن الخطابة كانت رائجة عند العرب، وأن البلاغة كان لها مكانة عظيمة إلى درجة أن العبارة البليغة كانت تقيمهم وتقعدهم بما تثيره فى نفوسهم من انفعالات النخوة والشهامة والحماسة والاندفاع إلى القتال.

وقد كان للخطيب عند العرب الجاهليين مقام كبير، لفصاحة لسانه وقوة بيانه ومقدرته على الدفاع عن قومه والذب عنهم والتكلم باسمهم، فهو فى هذه الأمور مثل الشاعر لسان القبيلة ووجهها ورجل إعلامها. وقد ذكر أهل الأخبار أسماء جماعة من الخطباء اشتهروا بقوة بيانهم وسحر كلامهم وأوردوا نماذج من خطبهم، ومنهم من اشتهر بنظم الشعر وعدّ من الفحول، مثل عمرو بن كلثوم.

وذكر الجاحظ « أن العرب استعملت الموزون والمقفى والمنثور فى مساجلة الخصوم، والرجز فى الأعمال التى تحتاج إلى تنشيط وبعث همة، وعند مجاثاة الخصم وساعة المشاولة، وفى نفس المجادلة والمحاورة، واستعملت الأسجاع عند المنافرة والمفاخرة، واستعملت المنثور فى الأغراض الأخرى ». وقال الجاحظ أيضا « وكل شيء للعرب فإنما بديهة وارتجال وكأنه إلهام، وليست هناك معاناة ولا مكابدة ولا إجالة فكرة ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف همه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذى إليه يقصد، فيإتيه المعنى إرسالا، وإنما هو أن يصرف همه إلى جملة المذهب، وإلى العمود الذى إليه يقصد، فيأتيه المعنى إرسالا، وتنثال عليه الألفاظ انثيالا، ثم لا يقيده على نفسه، ولا يدرسه أحد من ولده. وكانوا أميين لا يكتبون، ومطبوعين لا يتكلفون. وكان الكلام الجيد عندهم أظهر وأكثر، وهم عليه أقدر، وله أقهر، وكل واحد فى نفسه أنطق، ومكانه من البيان أرفع، وخطباؤهم للكلام أوجد، والكلام عليهم أسهل، وهو عليهم أيسر من أن يفتقروا إلى تحفظ، ويحتاجوا إلى تدارس. وليس هم كمن حفظ علم غيره، واحتذى على كلام من كان قبله، فلم يحفظوا إلا ما علق بقلوبهم، والتحم بصدورهم، واتصل بعقولهم، من غير تكلف ولا قصد، ولا تحفظ ولا طلب ».

وقسم الجاحظ الخطب إلى قسمين فقال « اعلم أن جميع خطب العرب من أهل المدر والوبر ، من البدو والحضر ، على ضربين ، منها الطوال ومنها القصار ، ولكل ذلك مكان يليق به وموضع يحسن فيه . ومن الطوال ما يكون مستويا فى الجودة ، ومتشاكلا فى استواء الصنعة ، ومنها ذات الفِقر الحسان ، والنتف الجياد ، وليس فيها بعد ذلك شىء يستحق الحفظ ، وإنما حفظه التخليد فى بطون الصحف ، ووجدنا عدد القصار أكثر ، ورواة العلم إلى حفظها أسرع » .

هذا وقد استخدم العرب الخطابة كسلاح فعال فى المفاوضات التى تكون داخل القبيلة فى السلم وفى الحرب . وفى المفاوضات التى تكون بين القبيلة وغيرها من القبائل .

ومن الخطباء الجاهليين جماعة تخصصت فى إلقاء المواعظ والخطب الدينية والأخلاقية ، وهم قوم يسمون بالأحناف . وكانوا على دين إبراهيم عليه السلام وقد عادوا إلى مكة مع أبناء إسماعيل عليه السلام ، واستقروا فى الحرم حيث كانوا يقومون بالتدريس للناس .

ومن أشهر الخطب المنسوبة للعرب الجاهليين ، الخطب التى قالها النعمان بن المنذر ورجاله لكسرى أنو شروان . وكان الأخير قد تكلم فى العرب بما اعتبره الأول مهانة للعرب ، وأراد أن يرد عليه فيلقمه حجرا .. فقال :

« أصلح الله الملك .. حق لأمة الملك منها أن يسمو فضلها ويعظم حظها وتعلو درجتها ، إلا أن عندى جوابا فى كل ما نطق به الملك ، فى غير رد عليه ولا تكذيب له ، فإن أمننى غضبه نطقت به » . فلما أمنه كسرى قال « أما أمتك أيها الملك فليست تنازع فى الفضل لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها ، وبسطة محلها وبحبوحة عزها ، وما أكرمها الله به من ولاية آبائك وولايتك .. وأما الأمم التى ذكرت فأى أمة تقرنها بالعرب إلا فضلتها » . فقال كسرى « بماذا ؟ » . فأجابه النعمان « بعزها ومنعتها وحسن وجوهها ، وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها ، وشدة عقولها وأنفتها ووفائها . فأما عزتها ومنعتها فإنها لم تزل مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجند ، لم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل . حصونهم ظهور خيلهم ، ومهادهم الأرض ، وسقوفهم السماء ، وجنتهم السيوف ، وعدتهم الصبر .. إذ غيرها من الأمم إنما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور . وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة ، والصين المتمغة ، والترك المشوهة ، والروم المقشرة . وأما أنسابها وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيرا من أولها .. حتى إن أحدهم ليسأل عن أصل أبيه دينا فلا ينسبه ولا يعرفه .. وليس أحد من

العرب إلا يسمى آباءه أبا فأبا، أحاطوا بذلك أحسابهم، وحفظوا به أنسابهم، فلا يدخل رجل فى غير قومه، ولا ينتسب إلى غير نسبه، ولا يدعى إلى غير أبيه.

وأما سخاؤها فإن أدناهم رجلا الذى تكون عنده البكرة والناب عليها بلاغه فى حمولة وشبعه وريه، فيطرق الطارق الذى يكتفى بالفلذة ويجتزى بالشربة، فيعقرها له ويرضى ان يخرج عن دنياه كلها فيما يكسبه حسن الأحدوثة وطيب الذكر.

وأما حكمة ألسنتهم فإن الله أعطاهم فى أشعارهم ورونق كلامهم، وحسنه ووزنه وقوافيه، مع معرفتهم الأشياء وضربهم للأمثال وإبلاغهم فى الصفات، ما ليس لشيء من ألسنة الأجناس. ثم خيلهم أفضل الخيل، ونساؤهم أعف النساء، ولباسهم أفضل اللباس، ومعادنهم الذهب والفضة، وحجارة جبالهم الجزع، ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سفن، ولا يقطع بمثلها بلد قفر.

وأما دينها وشريعتها فإنهم متمسكون به حتى يبلغ أحدهم من تمسكه بدينه أن لهم أشهرا حرما وبلدا محرما، وبيتا محجوجا ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم. فيلقى الرجل قاتل أبيه أو أخيه وهو قادر على أخذ ثأره وإدراك وطره منه، فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بالأذى.

وأما وفاؤها فإن أحدهم يلحظ اللحظة ويومئ الإيماءة فهى ولث « عهد » وعقدة لا يحلها إلا خروج نفسه. وإن أحدهم يرفع عودا من الأرض فيكون رهنا بدينه فلا يغلق ولا تخفر ذمته. وإن أحدهم ليبلغه أن رجلا استجار به — وعسى أن يكون نائيا عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفنى تلك القبيلة التى أصابته أو تفنى قبيلته لما أخفر من جوار. وإنه ليلجأ إليهم المجرم المحدث من غير معرفة ولا قرابة، فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله.

وأما قولك إن أفضل طعامهم لحوم الإبل على ما وصفت منها أيها الملك.. فما تركوا ما دونها إلا احتقارا له — فعمدوا إلى أجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم، مع أنها أكثر البهائم شحومًا وأطيبها لحوما وأرقها ألبانا وأقلها غائلة وأحلاها مضغة.. وأنه لا شيء من اللحمان يعالج ما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه.

وأما تحاربهم وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم، فإنما يفعل ذلك من يفعله من الأمم إذا أنست من نفسها ضعفا وتخوفت نهوض عدوها إليها بالزحف.. وإنه إنما يكون فى المملكة العظيمة أهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غيرهم، فيلقون إليهم أمورهم وينقادون إليهم بأزمتهم. وأما العرب فإن ذلك كثير فيهم حتى حاولوا أن يكونوا ملوكا أجمعين.. مع أنفتهم من أداء الخراج والعطف بالعسف ».

أعجب كسرى بما سمع وعجب له، ثم قال للنعمان « إنك لأهل لموضعك من الرياسة فى إقليمك ولما هو أفضل ». ثم كساه من كسوته وسرحه إلى الحيرة.. فلما قدمها وفى النفس ما فيها مما سمع من كسرى من تنقص العرب وتهجين أمرهم، بعث إلى أكثم بن صيفى وحاجب بن زرارة التميميين، وإلى الحارث بن ظالم وقيس بن مسعود البكريين وإلى خالد بن جعفر وعلقمة بن علاثةوعامر بن الطفيل، وإلى عمرو بن الشريد السلمى وعمرو بن معد يكرب الزبيدى. فلما قدموا عليه قال لهم:

« قد عرفتم هذه الأعاجم وقرب جوار العرب منها، وقد سمعت من كسرى مقالات تخوفت أن يكون لها غور، ويكون إنما أظهرها لأمر أراد أن يتخذ به العرب خولا كبعض طماطمته فى تأدية الخراج إليه كما يفعل بملوك الأمم الذين حوله ».

ثم حدثهم بما قاله كسرى وما رد به عليه فقالوا:

« أيها الملك، وفقك الله. ما أحسن ما رددت وما أبلغ ما حججته به، فمرنا بأمرك وادعنا إلى ما شئت ».

فقال النعمان « إنما أنا رجل منكم وإنما ملكت وعززت بمكانكم وما يتخوف من ناحيتكم. وليس شىء أحب إلىّ مما سدد الله به أمركم وأصلح به شأنكم وأدام به عزكم. والرأى أن تسيروا بجماعتكم أيها الرهط وتنطلقوا إلى كسرى. فإذا دخلتم نطق كل رجل منكم بما حضره ليعلم أن العرب على غير ما ظن أو حدثته نفسه. ولا ينطق رجل منكم بما يغضبه فإنه ملك عظيم السلطان كثير الأعوان مترف معجب بنفسه. ولا تنخذلوا له انخذال الخاضع الذليل. وليكن أمر بين ذلك تظهر به وثاقة حلومكم وفضل منزلتكم وعظيم أخطاركم. وليكن أول من يبدأ الكلام منكم أكثم بن صيفى لسنى حاله. ثم تتابعوا على الأمر من منازلكم التى وضعتم بها، فإنما دعانى إلى التقدمة إليكم علمى بجميل كل رجل منكم على التقدم قبل صاحبه، فلا يكونن ذلك منكم فيجد فى آدابكم مطعنا فإنه ملك قادر مسلط ».

ثم دعا لهم بما فى خزائنه من طرائف الحلل والعمائم، وأمر لكل رجل بنجيبة مهرية، وكتب معهم كتابا قال فيه « أما بعد، فإن الملك ألقى إلىّ من أمر العرب ما قد علم، وأجبته بما قد فهم، بما أحببت أن يكون منه على علم. وقد أوفدت إلى الملك رهطا من العرب لهم فضل فى أحسابهم وأنسابهم وعقولهم وآدابهم، فليسمع الملك، وليغامض عن جفاء إن ظهر فى منطقهم، وليكرمنى بإكرامهم وتعجيل سراحهم، وقد نسبتهم فى أسفل كتابى إلى عشائرهم ».

وانطلق الرجال حتى دخلوا على كسرى وألقوا إليه بكتاب النعمان فقرأه، وأمر بإنزالهم إلى أن يجلس لهم مجلسا يسمع منهم. فلما أن كان بعد ذلك بأيام أمر مرازبته ووجوه أهل مملكته فحضروا وجلسوا على يمينه وشماله.. ثم دعا بهم على الولاء والمراتب التى وصفهم النعمان بها فى كتابه وأقام الترجمان ليؤدى إليه كلامهم، ثم أذن لهم فى الكلام فقام أكثم وقال « إن أفضل الأشياء أعاليها، وأعلى الرجال ملوكها، وأفضل الملوك أعمها نفعا.. وخير الأزمنة أخصبها، وأحسن الخطباء أصدقها. الصدق منجاة، والكذب مهواة، والشر لجاجة، والحزم مركب صعب، والعجز مركب وطىء. آفة الرأى الهوى، والضعف مفتاح الفقر، وخير الأمور الصبر. حسن الظن ورطة، وسوء الظن عصمة. اصلاح فساد الرعية خير من إصلاح فساد الراعى. من فسدت بطانته كان كالغاص بالماء. شر البلاد بلاد لا أمير فيها، وشر الملوك من خافه البرىء. أفضل الأولاد البررة. خير الأعوان من لم يراء بالنصيحة. أحق الجند بالنصر من حسنت سريرته. يكفيك من الزاد ما بلغك المحل. البلاغة الإيجاز. من شرد نفر، ومن تراخم تآلف.

فأخذت الدهشة كسرى وقال « ويحك يا أكثم.. ما أحكمك وأوثق كلامك، لولا وضعك كلامك فى غير موضعه ».

فأجابه أكثم « الصدق ينبىء عنك لا الوعيد ».

فقال كسرى « لو لم يكن للعرب غيرك لكفى ».

فقال أكثم « رب قول أنفذ من صول » (الصول: الوثبة عند الخصومة).

ثم قام حاجب بن زرارة فقال « ورى زندك وعلت يدك وهيب سلطانك. إن العرب أمة قد غلظت أكبادها واستحصدت مرّتها ومنعت درّتها، وهى لك واقعة ما تألفتها، مسترسلة ما لاينتها، سامعة ما سامحتها، وهى العلقم مرارة، والصاب غضاضة، والعسل حلاوة، والماء الزلال سلاسة. نحن وفودها إليك، وألسنتها لديك. ذمتنا محفوظة، وأحسابنا ممنوعة وعشائرنا فينا مطيعة. إن نؤب لك حامدين خيرا فلك بذلك عموم محمدتنا، وإن تذم لم نخص بالذم دونها ».

قال كسرى « يا حاجب ما أشبه حجر التلال بألوان صخرها ».

رد حاجب « بل زئير الأسد بصولتها ».

قال كسرى « هو ذلك ».

ثم قام الحارث فقال « دامت لك المملكة باستكمال جزيل حظها وعلو سنائها. من طال رشاؤه كثر متحه (سقاؤه)، ومن ذهب ماله قل منحه. ومن تناقل الأقاويل يعرف اللب. وهذا مقام سيرجف بما تنطق به الركب، وتعرف به كنه حالنا العجم والعرب.

ونحن جيرانك الأدنون ، وأعوانك المعيّنون . خيولنا جمة ، وجيوشنا فخمة . إن استنجدتنا فغير ريض (غير مقصرين) . وإن استطرقتنا فغير جهض (غير مانعين) . وإن طلبتنا فغير غمض — لا ننثنى لذعر ، ولا نتنكر لدهر ، رماحنا طوال وأعمارنا قصار » .

قال كسرى « لو قصر عمرك لم تستول على لسانك نفسك » .

فأجابه الحارث « أيها الملك إن الفارس إذا حمل نفسه على الكتيبة معززا بنفسه على الموت ، فهى منية استقبلها وجنان استدبرها . والعرب تعلم أنى أبعث العرب قدما ، وأحبسها وهى تسرف بها حتى إذا جاشت نارها ، وسعرت لظاها ، وكشفت عن ساقها ، جعلت مقادها رمحى ، وبرقها سيفى ، ورعدها زئيرى ، ولم أقصر عن خوف ضحضاحها ، حتى أنغمس فى غمدات لججها . وأكون فلكا لفرسانى إلى بحبوحة كبشها فأستمطرها دما ، وأترك جماتها جزر السباع وكل تسوع قشعم » .

فالتفت كسرى إلى بقية أصحاب الحارث وسألهم « أهو كذلك ؟ » .

قالوا « فعاله أنطق من لسانه » .

فقال كسرى « ما رأيت كاليوم وفدا أحشد ، ولا شهودا أوفد » .

فقام عمرو بن الشريد السلمى وقال « أيها الملك نعم بالك ، ودام فى السرور حالك . إن عاقبة الكلام متدبرة ، وأشكال الأمور معتبرة ، وفى كثير ثقلة ، وفى قليل بلغة (ما يتبلغ به) . وفى الملوك سورة السفر . وهذا منطق له ما بعده .. شرف فيه من شرف وخمل فيه من خمل . لم نأت لضيمك ، ولم نفد لسخطك ، ولم نتعرض لرفدك . إن فى أموالنا منتقدا ، وعلى عزنا معتمدا . إن أورينا نارا أثقبنا ، وإن أرود دهرنا بنا اعتدلنا . ألا إنا مع ذلك لجوارك حافظون ، ولمن رامك كافحون ، حتى يحمد الصدر ، ويستطاب الخبر » .

قال كسرى « ما يقوم قصد منطقك بإفراطك ، ولا مدحك بذمك » .

قال عمرو « كفى بقليل قصدى هاديا ، وبأيسر أفراطى مخبرا . ولم يلم من عزبت نفسه عما يعلم ، ورضى من القصد بما بلغ » .

قال كسرى « ما كل ما يعرف المرء ينطق به . اجلس » .

ثم قام خالد فقال « أحضر الله الملك إسعادا ، وأرشده إرشادا .. إن لكل منطق فرصة ، ولكل حاجة غصة . وعىّ المنطق أشد من عىّ السكوت . وعثار القول أنكأ من عثار الوعث . وما فرصة المنطق عندنا إلا بما تهوى . وغصة المنطق بما لا تهوى غير مساغة . وتركى ما أعلم من نفسى ، ويعلم من سمعى أننى له مطيق ، أحب إلى من تكالى ما أتخوف ويتخوف منى . وقد أوفدنا إليك ملكنا النعمان ، وهو لك من خير الأعوان ونعم حامل المعروف والإحسان . أنفسنا بالطاعة لك باخعة ، ورقابنا بالنصيحة خاضعة ، وأيدينا لك بالوفاء رهينة » .

قال كسرى « نطقت بعقل ، وسموت بفضل ، وعلوت بنبل » .

ثم قام علقمة فقال « نهجت لك سبل الرشاد ، وخضعت لك رقاب العباد . إن للأقاويل مناهج ، وللآراء مدالج ، وللعويص مخارج ، وخير القول أصدقه ، وأفضل الطلب أنجحه . وإنا وإن كانت المحبة أحضرتنا ، والوفادة قربتنا ، فليس من حضرك منا بأفضل مما غرب عنا .. بل لو قست كل رجل منهم وعلمت ما علمنا ، لوجدت له فى آبائه دينا أندادا وأكفاء ، كلهم إلى الفضل منسوب ، وبالشرف والسؤدد موصوف ، وبالرأى السليم والأدب النافذ معروف . يحمى حماه ، ويروى ندماه ، ويذود أعداه . لا تخمد ناره ، ولا يحترز منه جاره .

وإن من يلى العرب أيها الملك يعرف فضلهم ، فاصطنع العرب فإنهم الجبال الرواسى عزا ، والبحور الزواخر طيبا ، والنجوم الزواهر شرفا ، والحصى بالصحارى عددا ، فإن تعرف فضلهم يعزوك ، وإن تستصرخهم لا يخذلوك » .

قال كسرى « حسبك .. أبلغت وأحسنت » .

ثم قام عمرو بن معد فقال « إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق الصواب ، وملاك النجدة الارتياد . وعفو الرأى خير من استكراه الفكرة . وتوقيف الخبرة خير من اعتساف الحيرة . فاجتبذ طاعتنا بلفظك ، واكتظم بادرتنا بحلمك . وإنْ لنا كنفك يسلس لك قيادنا . يوقس صفاتنا قراع منافير من أراد لنا قضما ، ولكن معنا حمانا من كل من رام لنا هضما » .

ثم قام عامر الطفيل — وكان قد سمع من أحبار اليهود ورهبان النصارى والمنجمين والكهان أن نبيا يوشك أن يولد فى العرب ، يجمع ما تنافر من القبائل العربية ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويرفعهم فوق هامات البشر جميعا — فتحدث بمثل هذا تلميحا .

فقال له كسرى « متى تكاهنت يا ابن الطفيل ؟ » .

فأجابه عامر « لست بكاهن ، ولكنى بالرمح طاعن » .

واستمر هذا الحوار الخطابى بين كسرى وبين الرجال العرب ، وهو معجب بقولهم حتى انتهوا فقال « قد فهمت ما نطقت به خطباؤكم ، وتفنن فيه متكلموكم ، وقد قبلت فيما كان من منطقكم من صواب ، وصفحت عما كان فيه من خلل . فانصرفوا إلى ملككم فأحسنوا مؤازرته والتزموا طاعته ، فإن فى ذلك صلاح العامة .

* * *

ومن الخطب التى تحفظها واعية التاريخ العربى أيضا ، خطب عبد المطلب جد رسول الله ﷺ . ومن أشهرها خطبته فى تهنئة سيف بن ذى يزن باليمن حيث قال « إن الله

أحلّك أيها الملك محلا رفيعا ، صعبا منيعا ، شامخا باذخا . وأنبتك منبتا طابت أرومته ، وعزت جرثومته ، وثبت أصله ، وسبق فرعه فى أكرم موطن وأطيب معدن . وأنت — أبيت اللعن — ملك العرب وربيعها الذى يخصب ، وأنت رأس العرب الذى إليه تنقاد ، وعمودها الذى عليه العماد ، ومعقلها الذى تلجأ إليه العباد . سلفك خير سلف .. وأنت لنا منهم خير خلف . فلن يخمل ذكر من أنت سلفه ، ولن يهلك من أنت خلفه . ونحن أيها الملك أهل حرم الله وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذى أبهجنا لكشف الكرب الذى قدحنا ، فنحن وفد التهنئة ، لا وفد المرزئة » .

الشعر والحضارة السمعية :

يقولون إن الشعر ديوان العرب ، ويقولون هو تجارة العرب . وفى هذا القول تلخيص وتأكيد للدور الإعلامى الكبير الذى قام به الشعر فى جاهلية العرب الذين كانوا أميين فى عامتهم . وكانت وسيلة الاتصال الأساسية ترتبط بالحضارة السمعية الشفوية ، التى تعتمد على الأذن والذاكرة الحافظة ، والبيان فى القول وموسيقى الألفاظ وجمال الصور التى ترسمها .

لهذا اهتمت القبائل بالشاعر ، وكانت تعتز به أكثر من اعتزازها بالفارس الذى يحميها بسيفه ، وهذا وضع قضت به ظروف الحياة البيئية ، ودفعت إليه الحاجة الإعلامية .

يقول الجاحظ « كان الشاعر أرفع قدرا من الخطيب فى الجاهلية ، وكان يقدم عليه لفرط حاجة القبيلة إلى الشعر الذى يقيد عليهم مآثرهم ويفخم شأنهم ، ويهول على عدوهم ومن غزاهم ، ويحمس فرسانهم ويخوف من كثرة عددهم » .

ونحن لا نكاد نجد حربا فى جاهلية العرب لم تقترن أخبارها بالشعر ، فقد كانت الحرب تقوم على السيف والكلمة معا . وكان للشعر الفضل الأكبر فى كثير من الأحايين فى حفظ أخبار الحروب وبقاء ذكرها إلى هذا اليوم . ولا يزال الشاعر ينال مكانة محترمة عند أهل الحضر وعند أهل الوبر . فهو لسان القبيلة حتى اليوم يدافع عنها ويهجو أعداءها ، ويرد عنها ويشيد بفعال رجالها ، ويحدوها فى صراعها من أجل البقاء . قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه « الشعر علم قوم لم يكن لهم علم أعلم منه » .

وقال الجاحظ « وكانت العرب فى جاهليتها تحتال فى تخليدها بأن تعتمد على الشعر الموزون والكلام المقفى ، وكان ذلك هو ديوانها ، وعلى أن الشعر يفيد فضيلة البيان على الشاعر الراغب والمادح ، وفضيلة المأثرة على السيد المرغوب إليه والممدوح به » .

وقال العسكرى « لا تعرف أنساب العرب وتواريخها وأيامها ووقائعها إلا من جملة أشعارها ، فالشعر ديوان العرب وخزانة حكمتها ، ومستنبط آدابها ومستودع علومها » .

وقال جواد على فى كتابه تاريخ العرب قبل الإسلام « إن الشعر هو ديوان تسجيل من لا تسجيل له ، لجأت إليه الشعوب فى جاهليتها حين لم تعرف الكتابة ليقوم مقام الكتابة فى تخليد المآثر والأحداث ، وما يستجد لها من أمور عظام . بما فيه من أثر على القلب ومن نغم يساعد على الحفظ . فقام الشعر عندهم مقام الكتابة قبل أن تتفشى الكتابة بينهم .

ومن الظواهر الإعلامية فى الشعر عند العرب الجاهليين أن شاعرهم كان يتحدث بضمير الجماعة إذا كان ما يقوله فخرا ، ومن ذلك ما قاله عمرو بن كلثوم شاعر تغلب والحارث بن حلزة شاعر بكر ولبيد بن ربيعة شاعر عامر وغيرهم .

قال عمرو بن كلثوم فى معلقته يفتخر بقومه :

ونحن غداة أوقد فى خزازى رفدنا فوق رفد الرافدينا
وكنا الأيمنين إذا التقينا وكان الأيسرين بنو أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم وصلنا صولة فيمن يلينا
فآبوا بالنهاب وبالسبايا وأبنا بالملوك مصفدينا

وكانت القبيلة إذا ما أخطأ شاعرها تتحمل هى خطأه ، وتقف من ورائه تحميه وتنصره ، ولا تعترف أبدا بما وقع فيه شاعرها من الخطأ ، أو تقبل له أن يعتذر أو يقف موقفه ذل وهوان . ويقول فى ذلك أحد الشعراء الجاهليين :

إذا ما الملك سام الناس خسفا أبينا أن نقر الذل فينا
وأيام لنا غر طوال عصينا الملك فيها أن ندينا
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

كذلك فإن المدح لم يكن يصدر عن شاعر الجاهلية ، لأن الممدوح أسدى إليه شخصيا معروفا أو صنع به جميلا ، وإنما كان المدح يصدر من الشاعر لأن معروفا أو جميلا قد أسدى إلى قومه .

والشاعر زهير بن أبى سلمى يقدم لنا خير مثال على ذلك حين يقول :

ومن يك ذا فضل فيبخل بفضله على قومه يستغنى عنه ويذمم

ومن الظواهر الإعلامية أيضا فى شعر الجاهلية ، أن القبيلة كانت تعتبر إنتاج شاعرها ملكا لها وتراثا تحافظ عليه وتحرص على تلقينه لأطفالها جيلا بعد جيل . ولعل هذا ما كان يجعل الشعراء ينسبون إلى القبائل لا إلى آبائهم .. فيقال قال الهذلى ، وقال الطائى ، وقال أخو بكر ... الخ .

ومنها أن الشعر فى الجاهلية كان مرآة للبيئة التى يصدر عنها ووصفا نقديا لها . وفى ذلك يقول ابن سلام الجمحى صاحب طبقات الشعراء « الشعر ديوان علمهم ، ومنتهى حكمتهم ، به يأخذون ، وإليه يصيرون » .

والقبيلة المحظوظة من العرب الجاهليين هي القبيلة التي كان لها أكبر عدد من الفرسان والشعراء ، أي فرسان السيف والكلمة . فالأول فارسها في الحرب والطعان وحامي العرض والذمار ، والثاني يؤجج نيران العواطف ويلهب جذوة الحماس في النفوس . بل إنه هو الذي يحرك الضارب بالسيف ويدفعه إلى الإقدام ويشجعه على خوض المعارك .. وبذلك يشارك الشاعر مشاركة قوية فعالة في إحراز النصر بسلاحه الموزون المقفى . وما أعظم أن يجمع الفارس بين السلاحين .. السيف والكلمة .

وقد حفظت واعية التاريخ أسماء العديد من فرسان الجاهلية الذين جمعوا بين السلاحين ، واشتهروا بالبراعة في الضرب بالسيف والكلمة ، كعنترة بن شداد العبسي الذي ذاع صيته كمثل في الشجاعة والفروسية وعظمة الشعر . ولا تزال قصته تروى جيلا بعد جيل ليعرف الناس أنه كان مهملا مستعبدا في قبيلته ، لأن أمه كانت سوداء . فلما أغارت بعض أحياء العرب على قومه وخرج فرسان القبيلة لصدهم قال له أبوه « كر يا عنترة » . فقال « العبد لا يحسن الكر ، إنما يحسن الحلاب والصر » . فصاح به أبوه « كر ، وأنت حر » . فاندفع نحو المغيرين واستنقذ منهم ما سلبوه من قومه ، وعاد به إليهم فاعترف أبوه به ونسبه إليه ، فصار اسمه عنترة بن شداد . وقد سجل بطولات رائعة في الشعر والحرب ، خاصة في حرب « داحس والغبراء » .

ومن الشعراء الفرسان في الجاهلية أيضا « زيد الخيل » واسمه زيد بن مهلهل بن زيد بن متهب الطائي ، وهو سيد طيء . وقد قدم على رسول الله ﷺ في قومه فأسلموا فحسن إسلامهم . وقال رسول الله ﷺ (ما ذكر لي رجل من العرب بفضل ثم جاءني إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا زيد الخيل فإنه لم يبلغ كل ما كان فيه) . ثم سماه « زيد الخير »(1) وقطع له فيدا وأرضين معه ، وكتب له بذلك فخرج من عند رسول الله ﷺ راجعا إلى وطنه . فلما انتهى إلى ماء يقال له فردة بنجد أصابته الحمى المسماة بأم ملدم ، فلما أحس بنهايته قال :

أمرتحل قومي المشارق غدوة ... وأترك في بيت بفردة منجد
ألا ربَّ يوم لو مرضت لعادني ... عوائد لم يبد منهن يجهد

ومنهم عمرو بن كلثوم قاتل « عمرو بن هند » ملك الحيرة وصاحب المعلقة المشهورة ، وينتهي نسبه إلى تغلب ، وهو أحد فتاك العرب ، وقد ساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة ومات وهو ابن خمسين سنة .

* * *

---

(1) انظر كتاب « زيد الخير » للكاتب الكبير عبد العزيز الرفاعي .

ولا بد أن نذكر هنا أن نشأة الشعر تكاد تكون توأما لنشأة الغناء، إذ كان الحافز لذلك هو الداعى إلى ذاك ، وإذ كان الجمال المنبعث منهما له تأثير رائع على الأفئدة والأسماع ، وعلى الغرائز والطباع ..

ثم أخذ كل فن منهما يعمل دائبا فى رسالته ، ويتطور فى أداء مهمته ، ويحاول أن يأخذ أوضاعا خاصة به .. فتطورت أوزان الشعر وتعددت وأخذت شكلها المعروف الآن ، كما تطورت ألحان الغناء وأصبح فنا قائما بنفسه لا يحتاج إلى الشعر ولا يتوقف على أوزانه ، وصار الشاعر كذلك يستطيع أن يصور خوالجه ويرسم أحاسيسه دون أن يقصد إلى الغناء أو يفكر فيه .

قال ابن رشيق فى العمدة « كان الكلام كله منثورا ، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعراقها . وذكر أيامها الصالحة ، وأوطانها النازحة . وفرسانها الأمجاد ، وسمحائها الأجواد . لتهز نفوسها إلى الكرم ، وتدل أبناءها على حسن الشيم . فتوهموا أعاريض فعملوها موازين للكلام . فلما تم لهم وزنه سموه شعرا ، لأنهم شعروا به أى فطنوا له » .

فالغناء كان رفيق العربى وهو على ظهر ناقته يقطع الفيافى والقفار ، وكان سمير لياليه الطويلة والمهوّن عليه مشقة الجهاد ، والكفاح ضد الطبيعة القاسية . ولذلك كان معظم الشعراء فى الجاهلية يتغنون بأشعارهم وهم يلقونها ، فكان المهلهل يلقى شعره غناء ، وقد عرف الأعشى بصنّاجة العرب ، وكان حسان بن ثابت يقول :

تغنّ بالشعر إما كنت قائله ... إن الغناء لهذا الشعر مضمار

وكان الشاعر إذا أراد أن ينشد شعره أنشده واقفا . وقد يلقى الراوية شعر شاعره إن كان أقدر منه على الأداء . وذكر أن النشيد هو الشعر المتناشد بين القوم ، ينشد به بعضهم بعضا — ومنه « نشد الشعر وأنشده » .

والشعراء بوجه عام اربع طبقات : جاهليون ، ومخضرمون ، وإسلاميون ، ومولدون . فالمخضرمون هم الذين عاشوا فى الجاهلية وأدركوا الإسلام كالجعدى والحطيئة وحسان بن ثابت . والإسلاميون وهم الذين نشأوا فى الإسلام . والمولدون وهم الذين التوت ألسنتهم فعالجوها بالصناعة .

أما الجاهليون فيقسمهم ابن سلام فى كتابه طبقات الشعراء إلى عشرة :

الأولى : وهم امرؤ القيس ، النابغة الذبيانى ، زياد بن معاوية ، زهير بن أبى سلمى ، الأعشى .

الثانية : كعب بن زهير ، الحطيئة ، أوس بن حجر .

الثالثة : النابغة الجعدى ، أبو ذؤيب الهذلى ، خويلد بن خالد ، الشماخ بن ضرار ، لبيد بن ربيعة .

الرابعة : طرفة بن العبد ، عبيد بن الأبرص ، علقمة بن عبدة ، عدى بن زيد .

الخامسة : خداش بن زهير ، الأسود بن يعفر ، تميم بن أبى ثعبل .

السادسة : عمرو بن كلثوم ، الحارث بن حلزة ، عنترة بن شداد .

السابعة : سلامة بن جندل ، الحصين بن الحمام المرى ، المتلمس جرير بن عبد المسيح ، المسيب بن علس .

الثامنة : عمر بن قميعة ، النمر بن تولب . عوف بن عطية . سحيم عبد بنى الحسحاس .

التاسعة : الكميت بن معروف الإسدى ، عمرو بن شاس .

العاشرة : أمية بن الأسكر . حريث بن محفن .

* * *

ويضيف ابن سلام إلى هؤلاء الشعراء طبقات أخرى هى :

١ ــ **شعراء المراثى** : وهم متمم بن نويرة . الخنساء . أعشى ياهلة بن الحارث . كعب بن سعد الغنوى .

٢ ــ شعراء القرى : فالمدينة شعراؤها حسان بن ثابت ، كعب بن مالك ، عبد الله ابن رواحة ، قيس بن الخطيب ، أبو قيس بن الأسلت . وكان فيها شعراء يهودهم كعب ابن الأشرف ، والسموءل بن عاديا ، والربيع بن أبى الحقيق ، وشريح بن عمران ، وأبو قيس بن رفاعة ، ودرهم بن زيد .

وأما مكة : فشعراؤها عبيد الله بن حدافة ، وهبيرة بن أبى وهب ، وابن الزبعرى ، وأبو طالب بن عبد المطلب ، وأبو سفيان بن الحارث ، ومسافر بن أبى عمرو ، وضرار بن الخطاب ، وأبو عزة الجمحى عمر بن عبد الله .

وأما الطائف : فشعراؤها أبو الصلت بن أبى ربيعة وابنه أمية ، وغيلان بن سلمة ، وكنانة بن عبد ياليل .

وأما البحرين : فشعراؤها المتعب عائذ بن محصن ، والممزق العبدى ، والمفضل بن معشر .

أسواق الشعر والاتصال الجماهيرى :

ومما لا شك فيه أن الأسواق الكبيرة فى الجاهلية كانت كوسيلة للاتصال بالجماهير . ترتبط بالحضارة السمعية التى أثرت على اللغة العربية وما بلغته من إتقان ، كنتيجة لسيطرة الأذن على الاتصال بحيث يمكن أن نتحدث عن سلطان الذاكرة وما يطبع به أصحابها من رتابة واقتناع بأن النبوغ كل النبوغ فى الشعر . وهذا أمر طبيعى فى مرحلة الحضارة السمعية ـــ حيث يعيش الإنسان خبرته الكلية المتكاملة .

وفى مقدمة الأسواق التى عرفها العرب فى هذه الفترة سوق عكاظ ، الذى كان الشعراء يفدون إليه من كل البقاع فيتعاكظون ، أى يتفاخرون ويتناشدون ما أحدثوا من الشعر ثم يتفرقون .

وذكر أن النابغة الذبيانى كان ممن يأتيها فتضرب له قبة حمراء من أدم ، ويحضر إليه الشعراء فيعرضون نتاجهم ويحتكمون إليه ـــ وكان من الذين احتكموا إليه الأعشى الذى أنشده ، ثم أنشده حسان بن ثابت ثم الشعراء ، ثم جاءت الخنساء فأنشدته فقال لها النابغة « والله لولا أن أبا بصير ـــ يقصد الأعشى ـــ أنشدنى آنفا ، لقلت إنك أشعر الجن والإنس » . فقال حسان (والله لأنا أشعر منك ومن أبيك ومن جدك) . فقبض النابغة على يده ثم قال « يا بن أخى .. إنك لا تحسن أن تقول مثل قولى » :

فإنك كالليل الـذى هو مدركـى   وإن خلت أن المنتـأى عنك أوسع

فأنشده حسان :

لنا الجفنات الغر يلمعن بالضحى   وأسيافنا يقطـرن من نجدة دمـا
ولدنا بنـى العنقـاء وابنـى محرق   فأكرم بنا خالا وأكرم بنـا ابنـا

فقال له النابغة :

« أنت شاعر ، ولكنك أقللت جفناتك وسيوفك ، وفخرت بمن ولدت ولم تفخر بمن ولدك » .

وذكر أن عمرو بن كلثوم كان ممن حضر سوق عكاظ ، وقد أنشد فيها قصيدته الشهيرة :

ألا أهبـى بصحـنك فاصبحينـا   ولا تبقـى خمور الأندرينـا

وذكر أيضا أن القبائل كانت تفد إلى عكاظ للتجارة وتسقط أخبار القوم والتعرف بالوجهاء والشعراء وأصحاب الرأى . وجاء فى التاريخ الكبير والبداية والنهاية ومعجم البلدان وشرح ديوان الحماسة أن الرسول محمد بن عبد الله ﷺ قد حضر إلى سوق عكاظ للدعوة للإسلام .

وكانت هناك أسواق أخرى يؤمونها للتجارة وتبادل الآراء وعرض الأفكار والتشاور فى المشكلات . كما كانت مجالا للمفاخرات والمنافرات والمحاولات ، ومعرضا لإذاعة أمجاد القبيلة وشرف الأرومة وناديا واسعا لإلقاء روائع الشعر والمباهات بالفصاحة والبلاغة .

وكانت فى هذه الأسواق منابر للخطابة يقوم عليها الخطيب ، أو يقف عليها الشاعر لينشد قصيدته . والحق أن هذه الأسواق كانت بما فيها من جماهير غفيرة قد احتشدت وكلها لهفة للسماع والتذوق والاستمتاع ، تحمل الشعراء والخطباء على التجويد والتحسين ، وتدعوهم إلى تخير الألفاظ العذبة والعبارات الأنيقة والمعانى الرائعة ، قصدا إلى الوضوح والإفهام والإمتاع . ومن وراء الشعراء كان الرواة يحفظون ويذيعون هذا الفن المختار بين القبائل .

وقد كان لهذه الأسواق أثرها الفعال فى التقريب بين أخلاق العرب وعاداتهم وتقاليدهم ، حيث كانت تنزل بها شتى القبائل العربية على اختلافها من قحطانيين وعدنانيين . كما كان ملك الحيرة يبعث بتجارته إليها ، وكذلك كان التجار المصريون والشوام والأحباش واليمن وغيرهم يفدون إليها .

على أن هذه الأسواق قد تركت أثرها الفعال فى النظام الاتصالى بالجزيرة العربية — ذلك النظام الذى تمثل صلبه اللغة — فقد أدت إلى التقارب بين اللهجات العربية ، إذ كانت الأذواق المرهفة فى هذه الأسواق تعمل عملها فى النقد اللغوى . وكانت كل قبيلة تأخذ من لهجة الأخرى ما خفّ على اللسان وظهرت فصاحته من مختلف الألفاظ والأساليب . وكان القريشيون من بين القبائل الجاهلية التى تأثرت بذلك خلال مواسم الحج والأسواق والحروب ، إذ أنهم كانوا أكثر ميلا للنقد اللغوى ، فاقتبسوا من لهجات القبائل أعذبها ، ومن ألفاظهم أسهلها وأنصعها وأفصحها . وأخذوا يضيفون ذلك إلى حصيلتهم اللغوية ، وقلدت القبائل الأخرى قريشا ، وأخذت عنها محاكية لها فى لغتها ، وذلك لما كانت عليه قريش من مكانة عالية ومنزلة رفيعة بين العرب . وقيل إن الشعراء كانوا يتخذون اللهجة القريشية المختارة لذيوعها وسرعة انتشارها . وقد أدى هذا إلى تهذيب اللسان العربى وتقويمه وإعداده الإعداد المناسب للشرف العظيم الذى ناله عندما نزل به القرآن الكريم على رسول الله ﷺ .

وذكر الهمدانى أن من أسواق العرب القديمة عدن ، ومكة ، والجند ، ونجران ، وذو المجاز ، وعكاظ ، وبدر ، ومجنة ، ومنى ، وحجر اليمامة ، وهجر البحرين ، وسوق هبل ، هذا عدا أسواق أخرى وردت فى القصص والأخبار .

الحكم والأمثال :

وما ينبغى لنا ونحن بصدد الحديث عن وسائل الاتصال عند العرب فى الجاهلية أن نغفل الحكم والأمثال . فالأولى يقصد بها القول البليغ الموجز الصائب الذى يصدر عن عقل وتجربة وخبرة بالحياة ، ويتضمن حكما مسلما تقبله العقول وتنقاد له النفوس والمشاعر .. والثانية هى الأقوال السائرة التى وصفها المرزوق بقوله « إنها جملة من القول مقتضبة من أصلها أو مرسلة بذاتها فتتسم بالقبول وتشتهر بالتداول . فتنقل عمن وردت منه إلى كل ما يصح قصده منها من غير تغيير يلحقها فى لفظها » .

ومن أشهر حكماء العرب فى العصر الجاهلى أكثم الصيفى ، ومن حكمه « ربَّ عجلة تهب ريثا » و « لم يذهب من مالك ما وعظك » و « مقتل الرجل بين فكيه » و « آفة الرأى الهوى » و « ويل للشجى من الخلى » و « إن قول الحق لم يبق لى صديقا » . ومن أشهر الذين ذهبت أقوالهم أمثالا نعمان الحكيم ، ومنها « ربَّ أخ لك لم تلده أمك » و « آخر الدواء الكى » و « المبيت على الطوى حتى تنال به كريم المثوى ، خير من إيثار مالا تهوى » .

* * *

وأيام العرب أيام لها على وجه التاريخ الاتصالى فى الجاهلية بصمات خاصة . ذلك أنها مادة إعلامية خالصة تعبر عن الحروب والمناوشات التى وقعت بين القبائل وبعضها ، أو بين القبائل والأمم أو الممالك . وهذه الأيام تؤلف فى الواقع القسط الأكبر من علم الإخباريين بتاريخ الجاهلية . ومادتها القصص التى تناقلها من شهدوا المعارك أو حفظوا أحداثها عن الرواة حتى جاء عصر التدوين فدونوها . كما أنها تعتبر مادة إعلامية مشوقة يتلهف الناس على سماعها لاحتوائها علي وقائع عربية خالصة ، وأحداث عربية مثيرة ، ومواقف للعبرة ، وبطولات درامية تقرب من الأساطير .

ورغم أهمية هذه الأيام فإنها لم تحظ بمؤلف يضمّها فى كتاب أو كتب ، ويعمل على تنسيقها وتنظيمها وفق تسلسلها الزمنى . وكل ما حظيت به حتى الآن هى بضعة كتب متفرقة يتناول الواحد منها أياما دون أيام .. ويسجل أحداثا دون أحداث .. وهذا لا يكفى بطبيعة الحال . ولا بد أن يتجه العلماء والكتاب إلى تلك الأيام ليعملوا على دراستها وتصنيفها على أساس تاريخى سليم ، ثم يعنون بتدوينها كلها — ويقال إنها أكثر من ألف وسبعمائة يوم .

ومن أمهات تلك الأيام .. الأيام التى وقعت بين القبائل القحطانية والقبائل العدنانية . وكان السبب فيها أن جاءت إلى تهامة مذحج وهى قبيلة قحطانية من اليمن تريد

متسعا من الأرض ليكون موطنا جديدا لها . فاصطدمت بقبائل معد النازلة فى تهامة وقد اجتمعت كلها تحت راية عامر بن الظرب العدوانى ، ودار قتال مرير فى موقع يقال له البيضاء انتصرت فيه معد .

وقد شجع هذا النصر معد على ألا تؤدى الإتاوة إلى زعيم اليمن « زهير بن جناب » تمهيدا للتخلص من سيطرته . ولكنه جاءهم فى بعض حاشيته ليطالبهم فأمهلوه ثم أمهلوه ، فلم يكن إلا أن منعهم النجعة والمرعى فحقدوا عليه وصمموا على الانتقام منه ، خاصة وأن حاشيته لم تكن تزيد على بعض الأفراد . فدسوا عليه رجلا طعنه وظن أنه قتله ورجع إلى قومه سعيدا بالخبر ، فاعتقدوا أنهم قد استراحوا إلى الأبد منه ومن حكم اليمن .

ولكن زهيرا نجا من الموت وفر إلى قومه حيث عالج جرحه ثم جمع هم وهجم عليهم وقاتلهم قتالا عنيفا هزمهم فيه شر هزيمة ، وأرغمهم على دفع الإتاوة مضاعفة .

وما هى إلا سنوات قلائل حتى قام كليب بن ربيعة على رأس معد ، وكان فارسا مغوارا وخبيرا بشئون الحرب والقتال فصمم على التخلص من سيطرة اليمن على قبائله . ففكر ودبّر ثم حشد القبائل العدنانية كلها ضد القحطانيين وقاتلهم قتال المستميت حتى انتصر عليهم فى « يوم خزارة » .

وقد ذهب البعض من الإخباريين إلى أن يوم خزارة كان أعظم أيام العرب الجاهليين . وهذا القول قد يكون صحيحا من وجهة النظر العدنانية ، فقد تغلبوا فيه على القبائل الكبرى المنتمية إلى اليمن .. ومن الطبيعى أن يعتبروه من أعظم أيامهم إن لم يكن أعظمها جميعا .

ومن أيام العرب أيضا يوم السلان . ويذكر الإخباريون أن سبب وقوعه هو أن بنى عامر بن صعصعة كانوا قوما حمسا متزمتين لقاحا لا يخضعون لملك أو يدينون لحاكم مهما كان . وكان من عادة النعمان بن المنذر أن يرسل إلى عكاظ كل عام بتجارة تباع لحسابه هناك . وقبل أن يقترب رسله من السوق تعرّض لهم بنو عامر واستولوا على التجارة . فغضب النعمان لذلك وأرسل وبرة الكلبى أخاه لأمه وفارسه المفضل ومعه تجارة أخرى ، وقوم من بنى ضبة بن أد والرباب وتيم وحبيش بن دلف وضرار بن عمرو وكلهم من أشجع الفرسان ، وأوصاهم إذا فرغوا من البيع أن يقصدوا بنى عامر .

وعلمت قريش بما رسمه النعمان بن المنذر فأرسلت عبد الله بن جدعان إلى بنى عامر بالخبر . فاستعدوا للحرب وتحرزوا ووضعوا العيون وسلموا قيادتهم إلى عامر بن مالك المعروف بـ « ملاعب الرماح » .

والحديد. ودارت رحى المعركة بين الطرفين وانتهت بانتصار بنى عامر وأسر وبرة ومن بقى من رجاله على قيد الحياة . وقد رفض ملاعب الرماح أن يفك أسر وبرة إلا بألف بعير وفرس .

وتعتبر الأيام التى وقعت بين المناذرة والغساسنة من أشهر أيام القحطانيين . والأيام التى وقعت بين هؤلاء الملوك وملوك كنارة وأمرائها ، ثم الأيام التى وقعت بين القبائل المنتسبة إلى اليمن .

كما تعتبر الأيام التى وقعت للعدنانيين فى حروب البسوس من أشهر أيامهم ، خاصة وأنها قد دامت ما يزيد على الأربعين عاما . وقد أنتجت هذه السنون كمًّا هائلا من القصائد والقصص والأمثال والأناشيد .

وقد بدأت هذه الحروب عندما دخلت ناقة للبسوس أرضا لكليب بن ربيعة كان قد حماها ومنع الرعى فيها لغير إبله ، فضربها كليب وأدمى ضرعها . فشكت البسوس الأمر لابن أخيها جساس . وكان يحقد على كليب لغروره وصلفه واستئثاره بخير الأراضى وإصراره على ألا يرعى فيها غير إبله ، واستيلائه على منابع المياه والتحكم فيها ، فانقض عليه وقتله .

وما أن سمع المهلهل — وهو أخو كليب — بذلك ، حتى أقسم ألا يقرب النساء أو الطيب أو الماء حتى يثأر لأخيه .

ومن أهم أيام حرب البسوس : يوم النهى ، ويوم الذئاب ، ويوم واردات ، ويوم عنيزة ، ويوم القصيات ، ويوم تحلاق اللمم .

ومع ذكر أيام العرب وما جرى فيها من حروب ومعارك لمع الكثير من أسماء الشعراء والفرسان والخطباء ، وظهر كم هائل من القصائد تميزت بقوة السبك وتلاحم النسج وجودة الصوغ وصدق الانفعال وسمو الأسلوب ، وتصويرها الدقيق الرائع لما دار من وقائع وصراعات دامية وأحداث درامية لم تخل من قصص عاطفية مشوقة ، وأخرى غريزية عنيفة مدمرة .

كما تميزت هذه القصائد بطولها الذى لم يعرف من قبل فى القصيدة العربية ، فقد تعدت الواحدة المائة بيت فى ذلك الوقت الذى كان الشاعر فيه يقول بيتا أو أبياتا يعبر بها عما تجيش به نفسه . ويذكر أهل الأخبار أن مهلهلا هو أول من قصد القصائد وأول من جعلها ثلاثين بيتا ، واسمه امرؤ القيس بن ربيعة بن مرة بن زهير بن جشم ، وإنما سمى مهلهلا لبيت قاله لزهير بن جناب الكلبى .

لما توعّر فى الكراع هجينهم   هلهلت أثأر جابرا أو حنبلا

وقيل إن اسمه كان عديا، وقد ذكره امرؤ القيس فى شعره ولقب مهلهلا لطيب شعره ورقته، أو لأنه أول من أرق المراثى، أو لأنه قصّد القصائدوقال الغزل. وفيه يقول الفرزدق « ومهلهل الشعراء ذاك الأول ».

وهو أخو « كليب وائل » الذى هاجت بقتله حرب بكر وتغلب، وهو جد « عمرو بن كلثوم » لأمه. وقد أورد المعرى له بيتا هو أول بيت من قصيدة تنسب إليه.

أرعـد وساعـة الهياج وأبرقـــ ـــنا كما توعد الفحـول الفحـولا

وذكر أصحاب الأخبار أن الشعر كله كان رجزا وقطعا، وأنه إنما قُصِّد على عهد هاشم بن عبد مناف. وكان أول من قَصَّده مهلهل وامرؤ القيس وبينهما وبين مجىء الإسلام مائة ونيف وخمسون سنة. وقالوا إنه أول شاعر بلغت قصائده ثلاثين بيتا من الشعر، وقد احتذى من جاء بعده حذوه. كما ذكروا أنه كان أول من كذب فى شعره بقوله:

فلولا الريح أسمع من بحجـــر صليل البيض تقرع بالذكـور

وكانت العرب لا تكذب فى أشعارها قبل هذا البيت وكان بين الموقع الذى وقعت به الحادثة وهى بالجزيرة وبين حجر وهى قصبة اليمامة مسافة بعيدة.

وقد تحدث عنه « لبيد » فى شعره، وربط بينه وبين « مرقّش » فى بيت يؤكد فيه أنهما مهدا السبيل لمن جاء بعدهما من الشعراء.

والشاعرون الناطقون أراهـم سلكـوا سبيـل مرقّش ومهلهـل

وبعد المهلهل بدأ الشعراء يطيلون فى قصائدهم بل يتبارون فى إطالتها ويتعمدون الرقة واللطف. وقد برز امرؤ القيس على الجميع فى هذا المضمار، ولم يلبث أن أصبح على رأس شعراء الجاهلية. وكان أول من علقت له قصيدة بالكعبة، ثم علقت بعدها ست قصائد أخرى لشعراء آخرين، وقيل ثمانية وقيل تسعا. ولكن الإجماع يكاد يكون على أنها كانت سبعا وقد سطرت بماء الذهب على القباطى التى كانت تستورد من مصر لتكسى بها الكعبة، وقد علقت على البدنة تقديرا لجودتها وتخليدا لذكر صاحبها، وقد عرفت بعد ذلك بالمذهبات والمقلدات لأنهم اعتبروها كالقلائد البواق على الدهر. والسمط هو الخيط مادام فيه الخرز، وقد سميت بالمسمطات لأنها كانت فى نظرهم كخيط اللؤلؤ المنظوم يتلو بعضه بعضا.

وقد عرفت المعلقات بالسبع الطوال لأن أبيات بعضها تعدت المائة، ولم تنقص عن خمس وثمانين بيتا فى البعض الآخر.

وتعتبر المعلقات السبع أثرا من آثار الانتقال من حضارة الاتصال السمعي إلى حضارة الاتصال التلويني، فهى أول ما سطر كتابة من الشعر الجاهلي، وقد سطرت بعناية فائقة بماء الذهب على أرق أنواع الحرير وعلقت فى الكعبة المشرفة أعظم مكان مقدس لدى العرب.

وشعراء المعلقات السبع هم « امرؤ القيس. طرفة بن العبد. زهير بن أبى سلمى. لبيد بن ربيعة. عنترة بن شداد. الحارث بن حلزة. عمرو بن كلثوم ».

والقصائد السبع هى التى تبدأ بالأبيات التالية:

امرؤ القيس:

١ — قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل
يسقط اللوى بين الدخول فحومل

طرفة بن العبد:

٢ — لخولة أطلال ببرقة ثهمد
تلوح كباق الوشم فى ظاهر اليد

زهير بن أبى سلمى:

٣ — أمن أم أوفى دمنة لم تكلم
بحومانة الدراج فالمتثلم

لبيد:

٤ — عفت الديار محلها فمقامها
بمنى تأبد غولها فرجامها

عنترة بن شداد:

٥ — هل غادر الشعراء من متردم
أم هل عرفت الدار بعد توهم؟

الحارث بن حلزة:

٦ — آذنتنا ببينها أسماء
رب ثاو يمل منه الثواء

عمرو بن كلثوم:

٧ — ألا هبى بصحنك فاصبحينا
ولا تبقى خمور الأندرينا

وهؤلاء الشعراء كلهم جاهليون ما عدا لبيدا فإنه من المخضرمين . وبعض أهل الأخبار يسقط من هذه القصائد قصيدة عنترة بن شداد ويضع مكانها قصيدة الأعشى التى مطلعها :

ما بكاء الديار بالأطلال وسؤالى ومـا ترد سؤالى

والبعض الآخر يضع مكانها طويلته :

ودع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق فراقا أيها الرجل

والبعض الثالث يضع طويلة النابغة التى مطلعها :

يا دار ميّة بالعلياء فالسند أقوت وطال عليها سالف الأمد

يقول أحمد بن عبد ربه صاحب العقد الفريد « الشعر ديوان خاصة العرب والمنظوم من كلامها والمقيد لأيامها والشاهد على أحكامها ، حتى لقد بلغ من كلف العرب به وتفضيلها له أن عمدت إلى سبع قصائد تخيرتها من الشعر القديم فكتبتها بماء الذهب فى القباطى المدرجة ، وعلقتها فى أستار الكعبة » .

ويقول ابن رشيق « وكانت المعلقات تسمى المذهبات ، وذلك لأنها اختيرت من سائر الشعر القديم فكتبت فى القباطى بماء الذهب وعلقت على الكعبة ، لذلك يقال مذهبة فلان إذا كانت أجود شعره . ذكر ذلك غير واحد من العلماء ، وقيل كان الملك إذا استجيدت قصيدة الشاعر قال : علقوا لنا هذه لتكون فى خزانتى » .

ويرى ابن خلدون « أنه إنما كان يتوصل إلى تعليق الشعر بالكعبة من له قدرة على ذلك بقومه وعصبيته ومكانه فى مكة ، ويرى أن التعليق كان لأكثر من سبع قصائد .

ويرى البغدادى صاحب خزانة الأدب أنها سميت بمعلقات لأنها علقت على الكعبة ، ويقول « كان العربى فى الجاهلية يقول الشعر فلا يعبأ به أحد أو يحفل أو يطلب منه إنشاده ، فكان يحتفظ بالقصيدة حتى موسم الحج فيعرضها على أندية قريش ، فإن استحسنوها رويت وكانت فخرا له وعلقت على ركن من أركان الكعبة ، وإن لم يستحسنوها طرحت وعاد صاحبها إلى مكانه حزينا مهزوما » .

وقد نفى البعض التعليق وأنكروا كل ما أثير حولها من ضجة فى تاريخ الأدب ، وهم يقولون إنها قصة مصنوعة موضوعة ويبرر هؤلاء كلامهم بالآتى :

أولا — أن عملية التعليق قد وصلت إلينا غير واضحة أو مفسرة ، ولم تعرف منها كيفية التعليق ولا زمانه ولا الذين أمروا به سواء أكانوا ملوكا أو حكاما أو شعراء .

ثانيا — الكعبة قد تعرضت فى هذه الفترة إلى الحريق والغرق والهدم . وقد تجدد بناؤها وذكر كل ما يختص بهذا ولم يشر أحد إلى المعلقات بشىء على الإطلاق .

ثالثا — التخبط فى ذكر عددها، ولو أنها علقت لما حدث هذا التخبط، ولما اختلفت الروايات حول أصحابها.

وقد تزعم أصحاب هذا الرأى أبو جعفر النحاس فقال « إن خبر تعليقها لا يعرفه أحد من الرواة، وإن حمادا حين رأى صدوف الناس عن الشعر وزهدهم فيه جمع لهم هذه القصائد السبع وقال هذه هى المشهورات، فسميت القصائد المشهورة. وهو يرى أن تسميتها بالمعلقات يرجع إلى أن الملك كان إذا استحسن قصيدة قال « علقوا هذه واثبتوها فى خزائنى ». والنحاس يرى أنها كتبت وعلقت وإن كان ينكر تعليقها على الكعبة، ثم لا يذكر من هو الملك الذى كان يستحسن القصيدة ويأمر بتعليقها فى خزائنه ».

ونحن نميل إلى الأخذ بقول هؤلاء المنكرين لأننا لم نجد ما يؤكد قصة التعليق فى الأحداث التى سبقت الإسلام ولا التى وقعت فى فجر ظهوره.. لقد حدثتنا الكتب عن ٣٦٠ صنما كانت حول الكعبة، وعن هبل الذى كان قابعا فى جوفها، ورويت لنا الأقاصيص عن الأفعى التى كانت تسكن الكعبة، والخزانة التى كانت الهدايا تلقى إليها، كما ذكرت لنا قصة الغزالين الذهبيين اللذين وجدهما عبد المطلب جد الرسول ﷺ فى بئر زمزم عند إعادة حفرها واللذين علقهما على جدار الكعبة، وكذلك ذكرت لنا أن باخوم المصرى عندما ساهم فى بناء الكعبة لقريش رسم على جدران الكعبة وسقفها رسوما للقديسين المسيحيين وغيرهم، وأن الرسول ﷺ عندما دخل الكعبة وأمر بمحو كل ما كان على جدرانها من صور ورسومات، وقيل إنه أرسل الفضل بن العباس فجاء بماء من زمزم ثم أمر بثوب وكلفه بمحو هذه الصور والرسومات وقال (قاتل الله قوما يصورون ما لا يخلقون)، ثم أنه ﷺ ضرب جميع الأصنام والأوثان بقضيب كان فى يده فحطمها، ثم أمر بحملها إلى الخارج حيث حرقت.

ولو كانت قصة المعلقات صحيحة لسمعنا شيئا عنها كما سمعنا عن الأصنام والصور وغيرها.

القصص:

وقد عرف العرب القصص فى الجاهلية كوسيلة من وسائل الاتصال بهدف الإخبار والإمتاع والتسلية والتثقيف. وقد أشار القرآن الكريم إلى وجود القصص عند الجاهليين. فقد بلغ من حب الجاهليين للقصص أن كانوا يسألون كل وافد عليهم أن يقص عليهم من حكايات بلده وقومه. وقيل إن اصحاب رسول الله ﷺ سألوه أن

يقص عليهم فنزلت ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص ﴾ يوسف ٣ ، ﴿ فاقصص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ الأعراف ١٧٦ ، ﴿ وتلك القرى نقص عليك من أنبائها ﴾ الأعراف ١٠١ . وكان أصحاب الرسول ﷺ حين يتسامرون يتبادلون القصص .

وتعرض علينا مسلسلة « على هامش السيرة » المأخوذة عن كتب الدكتور طه حسين ، المأخوذة بدورها عن أمهات كتب السيرة — عبد المطلب جد رسول الله ﷺ وهو يروى لقومه كل ليلة قصص الملوك والأبطال وسادات القبائل وأشرافها ، وتظهر لنا كيف كان القوم فى قريش يتابعونه باهتمام وينفعلون بالأحداث انفعال من حضرها .

ومن أشهر قصاص الجاهلية « النضر بن الحارث بن علقمة بن قلده » أو شيطان قريش كما كانوا يطلقون عليه لشدة عداوته للإسلام والمسلمين . وكان قد سافر إلى فارس وعاش هناك فترة مكنته من تعلم بعض علومهم ومعرفة قصصهم وأساطيرهم ، ولما عاد إلى قومه فى مكة أخذ يقص عليهم ما فى جعبته فاستمعوا إليه باهتمام جعل الغرور يملأ نفسه والصلف يسيطر عليها . وقد انضم إلى أبى الحكم عمرو بن هشام ومن معه من أعداء رسول الله ﷺ ، وراح يشيع فى الناس أن القرآن من صنع محمد ، وأنه يستطيع أن يأتى بمثل ما أتى به محمد .. ثم تحدى الرسول ﷺ وآذاه وأصحابه أشد الإيذاء . وهو الذى كتب بيده الآثمة صحيفة المقاطعة التى قاطعت بها قريش المسلمين وحصرتهم فى شعب أبى طالب .. تلك الصحيفة الظالمة التى علقتها قريش فى جوف الكعبة فأكلت القرضة كل ما فيها إلا اسم الله .

وقد نزلت فى النضر ثمانى آيات منها قوله تعالى ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا أو قال أوحى إلىّ ولم يوح إليه شىء ومن قال سأنزل مثلما أنزل الله ﴾ الأنعام ٩٣ .

وذكرت الأخبار اسم قصاص آخر تخصص فى القصص الدينى عند النصارى ، هو تميم بن أوس بن خارجة الدارى . وكان له مجلس فى الأسواق يروى فيه للقوم قصصه ، وقد شرح الله قلبه للإسلام سنة تسع من الهجرة فدخل وحسن إسلامه . وقد استأذن الخليفة عمر بن الخطاب فى أن يقص على الناس قصصا إسلامية يستقى مادتها من القرآن الكريم فأذن له ، وكان بذلك أول قاص فى الإسلام ، وكان يجلس إلى محبى قصصه فى يوم الجمعة من كل أسبوع بالمسجد .

ومن القصص الجاهلى ما هو عن الجن والمخلوقات الغريبة المخيفة ، وما هو عن الحيوانات والبعض منه يدور على ألسنتها . ومنه القصص التاريخى وقصص الحروب وقصص الحب والجنس .. والقاص فى الجاهلية كان شخصية محببة إلى النفوس يقبل عليه الجميع شيبة وشبابا ويستمعون إليه فى استمتاع وتلذذ . ولم يكن القاص الجاهلى يتقيد

بالمنطق أو يحرص على سرد الحقائق خاصة فيما كان يعرضه من قصص تاريخى ، ولكنه كان يترك لخياله أن يشطح كما يشاء ويبتكر ما يشاء ، وأن يحور ويبدل ويغير فى الوقائع ويأتى بما يثير الخيال . وكثيرا ما كان قاص القبيلة يتعمد إغفال ما يسىء إلى قبيلته أو يحرج مركزها فيما يروى ، بل إنه كان يروى دائما كل ما يشيد بها ويشير إلى عظمة رجالها وعظمة فعالها .. وبعض القصص التى وصلت إلينا تنتمى أصولها إلى منابع غير عربية ، فهى إما فارسية أو يونانية أو فرعونية .

علم الأنساب والتوثيق الإعلامى :

ولا يمكن أن نغفل علم الأنساب ونحن بصدد الحديث عن الإعلام قبل الإسلام . ذلك أن هذا العلم يقابل فى علومنا العصرية علم التوثيق الإعلامى الذى يعد من أهم الدعائم التى ترتكز عليها الدراسات الإعلامية فى النظرية والتطبيق على السواء . وإذا كان هذا العلم يعتمد اليوم على أحدث ما وصلت إليه التكنولوجيا من وسائل الحفظ والتوثيق كالميكروفيلم والكمبيوتر ، فإن علم الأنساب فى الإعلام قبل الإسلام يشير إلى مدى ما تمتعت به العقلية العربية من مقدرة على التنظيم والترتيب والتبويب ، ومن قدرة عظيمة على التذكر والحفظ واستخدام الواعية الحادة فى أداء الأغراض الإعلامية المرتبطة بالأنساب .

ومن هذا يتبين لنا مدى اهتمام العرب قديما بمعرفة أنسابهم ، فعلى نسب المرء فى الجاهلية كانت تقوم حقوق الأنساب ـ لأن هذا النسب هو الذى يحافظ على حقوقه ويردع الظالم عنه ويأخذ حق المظلوم منه . ولهذا اشتدت الروابط بين أفراد القبائل وأصبحوا كتلة واحدة متآلفة متحدة .

وقد خصص ابن النديم فى كتابه الفهرست فصلا عن « أخبار الإخباريين والنسابين وأصحاب الأحداث » حدد فيه أسماء بعض الذين عرفوا بحفظ الأنساب واشتهر عنهم ذلك ـ خاصة الذين دونوا ما حفظوه .

ونجد فى كتب الأدب والتواريخ قصصا عن بعض النسابين فى الجاهلية وفى الإسلام ، تثير الدهشة من قدرة وقوة الذاكرة عندهم فى حفظ الأنساب ، وقد عرف أحدهم « بالنسّابة » أو « النسّاب فلان » وقد عرف العرب قدرهم وقدروا مكانتهم لأنهم المرجع فى الأحساب والأنساب ، وإليهم الرجوع عند حصول اختلاف فى الأمور المتعلقة بها .

ويذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه أمر بتسجيل الأنساب وتبويبها وتثبيتها فى ديوان ، وذلك عند فرضه العطاء .

« فبدأ بالترتيب فى أصل النسب ثم ما تفرع عنه ، فالعرب عدنان وقحطان ، فقدم عدنان على قحطان لأن النبوة فيهم . وعدنان تجمع ربيعة ومضر ، فقدم مضر على ربيعة لأن النبوة فيهم . ومضر تجمع قريشا وغير قريش ، فقدم قريشا لأن النبوة فيهم . وقريش تجمع بنى هاشم وغيرهم ، فقدم بنى هاشم لأن النبوة فيهم . فيكون بنو هاشم قطب الترتيب ، ثم بمن يليهم من أقرب الأنساب إليهم حتى استوعب قريشا ، ثم بمن يليهم من النسب حتى استوعب جميع عدنان »(١) .

وذكر أن الخليفة عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال « أيما حى من العرب كانوا فى حى من العرب أسلموا معهم فهم معهم . إلا أن يعترضوا فعليهم البينة كالذى فعله مع بجيلة رهط جرير بن عبد الله بن جابر ، وكانوا قد تفرقوا واغتربوا بسبب حروب وقعت بينهم والتحقوا بقبائل أخرى . وروى أن عوف بن لؤى بن غالب ألحق نسبه بغطفان والتحق نسب بنيه « بنى مرة » بغطفان . ويقال إن الخليفة قال « لو كنت مستلحقا حيا من العرب لاستلحقت بنى مرة ، لما كنا نعرف فيهم من الشرف البين مع ما كنا نعرف من موقع عوف بن لؤى بتلك البلاد . ثم قال لبعض أشرافهم إن شئتم أن ترجعوا لنسبكم من قريش فافعلوا . ولكنهم كرهوا أن يتركوا نسبهم فى قومهم ولهم فيهم من الشرف والفضل ما ليس لغيرهم »(٢) .

وقد ضاعت أصول الجرائد التى دونت عليها الأنساب فى ذلك الديوان ولم يبق منها شىء . ويظهر أن أهل الأخبار لم ينقلوا صورها وإنما أخذوا الأسس التى قام عليها التسجيل على نحو ما ذكر جواد على(٣) .. وبالجملة فإن إشارتهم — كما يقول — إلى تلك الأسس والقواعد التى سار عليها الخليفة فى اتخاذ القربى بالرسول ﷺ ، والوضع القائم للقبائل فائدة كبيرة لدراسة أسس تثبيت الأنساب عند العرب فى صدر الإسلام .

وفى القرآن الكريم آيات تشير إلى اهتمام العرب بأحسابهم وأنسابهم ، وإن كان لم يتعرض لاهتماماتهم بالتفرقة والتقسيم وإنما أكد على أن العرب جميعا سواسية ينتسبون إلى إبراهيم عليه السلام . يقول سبحانه وتعالى فى سورة الحج ﴿ وجاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين ﴾ الحج ٧٨

---

(١) البلاذرى ، فتوح البلدان ، الجزء الثالث ، ص ٥٤٩ — شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، الجزء الثالث ، ص ١١٣

(٢) شرح المفضليات ، ص ١٠١ — ١١٦

(٣) جواد على المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ، ج ١ ، ص ٤٧١

وروى عن النبى ﷺ أنه قال (كل العرب من ولد إسماعيل بن إبراهيم عليهما السلام) .

وقد رتب علماء الأنساب قبائل العرب على مراتب هى : شعب ــ قبيلة ــ عمارة ــ بطن ــ فخذ ــ فصيلة .

فالشعب :النسب الأبعد مثل عدنان وقحطان .

والقبيلة :مثل ربيعة ومضر .

والعمارة :مثل قريش وكنانة .

والبطن :مثل بنى عبد مناف وبنى مخزوم .

والفصيلة :مثل بنى طالب وبنى العباس(١) .

وقد أضاف ابن الكلبى مرتبة أخرى هى العشيرة ، (هى رهط الرجل أى جماعته(٢) .

أما النويرى فقد بنى طبقات القبائل على عشر طبقات هى : الجزم ــ الجماهير ــ الشعوب ــ القبائل ــ العمائر ــ البطون ــ الأفخاذ ــ العشائر ــ الفصائل ــ الأرهاط(٣) .

ويذهب المستشرق روبرتسون سميث إلى أن الحى والبطن هما أساس أقدم أشكال المجتمعات السياسية عند الساميين ــ ويطلق على **الحى** لفظة « قوم » و « أهل » وينظر أبناء الحى الواحد بعضهم إلى بعض نظرة قرابة ، فكأنهم من نسل واحد يربط بينهم دم واحد . وقد استدل روبرتسون سمث من معنى « الحى » على وجود معنى الحياة فى الكلمة أصلا ، كما هو الحال فى اللغات السامية ــ ولهذا يرى أنها تمثل رابطة قرابة وصلة رحم عند سائر العرب الساميين ، ويكون أعضاء الحى الأحرار صرحاء ، أما الذين ينتمون إليه بالولاء فهم الموالى يستجيرون به أو بقبائله أو أفراده فيلقون حماية من يستجيرون بهم ويكون الجار فى رعاية مجيره .

والبطن فى نظر روبرتسون سميث هو أقدم أوضاع المجتمع السامى القديم ، ويقوم على أساس الاعتقاد بوجود القرابة والروابط الدموية . وهو يرى أن مفهومه عند قدماء الساميين كان يختلف اختلافا بينا عنه عند العرب المتأخرين وغيرهم .

وقد فهم من اللفظة معنى المجموع الأكبر عند العرب أى معنى « شعب » أو « جزم » أو « قبيلة » ، ورأى أن هذا المعنى هو المعنى القديم للكلمة عند العرب .

---

(١) بلوغ الأرب ، ج ٣ ، ص ١٨٧ ــ اللسان ، ج ١٤ ، ص ٥٧

(٢) العقد الفريد ، ج ٣ ، ص ٢٨٣ (٣) نهاية الأرب ، ج ٢ ، ص ١٦٢

كما يذهب « جولد تسهير » المستشرق المعروف إلى أنه لكي نفهم الأنساب عند العرب فلا بد لنا من معرفة الأحلاف والتحالف فإنها أساس تكوين أنساب هذه القبائل ، فإن هذه الأحلاف التى تجمع شمل عدد من البطون والعشائر والقبائل هى التى تكوّن الأنساب . كما أن تفكك الأحلاف وانحلالها يسبب تفكك الأنساب وتكوين أنساب جديدة . كما يرى أن الدوافع التى تكون هذه الأحلاف لم تكن ناشئة عن حس داخلى بوجود قرابة وصلة رحم بين المتحالفين ، وشعور بوعى قومى .. بل كانت ناشئة عن المصالح الخاصة التى تهم العشيرة ، كالحماية والأخذ بالثأر وتأمين المعيشة .

فقد انضمت كعب مثلا إلى بنى مازن والأخيرة أقوى من الأولى ، وانضمت خزاعة إلى بنى مدلج ، كما تحالفت بنو عامر مع إياد والأمثلة على ذلك كثيرة .

وقد وضع ابن دريد الأزدى مؤلفا فى اشتقاق الأسماء عند العرب له صلة بموضوعنا ، حيث تحدث فيه عن الدلالة الإعلامية للأسماء عنوانه « كتاب الاشتقاق » وقد رد فيه على المزاعم القائلة بأن العرب تطلق الأسماء بما لا أصل له فى لغتهم . فذكر اشتقاق تلك الأسماء ، ثم قال فى مقدمة المؤلف :

« كان الأميون من العرب لهم مذاهب فى أسماء أبنائهم وعبيدهم وأتلادهم ، فاستشنع قوم إما جهلا وإما تجاهلا تسميتهم كلبا وكليبا وأكلب وخنزيرا وقردا .. وما أشبه ذلك ، فطعنوا من حيث لا يجب الطعن ، وعابوا من حيث لا يستنبط عيب ، وكان الذى حدانا على إنشاء هذا الكتاب أن قوما ممن يطعن على اللسان العربى وينسب إلى أهله التسمية بما لا أصل له فى لغتهم ، وإلى ادعاء ما لم يقع عليه اصطلاح من أوليتهم وعددوا أسماء جهلوا اشتقاقها ولم ينفذ علمهم فى الفحص عنها » إلى أن قال « واعلم أن للعرب مذاهب فى تسمية أبنائها ، فمنها ما سموه تفاؤلا على أعدائهم مثل غالب وغلاب وظالم وعارم ومنازع ومقاتل ومعارك وثابت ونحو ذلك . وسموا فى مثل هذا الباب مسهرا ومؤرقا ومصبحا ومنبها وطارقا . ومنها ما تفاءلوا به للأبناء نحو نايل ووائل وناج ومدرك ودارك وسالم وسليم ومالك وعامر وسعد وسعيد وما أشبه ذلك . ومنها ما سمى بالسباع ترهيبا لأعدائهم نحو أسد وليث وأسامة وفراس وذئب وسيد وعلى وضرغام وما أشبه ذلك . ومنها ما يسمى بما غلظ وخشن من الشجر تفاؤلا أيضا نحو طلحة وطليحة وسمرة وسلمة وقتاوة وهراسة . وكل ذلك شجر له شوك وعصاة . ومنها ما سمى بما غلظ من الأرض وخشن لمسه ومواطئه مثل حجر وصخر وحجير وفهر وجندل وجرول وحزن وحزم . ومنها أن الرجل كان يخرج من منزله

وامرأته تمخض فيسمى ابنه بأول ما يلقاه من ذلك ، نحو ثعلب وثعلبة وحنث وضبّة وخزرز وطبيعة وكلب وكليب وحمار وقرد وخنزير وجحش . وكذلك يسمى بأول ما يسنح أو يبرح له من الطير نحو غراب وصرد وحمام .

* * *

نخلص مما تقدم إلى أن علم الأنساب عند العرب كان المرجع والمصدر للإعلام فى الجاهلية ، ذلك أنه يمثل ما يمثله اليوم أجهزة التوثيق الإعلامى على اختلاف أنواعها . فالشاعر الجاهلى أو الخطيب مثلا عندما كان يريد أن يتصدى لمدح أو هجاء أو فخر ، كان لا بد له من معرفة الأنساب . والقصاص عندما يروى أيام العرب وبطولاتهم والأحداث الجسام التى قاموا بها ، كان لا بد له من معرفة الأنساب وهكذا .. فإنه يتضح لنا أن الأنساب كانت بمثابة القاسم المشترك بين القائمين بالاتصال فى الجاهلية ، شأنهم فى ذلك شأن القائمين بالاتصال فى عصرنا ، والذين يستعينون بالكمبيوتر والميكرو فيلم وغيرها من وسائل تخزين واسترجاع المعلومات والإفادة منها فى عملهم الإعلامى .

الفصل الثالث

أيكولوجية الاتصال فى المجتمع العربى القديم

إن دراسة أيكولوجية الاتصال تعتبر من المداخل الضرورية لدراسة الإعلام الإسلامى ، تأسيسا على أنها تعنى بدراسة البيئة **الجغرافية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية** .. لذلك فإننا سنحاول فى هذا الفصل أن نتعرف على المجتمع العربى قبيل ظهور الإسلام من هذه النواحى جميعا ، لما يوفره هذا التعرف عند دراسة الإعلام الإسلامى من وضوح فى رؤيتنا للبيئة التى مهد نظامها الاتصالى للإعلام الإسلامى .

البيئة الجغرافية :

تعتبر شبه جزيرة العرب أكبر شبه جزيرة فى العالم ، ويطلق عليها اسم جزيرة العرب تجاوزا[(١)] . وهى تحد بالبحر الأحمر غربا .. والخليج العربى شرقا .. وخليج العقبة شمالا حتى مصب شط العرب .. وتحد جنوبا بالمحيط الهندى . وليس بها أنهار ، وليست لأمطارها فصول معروفة ، وسائرها جبال ونجود وأودية غير ذات زرع ، وطبيعتها جرداء لا تيسر الاستقرار وإن كانت محصنة بالبحار والصحارى من جميع جهاتها .. الأمر الذى جعلها ملاذا للفارين بدينهم من الاضطهاد والظلم ، فاتخذوا منها مستقرا ومقاما ، والذى جعل المستعمرين لا يغامرون باستعمارها . ويذكر التاريخ أن أبرهة الأشرم سأل نفيل بن حبيب عن مكة وأهلها وطبيعتها وظروف الحياة فيها ، فقال له نفيل « أهلها كرام عظام لهم إباء وشمم ، لا يصبرون على ظلم ولا ينامون على ضيم . أما طبيعتها فقاسية عاتية إذا غضبت دمرت وإذا رضيت أسعدت ، ولكنها إلى الغضب أميل منها إلى الرضا » .

ويذكر أيضا أن سيف بن ذى يزن ذهب إلى قيصر يطلب مساعدته فى طرد الأحباش من اليمن ، على أن تكون زيادة فى ملكه . فرفض القيصر وقال « إن بلادكم بعيدة

---

(١) الهمدانى : صفة جزيرة العرب ، ص ٤٧ ــ الألوسى : بلوغ الأرب ، ج ١ ص ١٨٤ ــ معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ١٠٠

ولا رغبة لى فيها » . فاتجه سيف إلى كسرى الذى رفض كما رفض القيصر من قبل وقال له « بعدت بلادك أيها الأمير مع قلة خيراتها ، وليس من الحكمة أو سداد الرأى أن أورط جيشا من فارس بأرض العرب » . فلما ألح عليه سيف فكر فى الأمر ، ثم أرسل معه ألف سجين كان يريد التخلص منهم ، وقال لوزيره « أرسل معه الألف سجين ، فإن هلكوا كان ذلك الذى أردت لهم ، وإن ظفروا فقد جاءونى بملك جديد يضاف إلى ملكى » .

ولقد كان للبيئة القاسية والطبيعة الضارية فى الجزيرة العربية ، أكبر الأثر فى تكوين الإنسان العربى ، فأصبح يتميز بصفات لا يتميز بها غيره ، وهى الصبر والجلد وقوة الإرادة وحدة الذكاء والصدق فى القول والعمل .. والأنفة والعزة والشجاعة والإقدام والكرم وصفاء النفس ، وقد تجلت هذه الصفات فى أروع صورها بعد البعث . والله أعلم حيث يجعل رسالته وحيث يختار الرسل . وقد كان معظم الأنبياء من العرب أصحاب هذه الصفات ، فإدريس عليه السلام الذى رفعه الله تعالى مكانا عليا تقول الأخبار إنه كان فى البطن الثالث لآدم الخليفة ، وأنه كان عربيا وفى أرض العرب . وقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم ﴿ واذكر فى الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا ۝ ورفعناه مكانا عليا ﴾ مريم ٥٦

ويذكر أبو الفداء فى كتابه قصص الأنبياء أن إدريس فى سلسلة نسب النبى ﷺ ، ومن الثابت أن نوحا عليه السلام من البلاد العربية . وقد ذكرت الروايات أن سفينته مرت فى مقابل الكعبة أربعين مرة.ولقد أكد ابن كثير أنه دفن فى البلاد العربية فقال « وأما قبره عليه السلام فروى ابن جرير والأزرق عن عبد الرحمن بن سلط مرسالا أن قبر نوح بالمسجد الحرام » .

ويذكر ابن كثير أيضا أن هودا عليه السلام هو أول من تكلم بالعربية ويقول « وزعم وهب بن منبه أن أبا هود أول من تكلم بها . وقال غيره أول من تكلم بها نوح عليه السلام . ويقال للعرب الذين كانوا قبل إسماعيل عليه السلام العرب العاربة ، وهم قبائل كثيرة منهم عاد وثمود وجرهم . وأما ولد إسماعيل فيسمون العرب المستعربة » .

وصالح عليه السلام نبى ثمود كان يدعو قومه ، وهم من العرب العاربة الذين يسكنون الحجر الذى بين الحجاز وتبوك إلى التوحيد ، ولا تزال مدائنه باقية فى الجزيرة العربية .

أما إبراهيم عليه السلام فهو أبو الأنبياء وأبو إسماعيل عليه السلام ، وقد جاء إلى مكة حيث ترك زوجته هاجر وابنها بجوار أطلال الكعبة ، ثم اتجه إلى طريق العودة وهو يتطلع

إلى السماء ويقول ﴿ ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون ﴾ إبراهيم ٣٧

ولقد كانت مكة بموقعها الجغرافى تمثل العاصمة الدينية والتجارية للجزيرة العربية ، ذلك لوجود الكعبة المشرفة فى وسط سهولها ، ولأنها كانت مركزا لتجمع القوافل التى ترد من الجنوب متجهة إلى بلاد الشام أو العكس .

ولم يلبث رجال مكة أن اقتبسوا من رجال القوافل سر السفر وفائدته ، فخرجوا هم أيضا فى قوافل تتولى نقل التجارة لأهل مكة وللتجار الآخرين من اليمن والشام . فلما كان القرن السادس للميلاد احتكر تجار مكة التجارة فى غرب الجزيرة ، وسيطروا على حركة النقل فى الطرق المهمة التى تربط اليمن ببلاد الشام والعراق(١) .

وكانت مكة قبل أن يصلها إبراهيم عليه السلام بولده وزوجه هاجر ، أرضا غير ذات زرع كما وصفها القرآن الكريم ، بلقعا لا ماء فيها ولا حياة . ثم تفجرت عين زمزم فروت الرمال وبعثت فيها الحياة فاخضرت وازدهرت . ولا تزال عين زمزم تتفجر لتروى الملايين من المسلمين الذين يفدون للحج والعمرة ..

وبعد أن تفجرت زمزم وفد على المكان قوم من قبيلة جرهم واستأذنوا هاجر فى النزول إلى جوارها وابنها ، والانتفاع بالماء الذى جعل الوادى المقفر المجلب الموحش ينبض بالحياة ويصبح جنة من جنان الأرض ، فأذنت لهم ومن بعدهم جاء العماليق واستقروا أيضا .

ثم عاد إبراهيم عليه السلام إلى مكة ، وأشار إلى ربوة حمراء عالية ذات أطلال وقال لولده : إن الله أمرنى أن أبنى هنا بيتا.بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئا وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود ﴾ الحج ٢٦

وأخذ إبراهيم وولده عليهما السلام فى تطهير المكان.بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ٥ ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم ٥ ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ﴾ البقرة ١٢٧ — ١٢٩

---

(١) At Mecca, p. 3.

والقرآن يسمى مكة : بكه ، وأم القرى ، والبلد الأمين . ويذكر أهل الأخبار أنها عرفت بأسماء أخرى هي صلاح ، وأم رحم ، والباسة ، والغاسة ، والحاطمة ، وكوثى .

ويقول ابن إسحق : كانت مكة لا تقر فيها ظلما ولا بغيا ، ولا يبغى فيها أحد على أحد إلا أخرجته ، ولا يريدها مسلك يستحل حرمتها إلا هلك مكانه . ويقال إنها ما سميت بكة إلا لأنها كانت تبك أعناق الجبابرة ، أى تكسر أعناقهم إذا أحدثوا فيها شيئا .

وقال الله تعالى فى كتابه الكريم ﴿ ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب إليم ﴾ الحج ٢٥

البيئة الاجتماعية :

للبيئة الاجتماعية تأثير كبير فى تكوين الإنسان وتلوين طباعه وصفاته .. فهى تطبعه بطابعها وتميزه بسماتها ، ولا يمكن أن يقول قائل بفصل الهيئة الاجتماعية عن البيئة الجغرافية بحال من الأحوال لما بينهما من ارتباط وثيق وعلاقات تأثير وتأثر .. يتضح ذلك فى شبه الجزيرة العربية وسكانها ــ مدرا أو وبرا ــ ذلك أن البيئة الجغرافية القاسية التى جعلت معظمهم يعيشون فى قبائل تتنقل تبعا للمراعى وانتجاعا للمياه ، كان لها تأثيرها الكبيز أيضا فى نظامهم الاجتماعى القائم على أساس النظام القبلى الذى يجعل لكل قبيلة أرضا تعيش عليها وتعتبرها « منزلا لها » وساحة تقيم عليها مساكنها . أو بعبارة أخرى تضرب عليها مضاربها .

وتحدد هذه الساحات بين القبائل عرفيا ، ولا تجرؤ إحداها على تعدى الحدود وإلا كانت الحروب وقامت المنازعات :

ويعتبر النسب أساسا للعصبية القبلية ، ولذلك تطور علم الأنساب كما بينا فى غير هذا الموضع وكان له عندهم مكانة عظيمة . ويرتبط بالنسب فى النظام القبلى ما يسمى بالاستلحاق ، أى أن يستلحق إنسانا آخر فيجعله فى عصبيته . ومن هذا ما كان فى الجاهلية من استلحاق أبناء الإماء البغايا بآبائهم. ويروى أهل الأخبار الكثير من قصص سادة قريش الذين تنكروا لأبنائهم من أولئك الإماء ، ثم عادوا فألحقوهم بهم .. من ذلك مثلا قصة أبى سفيان والجارية سريفة التى أنجب منها غلاما ثم أنكره ، فلجأت إلى كاهن هبل وقدمت له الهدايا فأفتى بأن الغلام صريح صريح ــ أى أنه ولد أبى سفيان ومن صلبه ــ وقد اضطر أبو سفيان بعد ذلك إلى إلحاق الولد به .

ويروى أن الرسول ﷺ قضى بأن الأمة فراش كالحرة ، وأن يلحق الولد بالسيد فى حياته لكى لا يقع خلاف بين ورثته إذا تم الاستلحاق بعد موت السيد — وكان ذلك فى بداية الإسلام . وقضى بذلك كعلاج للحالات التى نتجت عن وجود صاحبات الرايات الحمر وتردد السادة من قريش عليهن ، ثم تنكرهم لهن ولأولادهن .

وقد سمى المستلحق بالدعى أى المنسوب إلى غير أبيه فى البداية ، ثم عدل هذا وجعل الولد للفراش ، وقد ورث الدعى أو المستلحق شأنه شأن الأبناء الشرعيين فى الجاهلية .

وجاء فى لسان العرب أن الدعى « منوط مذبذب » لأنه لا يدرى نسبه تماما ولا إلى من يدعى .

وكان للجوار مكانة كبيرة فى النظام القبلى ، وكثيرا ما كان يرتبط بالنسب وبالعصبية . ولم يكن الجوار قاصرا على التجاور فى السكن والمرعى بل تعداه إلى ما هو أكثر من ذلك . فكان الرجل إذا استجار بآخر أصبح على هذا الآخر أن يعتبره جزءا منه وجارا له ، ولو لم يكن مقيما بجواره . وقد جاء فى لسان العرب « إن الذى يستجير بك جار .. والجار الذى أجرته من أن يظلمه ظالم . وجارك المستجير بك . والمجير هو الذى يمنعك ويجيرك . وأجاره أنقذه من شىء يقع عليه » .

وقد دعم القرآن الكريم هذه الصفات الطيبة فى قوله تعالى ﴿ .. والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب الجنب وابن السبيل ﴾ النساء ٢٦ . كما أوصى الرسول بالجار فى أكثر من موضع ، حتى ظن القوم أنه ﷺ سوف يورّثه .

وقد عرفت الجاهلية نوعين من الجوار : الأول جوار الجماعة ، كجوار البيت أو الفخذ أو البطن أو الظهر أو العشيرة أو القبيلة . والثانى هو جوار الأفراد ، ولكل من هذه النوعين حرمته .

كما عرف النظام القبلى فى الجاهلية ما يسمى بالمؤاخاة ، وهى تدعو إلى المساندة والمعاونة والمؤازرة والتآلف . وقد تؤدى إلى المشاركة فى الرزق والسكن ، كما قد تؤدى إلى الموارثة . وأعظم مثل عليها ما حدث فى يثرب عندما وصلها رسول الله ﷺ مهاجرا ، وكان أصحابه قد سبقوه إليها ، فقام بالمؤاخاة بينهم وبين الأنصار فكان الأنصارى يتنازل لأخيه المهاجر عن نصف ماله ونصف بيته ، وقد يطلّق إحدى زوجتيه ليتزوجها المهاجر بعد انقضاء عدتها .

وقد وصلت إلينا من الجاهلية كلمة الموالى أو المولى ، التى تعنى أكثر من معنى ، منها : الولى والعصبة والحليف وابن العم والعم والأخ وابن الأخت والجار والشريك والعبد العتيق والعبد الذى يكاتب على نفسه ، وموالى الحلف وهؤلاء كانوا قوما من

اليهود والنصارى والمجوس . ويذكر أهل الأخبار أن ياسر العبسي والد الصحابي عمار وفد إلى مكة وأقام فيها حليفا لأبي حذيفة المخزومي ، وكان ياسر سيدا في قومه باليمن ، وقد زوجه أبو حذيفة من مولاته أي جاريته الحبشية المشتراة سمية ، أول شهيدة في الإسلام ، وأن رباحا والد الصحابي بلال كان مولى أعتقه خلف الجمحي .

وعلى هذا يمكن تقسيم الموالي كما ذكر بعض أهل الأخبار إلى ثلاثة أنواع ، هي مولى اليمين المحالف ، ومولى الدار المجاور ، مولى النسب والقرابة . وقد ضم البيت التالي هذه الأنواع جميعا :

نبئت حيّا على نعمان إفرادهم مولى اليمين ومولى الدار والنسب(١)

ومهما كان نوع المولى فهو في الدرجة الثانية بعد الأحرار ، وقلما زوج الأحرار بناتهم من الموالي . وقد ضرب بهم المثل في القلة والضعة والمهانة .

واتسم النظام الاجتماعي في الجاهلية بوجود الأحلاف المعروفة لغويا بأنها « العهد بين القوم ، وأصلها اليمين الذي يأخذ بعضهم من بعض بها العهد » .

وجاء في لسان العرب ما يشير إلى معنى التحالف وارتباطه بشعائر الجاهليين الدينية ، ذلك إذا حلفوا وتحالفوا وتعاقدوا وتبايعوا .

وقد يكون الحلف بين الأفراد أو بين الجماعات وبعضها البعض . وقال البكري في « معجم ما استعجم » « فلما رأت القبائل ما وقع بينها من الاختلاف والفرقة ، وتنافس الناس في الماء والكلأ ، والتماسهم المعاش في المتسع ، وغلبة بعضهم بعضا على البلاد والمراعي ، واستضعاف القوى للضعيف ، انضم الذليل منهم إلى العزيز ، وحالف القليل منهم الكثير ، وتباين القوم في ديارهم ومحالهم ، وانتشر كل قوم فيما يليهم » .

ومن الأحلاف التي اشتهرت في الجاهلية حلفي « تنوخ » وحلف « فرسان » وحلف « البراجم » ، وقيل إن السبب في تكوين الحلف الأخير أن حارثة بن عمرو بن حنظلة قال لقبائل ظليم وقيس وكلفة وغالب « أيتها القبائل التي قد ذهب عددها وضعف أمرها ، تعالوا فلنجتمع ولنكن كبراجم يدي هذه » . فقبلوا وتحالفوا وسمى حلفهم بحلف البراجم(٢) .

---

(١) العمدة لابن رشيق ، ج ٢ ، ص ١٩٨.

(٢) البراجم : هي مناحل الأصابع التي بين الأشاجع والرواجب ، وهي رءوس السلاميات من ظهر الكف (مختار الصحاح — ٤٦) .

ويعتبر حلف المطيبين من أشهر الأحلاف فى الجاهلية ، وكان الخلاف قد وقع بين أبناء قصى بعد أن مات وترك الحجابة واللواء والسقاية والرفادة فى أيدى بنى عبد الدار دون ابنائه الآخرين ، فاجتمع بنو عبد مناف وهاشم والمطلب ونوفل وتعاهدوا عند الكعبة وعقدوا حلفا مؤكدا على ألا يتخاذلوا ولا يسلم بعضهم بعضا ، فسُمّوا الأحلاف . وقد أخرج بنو عبد مناف حفنة مملوءة طيبا فسموا بالمطيبين[1] .

كما يعتبر حلف الفضول من أشهرها أيضا ، ويذكر ابن هشام أن قبائل من قريش تداعت إلى حلف اجتمعوا له فى بيت ابن جدعان ، فتعاقدوا وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوما من أهلها أو غيرهم ممن دخلها من سائر الناس ، إلا قاموا معه وكانوا على من ظلمه حتى ترد عليه مظلمته . فسمت قريش ذلك الحلف حلف الفضول — وقد شهد رسول الله ﷺ هذا الحلف وقال (لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ، ولو أدعى به فى الإسلام لأجبت) .

وبعض هذه الأحلاف كان يفسد فيضطر أصحابه إلى التخالع ، وكان النظام يقضى آنذاك بأن يعلنوا عن ذلك ويكتبوا بتخالعهم كتابا يتفق فيه الأطراف جميعها . وربما فعل الفرد من القبيلة ما يجعلها تسخط عليه وتقرر نبذه ثم تخلعه ، فيسمى بالخليع أو الرجل اللعين أو الطريد . وكانت مواسم الحج والأعياد والأسواق الفرص الإعلامية التى تعلن فيها كل قبيلة عن طريق المنادين أسماء حلفائها . ويذكر الثعالبى أن أهل مكة كانوا يكلفون مناديا يطوف بالأحياء معلنا بأعلى صوته عن خلع الخليع . وقد يسجلون ذلك فى كتاب يعلق فى مكان عام ليقف عليه الناس .

ومن أشهر الخلعاء فى الجاهلية الشاعر عروة بن الورد الذى سمى بعروة الصعاليك ، ومنهم الشنفرى وتأبط شرا والسليك بن سلكة وحاجز بن عوف بن الحرث وقيس بن الحدادية .

وإذا كانت العصبية هى صلب النظام الاجتماعى فى الجاهلية ، فقد كانت الحمية من أهم مظاهرها ، ومن أخطر مظاهرها أيضا إذ أنها كانت لونا من التهور والمبالغة فى الغضب مما يؤدى إلى كثير من الكوارث واندلاع الحروب وقد نهى الإسلام عنها ونزل الوحى يندد بها ، فقال سبحانه وتعالى ﴿ إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى ﴾ الفتح ٢٦ .

---

(١) ابن هشام : الجزء الأول ، ص ١٣٦

كذلك فإن الأخذ بالثأر من مظاهر تلك العصبية ، وقد بالغوا فيه مبالغة جعلت البيئة الاجتماعية تضطرب اضطرابا كبيرا وتكثر فيها المنازعات وسفك الدماء . وقد أبطل الإسلام هذه العادة الذميمة كما أبطل عادات أخرى مماثلة تدخل فى باب الغدر والبغى . ولعل أفضل ما أبطله الإسلام من عاداتهم الذميمة هو وأد البنات ، حيث كان الرجل يأتى بامرأته على حافة حفرة قد أعدت لتكون لحدا . فإذا وضعت أنثى ألقى بالمولودة إليها وأهال فوقها التراب ، ثم وقف على اللحد وهو يصيح كالمنتصر فى معركة حربية :

إنى وإن سيق إلىّ المهر
ألف وعبدان وذود شهر
أحب أصهارى إلىّ القبر

ولم يكن الوأد بدافع الخوف من العار فقط ، بل كانت هناك أسباب أخرى كالفقر والفاقة وشدة الحاجة . فالبيئة كانت شحيحة ، وتحصيل الرزق كان يحتاج إلى جهد الرجال . لهذا كان الرجل إذا بشر بالأنثى يظل وجهه مسودا وهو كظيم ، كما قال القرآن الكريم . ومن أسباب الوأد كما يذكرها بعض العلماء تخوف العرب من القهر عليهم ، ومن طمع غير الأكفاء فى بناتهم .

قال قتادة « كان مضر وخزاعة يدفنون البنات أحياء ، وأشدهم فى هذا تميم زعموا خوف القهر عليهم وطمع غير الأكفاء فيهن » .

وكان للعرض فى النظام الجاهلى مكانة كبيرة ، ولذلك قيل إن العرض هو موضع المدح والذم من الإنسان سواء أكان فى نفسه أو سلفه أو من يلزمه أمره . وقيل أيضا هو جانبه الذى يصونه من نفسه وحسبه ، ويدافع عنه أن ينتقص أو يثلب .

وقد أتاحت الصحراء للعرب باتساعها وترامى أطرافها وصفاء سمائها وانطلاق هوائها ، حب الحرية والتمسك بها والتضحية فى سبيلها . إلا أن هذه الحرية شابتها فى الجاهلية الروح القبلية العنيفة والتزمّت الفردى المتطرف .

ويمكن القول إجمالا أن التركيبة الاجتماعية فى الجاهلية كانت تضم الأحرار والعبيد الذين يستوى فيهم أهل المدر والحضر . وقد جاء فى لسان العرب أن الحر نقيض العبد والحرة نقيض الأمة . وهذا النظام حدّ من الحرية وجعلها مشوبة بكثير من نواحى النقص والاختلال ، وقد أدى إلى صور عديدة من الظلم الاجتماعى .. وليس أدل على ذلك من أنهم كانوا إذا سرق الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أخذوه وعاقبوه .

ويمكن تشبيه التركيبة الاجتماعية بهرم يجلس على قمته السادة والأشراف والكهنة وسدنة الآلهة والمحاربون والفرسان ، فالتجار والصناع ، إلى أن تصل إلى سفح الهرم حيث نجد الطبقات الدنيا والأذناب وأبناء الحبش والمستضعفين فى الأرض .

وكان العرف هو القانون غير المكتوب فى النظام الاجتماعى الجاهلى . وهو الذى يحكم القبيلة داخليا ، ويقضى بمعاقبة مثيرى الشغب وخلعهم ، ويكفل السلام والحياة الآمنة المستقرة لأفراد القبيلة فى الداخل ، وينظم العلاقات بين القبائل وبعضها ، ويقوم بتنفيذ كل ما تعارفوا عليه من مؤاخاة وأحلاف وجوار وغير ذلك . وكان لكل قبيلة مجلس عرفى ، وللقبائل مجتمعة فى كل منطقة مجلس عرفى أعلى .

البيئة الاقتصادية :

ليس من شك أن البيئة الاقتصادية فى الجاهلية قد تأثرت تأثرا كبيرا بلون الحياة وظروفها الطبيعية فى تلك البيئة الصحراوية الشحيحة القليلة الماء ، الذى قد يندر وقد لا يكفى لإرواء الإنسان وماشيته . فضلا عن ضيق المساحة المنزرعة من الأرض .. هذا الضيق الذى أثر بدوره فى تشكيل المجتمع العربى فلم يسمح بظهور المجتمعات الكثيفة الكبيرة ذات الحكومات ، كما هو الحال فى البلاد الزراعية ، بل أدى إلى أن يكون للعرب قبائل متناثرة دائمة القتال والصراع من أجل الماء والكلأ .. كما أدى إلى استقلال كل قبيلة بلهجتها الخاصة بها بحيث قد يتعذر الاتصال والتفاهم فى بعض الأحيان . كذلك فقد أدى ضيق المساحات المنزرعة إلى أن تحتل التجارة مركز الصدارة فى الناحية الاقتصادية لدى الجاهليين ، فاشتغل الأشراف والسادة بها ، وكانت لديهم نوعان : تجارة البر وتجارة البحر . كما كانت لديهم تجارة داخل الجزيرة ذاتها ، وتجارة للجزيرة مع الممالك والدول الأخرى مثل الفرس والروم والهند وإفريقيا .

وتحتوى اللغة العربية بلهجاتها المتعددة على ألفاظ ومصطلحات كثيرة لها صلة بالتجارة ، والله تعالى فى كتابه الحكيم يذكر التجارة فى أكثر من موضع ، ويحرم الربا فى قوله تعالى ﴿ ويل للمطففين ❁ الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ❁ وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ﴾ المطففين ١ — ٣

وكان البيع والشراء فى الجاهلية الأولى وقبل التعامل بالذهب والفضة ، يتم بالمقايضة والتبادل ، أى أنهم كانوا يبادلون التمر بالحنطة ، أو الجلود بالثياب والبسط وهكذا . وقد وصل إلينا أن العرب فى الجاهلية كان لهم عرف ينظم تنمية الأموال واستثمارها واستغلالها . ومن المعروف أن الربا كان جزءا من نظام التعامل عندهم — وقد حرمه القرآن الكريم بعد الإسلام .

وقد اشتهر أهل مكة بأنهم كانوا من أبرع تجار الجزيرة . وقد نسب الجاحظ ميل قريش إلى التجارة واشتغالهم بها إلى تحمسهم فى دينهم ، فقال :

« وقريش من بين جميع العرب دانوا بالتحمس والتشديد فى الدين ، فتركوا الغزو كراهية للسبى واستحلال الأموال واستحسان الغصوب . فلما تركوا الغزو لم تبق مكسبة أمامهم سوى التجارة ، فضربوا فى البلاد إلى قيصر بالروم ، وإلى النجاشى بالحبشة وإلى المقوقس بمصر ، وصاروا بأجمعهم تجارا خلطاء » .

والحق أن مكة كانت فى الجاهلية عاصمة اقتصادية إلى جوار كونها عاصمة دينية وسياسية وثقافية . وكان لقريش رحلتان فى السنة كما أوضحنا من قبل هما رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى الشام . وكانت الرحلة تبدأ من دار الندوة ، وتتألف القافلة الواحدة من ألف بعير أو أكثر ، وتشترك فيها كل الأسر القريشية .

ويذكر ابن هشام فى السيرة أن عير قريش بقيادة أبى سفيان قد تاجرت ببلاد الشام وهمت بالعودة إلى مكة ، فلما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلا من الشام بألف بعير قد حملت بأموال وعروض عظيمة ، ندب المسلمين إليه وقال (هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها) . فانتدب الناس وكان أبو سفيان يتحسس الأخبار ، فبلغه خبر استنفار الرسول أصحابه فأرسل ضمضم بن عمرو الغفارى إلى مكة وأمره أن يأتى قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها فى أصحابه . فخرج ضمضم إليها ، فلما بلغها وقف على بعيره ببطن الوادى وقد جدع البعير وحول رحله وشق قميصه ، ثم صاح « يا معشر قريش .. اللطيمة اللطيمة . أموالكم مع أبى سفيان قد عرض لها محمد فى أصحابه لا أرى أنكم تدركوها .. الغوث الغوث » . فتجهز الناس سراعا وساروا حتى بلغوا بدرا . وكان أبو سفيان قد غير طريقه حين سمع خبر خروج رسول الله بأصحابه ، فساحل بقافلته وترك بدرا يسارا وانطلق حتى بلغ مكة . ثم أرسل إلى قريش يقول « إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم .. فقد نجت فارجعوا » . ولكن أبو الحكم عمرو بن هشام — أبو جهل — وكان قائدا للحملة رفض العودة ، وأقسم ألا يعود إلى مكة إلا إذا ذبح وأطعم وأقام أياما ببدر ، ليعرف العرب أن قريشا لا تزال فى مظهر القوى العزيز المهاب . فخاب فأله ، ووقعت معركة بدر التى نصر الله فيها المسلمين وخذل قريشا . وانتهت المعركة بقتل أبى الحكم وعدد كبير من سادة قريش وفرسانها .

وجاء فى الأخبار أن بعض رجالات قريش كانوا يؤالفون سادات القبائل على طرق تجارتهم ليأمنوا على أموالهم وكان أبناء عبد مناف فى مقدمتهم ، ولذلك عرفوا

« بحجاب الإيلاف » فكان هاشم مختصا بمؤالفة القبائل على الطريق إلى الروم ، وعبد شمس بالقبائل الحبشية ، والمطلب باليمن ، ونوفل بفارس . وذلك ليأمنوا على قوافلهم .

والقافلة هى عماد النظام التجارى الجاهلى ، وكانت الإبل بدورها عماد القافلة ، وكان لكل قافلة حراسها الأشداء وأدلاؤها الخبراء والحداة الذين يحدون لها . وعادة كان الحادى من الشعراء أو رواة الشعر . وكانت مهمته الإمتاع والترفيه عن قافلته أثناء رحلتها الطويلة المضنية فى جوف الصحراء ، وأيضا تسقّط الأخبار والحكايات ونقلها إلى قريش عند العودة .

أما الأسواق فقد كانت ذات شأن كبير فى التجارة ، فعندما تحط القوافل وتنزل بضائعها ، ومنها تباع البضائع وتشترى بالنقد أو يتم تبادلها ، وبعضها كان ثابتا فى المدن والقرى والبعض الآخر كان موسميا كالأسواق الكبيرة التى تحدثنا عنها من قبل كعكاظ ودومة الجندل وهجر وغيرها .

وكان الربا جزءا من النظام التجارى فى الجاهلية ، وقد قسم العلماء الربا إلى نوعين : ربا النسيئة وربا الفضل . أما الأول فهو الذى كانوا يتعاطونه فى الجاهلية . قال رسول الله ﷺ (إنما الربا فى النسيئة هى البيع إلى أجل معلوم) . يريد أن بيع الربونات بالتأخير من غير تقابض هو الربا وإن كان بغير زيادة .. وقد عرف العلماء ربا الفضل بأنه الربا الذى يباع فيه الشىء بضعفه . وكان اليهود ومعظم أهل مكة والطائف ونجران من المشتغلين بالربا . وقد حرم الإسلام الربا ، وقال ﷺ فى خطبته بحجة الوداع (إن كل ربا موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا عباس بن عبد المطلب موضوع كله) .

هذا وقد حفلت البيئة الاقتصادية بأنماط من الثراء الفاحش والفقر المدقع .. بل إن من الفقراء فى الجاهلية من كان يأكل لحاء وأوراق الشجر والأعشاب . وقد ورد فى حديث عتبة بن غزوان « ما لنا طعام إلا الأوراق البشام أو العلهز(١) أو الوزين(٢) » . ومن الأغنياء من كان يسمى « حلس الذهب » كعبد الله بن جدعان . وذلك لأنه كان يشرب الخمر مع أصحابه فى كئوس من ذهب ، ويقولون إن جفنته التى كان يقدم فيها الطعام لضيوفه يغرق فيها الرجل . وبين قمة الثراء فى الجاهلية وحضيض الفقر كانت هناك طبقات بين بين .

---

(١) العلهز : طعام من وبر الإبل والدماء قد خلط وطبخ على النار .

(٢) الوزين : الحنظل يؤكل باللبن .

وإلى جوار البضائع التى كانوا يتاجرون فيها كالحنطة والحبوب والثياب والذهب والفضة وغيرها ، كانت هناك بضائع أخرى هى الإنسان .. العبيد وصاحبات الرايات الحمر . وازدهرت تجارة الرقيق فى مكة فكان هاشم يعود من الشام بأرقاء فارس ، وكان عبد شمس يعود من أرض الحبشة بعبيد حمير ، وكان المطلب يعود من اليمن بأرقاء الحبشة ، وكان نوفل يعود من فارس يحمل أرقاء الروم والغساسنة ..

وقد أقبل أغنياء مكة وسادتها على شراء الأرقاء ليقوموا بخدمة الدور والضيوف ، وإعداد العروض التجارية ، والرعى أيضا . بينما كان أهل الطائف يشترون العبيد ليفلحوا لهم الأرض ويزرعوا بساتين الكروم .

أما عبيد الحبشة والرومان فكانوا يستغلونهم فى الحروب والصراعات الدموية ، والإغارات على القبائل .

وكان الكثيرون من أهل مكة ويثرب يتاجرون فى الرقيق الأبيض ، بل إن منهم من كانت لديه المئات من الإماء البغايا يعملن تحت إشرافه . وكانت الواحدة منهن ترفع على خيمتها راية حمراء تحمل اسم الرجل الذى هى من عبيده . وكلما تجمع لديها قدر من المال كحصيلتها من عملها سلمته إلى سيدها .

البيئة الفكرية :

كان العالم قبل الإسلام يموج بتيارات متلاطمة من الإلحاد والكفر والشر والظلم وسيادة قانون الغاب ، نتيجة لما أصاب الدينّ الحنيف وتعاليم موسى وعيسى عليهما السلام ، وانحراف الناس عن الجادة وعبادة التوحيد .

وكانت مكة غارقة فى وثنيتها رغم وجود عشرات الملل والنحل فيها .. فقد استقر حول الكعبة ثلاثمائة وخمسون صنما يمثل كل منها إلها تعبده طائفة من أهل مكة . ومن أسمائها هبل ومناة واللات والعزى وغيرها من الأسماء المجلوبة إلى الجزيرة العربية . قال تعالى ﴿ إن هى إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ﴾ .

وقد وفدت الوثنية إلى مكة من الرومان ، وكان أول من جلبها عمرو بن لحى جد خزاعة الأعلى . وقد وافقت جرهم على ذلك واتخذت لنفسها أصناما تعبدها هى الأخرى .

وذكر ابن إسحق فى السيرة أن « أول ما كانت عبادة الأحجار فى بنى إسماعيل ، أنه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم إلا حمل معه حجرا من حجارة الحرم تعظيما للحرم ، فحينا وضعوه وطافوا به فكأنهم قد طافوا بالكعبة ، حتى أدى ذلك إلى أنهم كانوا

يعبدون ما استحسنوه من الحجارة . حتى خلفت من بعدهم خلوف ونسوا ما كانوا عليه ، واستبدلوا بدين إبراهيم وإسماعيل غيره فعبدوا الأوثان وصاروا إلى ما كانت عليه الامم من الضالات » .

واعتقد بعض الوثنية من أهل مكة أن لكل صنم شيطانا موكلا بأمر الله ، فمن عبد الصنم حق عبادته قضى الشيطان حوائجه ، وإلا أصابه بنكبة .

ونشأ أبناء قريش فى ظل هذه الوثنية التى تفرق فيها أصحابها شيعا وأحزابا دينية ، فعانوا من التحلل الاجتماعى والاضطراب الفكرى والخلقى . بل لم تعد للأخلاق قيمة فعليه تنبع من وازع دينى ، فانتشرت الجرائم الخلقية وفقد المرء إحساسه بمدلولها ، فأصبح يرتكبها كما لو كانت أمرا متعارفا عليه . ولم يعد للمعيار الخلقى أو المعنوى أى قيمة فى البيئة الفكرية ، وأصبح الناس يوزنون بما يملكون من ذهب وفضة ، ولفحت وجه المجتمع موجة عاتية قضت على كل قيمه الروحية ومثله الخلقية .

واعتقد البعض الآخر من أهل مكة أن الدين الحق هو الذى كان عليه الناس قبل إبراهيم عليه السلام ، فارتدوا إلى عبادة الكواكب والنجوم . فمنهم من عبد الشمس واتخذ لها صنما ، ومنهم من عبد القمر وجعلوا له صنما ، ومنهم من توجه بالعبادة إلى الكواكب السبعة والبروج الاثنى عشر وبنوا لها هياكل كبيرة ومعابد كثيرة مقدسة .

وهناك طائفة من أهل مكة آمنوا بالدهر وقالوا : ﴿ إن هى إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر ﴾ المؤمنون ٣٧

وقد عاشت فى مكة إلى جوار هؤلاء طائفة المجوس عبدة النار ، والنصارى الذين قالوا بوحدة طبيعة المسيح ، والنصارى الذين قالوا بلاهوت المسيح وناسوته . وبالمسيحيين القائلين بأن المسيح هو الله .. كبرت كلمة تخرج من أفواههم . فقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح بن مريم ﴾ المائدة ٧٢

وبالمسيحيين الذين قالوا إن المسيح ابن الله — كبرت كلمة تخرج من أفواههم — فقد قال الله تعالى فى كتابه الكريم ﴿ وقالوا اتخذ الرحمن ولدا ٭ لقد جئتم شيئا إدًا ٭ تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا ٭ أن دعوا للرحمن ولدا ٭ وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا ٭ إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا ﴾ مريم ٨٨

وبالمسيحيين الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة .. كبرت كلمة تخرج من أفواههم ! فقد قال الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إلـه إلا إلـه واحد ٭ وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسنّ الذين كفروا منهم عذاب أليم ٭

أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم ۝ ما المسيح عيسى بن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون ﴾ المائدة ٧٣

أما اليهود فقد كانوا يعيشون حياة لها وجهان : وجه يمارس به شعائر دينه فى تزمت شديد ، وآخر يرتكب به كل المحرمات مع من لا يدينون باليهودية . وكانوا يعتقدون أنهم هم الصفوة التى اختارها الله وفضلها الله على العالمين ، وأن الله لن يحاسبهم على ما يرتكبون من آثام فى حق الأميين ﴿ ليس علينا فى الأميين من سبيل ﴾ . آل عمران ٧٥

وعلى الرغم من هذا التخبط والضلال والتيه بين مختلف الملل والنحل والأديان ، فقد بقيت طائفة على الدين الحق — دين إبراهيم وإسماعيل — وهم الأحناف ، وقد جاء فى القرآن الكريم قوله تعالى ﴿ إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا وما كان من المشركين ۝ شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم ۝ وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ۝ ثم أوصينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين ﴾ النحل ١٢٠

وقد حدثنا أهل العلم عن أربعة من هؤلاء الموحدين كانوا بمكة هم : ورقة بن نوفل ، وزيد بن عمرو بن نفيل ، وخالد بن سنان ، وعثمان بن الحويرث ؛ ولكنهم لم يكونوا يعرفون الطريق إلى عبادة الله ، وقد تفرقت بهم السبل وضل أحدهم فدخل فى النصرانية .

هذه هى الصورة التى كانت عليها البيئة الفكرية فى مكة قبل الإسلام ، وهى صورة تجمع بين المتناقضات فى إطار من التشويش والاضطراب الفكرى والعقائدى ، وتفتقر إلى المعانى الإنسانية والقيم الروحية التى تضىء السبل أمام البشر وتوضح المعالم إلى طريق الله الواحد الأحد .

وعلى الرغم من قتامة هذه الصورة ، فإنها كانت تشتمل على إرهاصات وبشارات تؤكد أن نبيًّا سوف يبعث فى أرض العرب ليخرج الناس من الظلمات إلى النور . وكانت هذه الإرهاصات والبشارات تستند إلى ما جاء بالكتب السماوية أولا وأخيرا .

البيئة السياسية :

كانت الكعبة المشرفة محورا لجميع الصراعات السياسية التى دارت فى الجزيرة العربية ، سواء أكان مصدر هذا الصراع داخليا أو خارجيا .

فمنذ القدم والصراع يدور حولها ومن أجلها ، والكل يحاول أن يستولى عليها وأن تكون له ولايتها . وقد بدأ هذا بالجراهمة الذين حاولوا السيطرة على إسماعيل عليه السلام

بتزويجه من إحدى بناتهم ، ولكن العماليق سبقوهم إلى تحقيق ذلك فزوجوه من ابنتهم صدا التي ما لبثت أن تذمرت وأبدت السخط لانصراف هاجر أم اسماعيل عليه السلام إلى العبادة ، ثم أساءت إلى إبراهيم عليه السلام عندما جاءهم زائرا ، فطلقها إسماعيل وتزوج من شامة بنت مهلهل الجرهمي التي استقرت معه فى حياة زوجية رضى عنها إبراهيم عليه السلام . وشامة هى أم أبنائه .

وعندما انتقل إسماعيل عليه السلام إلى جوار ربه ، كانت قبيله جرهم قد تكاثرت فى شمال مكة حتى ملأت الفجاج وجعلتها تضيق على أصحابها الأصليين أبناء إسماعيل . وكان على رأس الجراهمة مضاض بن عمرو وكان رجلا قوى الشكيمة عنيف التصرفات ، كلمته بين قومه قانون غير مسجل . وكان العماليق قد تكاثروا هم أيضا حتى غطّوا جنوب مكة ، وكان على رأسهم السميذع الرجل الطموح العصبى المزاج الذى يحقد على جرهم لصلة النسب بينها وبين إسماعيل وأولاده ، ويتحين الفرص للانقضاض عليهم والفتك بهم .

وقد حرص « نابت » بن إسماعيل عليه السلام على بقاء الوئام بين القبيلتين بعد وفاة أبيه ، لئلا تسفك الدماء فى البيت الحرام الذى جعل أمنا للناس ومثابة وحرم فيه القتل والقتال .

وظل الأمر هكذا حتى وافته المنية ، فأوصى بالولاية لأخيه « قيذر » ، ولكن قيذر كان شيخا ضعيفا لم يقو على أمور الولاية فاستأثر بها مضاض بن عمرو الجرهمى . وهنا ثار السميذع وانفعل بالغضب وراح يترقب الفرص لانتزاع الولاية منه . ولما طال به الزمن دون أن تتاح له تلك الفرص، أخذ ينافسه منافسته الند للند. فلما بدأ مضاض يعشر التجارة التى يدخل أصحابها من الشمال لينفق منها على البيت وحجاجه ، صمم السميذع على أن يعشر التجارة ممن يدخل مكة من جنوبها .

ولم يكتف السميذع بذلك بل لجأ إلى نوع من أنواع الحرب النفسية المبكرة والدعاية السيئة عن الجراهمة بصفة عامة ، ومضاض بصفة خاصة . وبلغت أنباء هذه الدعاية السيئة سمع مضاض فصمم على أن يقابلها بما هو أشد وأقوى ، فاستعمل نوعا آخر من الحرب النفسية والدعاية المضادة ، وراح الدعاة من الجانبين يملأون جو الوادى المقدس بحكايات ملفقة مختلفة وروايات صنعها خيالهم الجنح . وكانت الغلبة لدعاوى مضاض فى هذه الحرب النفسية: إذ استطاع دعاته أن يقروا فى نفوس معظم الناس أن نسب الجراهمة يرجع إلى ملك من الملائكة يقال له « عرعر » هبط إلى الأرض من السماء ، فنزعت عنه روحانية الملائكة وجعل فى بعض خلق ابن آدم .

وقد راجت هذه الأسطورة وذاعت وانتشرت بين الناس انتشار النار فى الهشيم ، وصدقوها بأن آمنوا بها ، وهكذا فتحت جرهم للشيطان بابا واسعا يدخل منه إلى القلوب التى آمنت بالواحد الأحد . وحاول السميذع أن يقضى على هذه الأسطورة ، واجتهد رجاله فى سبيل ذلك ولكن جهودهم راحت أدراج الرياح وباءت محاولاتهم بالفشل . وهنا قرروا الانتقال من مرحلة الحرب النفسية والصراع الدعائى إلى مرحلة الصراع الدموى وحرب السيف ، وأخذوا يستعدون للصدام . والتقى الفريقان ودار قتال عنيف سفكت فيه الدماء وسالت على أرض أم القرى التى حرم الله فيها القتل والقتال . ثم التقى مضاض والسميذع فى مبارزة سقط فى نهايتها السميذع قتيلا ، ففر أصحابه هاربين . وهكذا سيطر مضاض وحده على مكة شمالا وجنوبا ، وقد وقف بعد الانتصار على الجبل يخطب فى الناس ويقول :

ونحن قتلنا سيد الحى عنوة ... فأصبح فيها وهو حيران موجع
وما كان يبغى أن يكون سواؤنا ... بها ملكا حتى أتانا السميذع
فذاق وبالا حين حاول ملكنا ... وعالج مناغصة تتجرّع
فنحن عمرنا البيت كنا ولاته ... ندافع عنه من أتانا وندفع
ومن كان يبغى أن يلى ذاك عزنا ... ولم يك حى قبلنا ثم يمنع
وكنا ملوكا فى الدهور التى مضت ... ورثنا ملوكا لا ترام فتوضع

ونزلت جرهم من أعالى الجبال وراحت تطوف بالبيت وهى تنشد :

لا همّ إن جرهما عبادكا ... القوم طوف وهم قلادكا

ورأى بنو إسماعيل الذين أحجموا عن الاشتراك فى القتال لحساب أحد الطرفين ، أن المشاحنات لن تنتهى بين القبيلتين وأن الفتنة تطل برأسها ، فمشوا بالصلح بينهما واستجاب الطرفان للصلح . وقام مضاض فنحر وطبخ وأطعم كل من حضر ذلك الصلح. وهكذا استقرت الأمور لمضاض وانتهى أول قتال دموى وقع فى الوادى المقدس.

ولما خلا الجو لجرهم أفسدوا فى الأرض وتمادوا فى غيهم وضلالهم ، وأكلوا أموال الكعبة ، وفرضوا الإتاوات على الحجاج والمعتمرين والقوافل التجارية التى تمر بمكة . وأقامت جرهم على هذا الحال نحو ثلاثمائة سنة ولم ينازعها فى ولاية البيت أحد ، إلى أن سلط الله سبحانه وتعالى عليها خزاعة فحاربتها وانتصرت عليها وأخرجت جبابرتها من مكة أذلة صاغرين . وفى هذا يقول شاعرهم :

وقائلة والدمع مع سكب مبادر | وقد شرقت بالدمع منها المحاجر
كأن لم يكن بين الحجون إلى الصفا | أنيس ولم يسمر بمكة سامر
فقلت لها والقلب منى كأنما | يلجلجه بين الجناحين طائر
بلى نحن كنا أهلها فأزالنا | صروف الليالى والجدود العواثر
وكنا ولاة البيت من نابت أتى | نطوف بذاك البيت والخير ظاهر
فأخرجنا منها المليك بقدرة | كذلك بالأحوال تجرى المقادر
فسحت دموع العين تبكى لبلدة | بها حرم باد وفيها المشاعر

كانت ولاية البيت بيد خزاعة ولكنها كانت تتوجس خيفة من قريش ، وتتوقع أن تنقض عليها وتنتزع الولاية منها ، فانتهزت أول فرصة للتخلص من رجالاتها وفرسانها ، فجعلتهم فى الصفوف الأولى من الجيش الذى خرج لصدّ تبع الأول وجيشه .

وكان تبع الأول قد جاء يريد الاستيلاء على الكعبة والسيطرة على مكة ومنافذها . ولما التقى الجيشان هزم تبع الأول شر هزيمة ، وجاء من بعده تبع الثانى الذى لقى نفس المصير ، وعاد رجالات قريش وفرسانها إلى الحرم وعقدوا الحلقات لدراسة الدين الحنيف .

وكان نفر من هذيل يحقدون على تبع الثالث ويتمنون زوال ملكه ، فذهبوا إليه وحرضوه على غزو الكعبة قائلين « أيها الملك ، هل ندلك على بيت مال دائر أغفلته الملوك من قبلك ؟ » . فأجابهم « وما حاجتى إلى بيت أغفلته الملوك ؟ » . فقالوا له « لو عرفت ما فيه أيها الملك ووقفت على حقيقة كنوزه وتحفه لما قلت هذا القول .. هذا البيت فيه من اللؤلؤ والزبرجد والياقوت والذهب والفضة ، وفيه من الهدايا ما لا يستطيع حمله المئات من الرجال الأشداء » .

وتساءل تبع الثالث عن البيت الذى يقصدونه بقولهم ، فدلوه على الكعبة قائلين « إنه بيت بمكة يعظمه العرب جميعا ويفدون إليه وينحرون عنده ويعتمرونه ويحجونه .. وأنت أولى أن يكون ذلك البيت وشرفه وذكره لك » . واقتنع تبع الثالث بقولهم فخرج على رأس جيش ضخم يفوق فى عدده وعدته جيش تبع الأول والثانى .

وما كاد تبع الثالث يقترب من مكة حتى هبت عليه وعلى جيشه عاصفة هوجاء من تلك العواصف التى تحول بياض النهار إلى سواد ، فجعلته وجنوده يدورون حول أنفسهم فى دوامات عنيفة رهيبة لا يستطيعون لها دفعا .

وانتهى الأمر بسقوطه مريضا بمرض لا يعرف الأطباء له علاجا ، فاستقدم الأحبار يسألهم النصيحة فقالوا « لقد أراد الهذليون هلاكك أيها الملك وهلاك جنودك ، فنحن

لا نعلم بيتا لله اتخذه فى الأرض لنفسه غير الكعبة التى نصحوك بالعدوان عليها . ولئن فعلت لتهلكن وليهلكن من معك جميعا » .

واستجاب تبع الثالث لنصيحة الأحبار ، فذهب إلى ألبيت معظما مكبرا ، وحلق رأسه عنده ، وأقام بمكة ستة أيام نحر فيها للناس وسقاهم العسل واللبن ، ثم أحضر أفخر الثياب وعمل منها كسوة للكعبة ، كما وضع لها أبوابا بمفاتيح تفتح وتغلق حسب الحاجة ، ثم قال شعرا منه :

وكسونا البيت الذى حرم الله ... ملاءا متبدا وبرودا
ونحرنا بالشعب ستة ألف ... فترى الناس نحوهن ورودا
ثم سرنا عنه نؤم سهيلا ... فرفعنا لواءنا معقودا

وكانت خزاعة تهدف إلى التخلص من قريش كما أوضحنا من قبل ، ولكن القريشيين حققوا نصرا اكتسبوا به مجدا وشرفا وسؤددا بين العرب .

وكان جدهم النضر بن كنانة قد اجتهد حتى جمعهم ولمّ شملهم ووحد صفوفهم وأعادهم مرة أخرى إلى بيت الله الحرام ، الذى كانوا قد تركوه تحت الضغوط التى وقعت عليهم من جرهم وغيرها . وقد أطلق عليهم العرب منذ ذلك الحين كلمة قريش نسبة إلى تقريشهم ، أى تجميعهم .

وكان أبوهم مالك هو الذى واجه سابور ذى الأكتاف الذى كان اسمه يبعث الرعب فى قلوب العرب جميعا . وقد ذهب إليه ليناقشه فى عداوته للعرب فقال له « جئت أسألك لماذا تضطهد العرب ؟ » فقال له سابور « ولم لا أفعل وقد أنبأنى المنجمون أنه سيظهر فى العرب رجل يزول على يديه ملك فارس ويمحى دينها ؟ » . فقال مالك « المنجمون لا يصدقون دائما » . فعاد سابور يقول « ونبوءة ساسان ؟ » فقال مالك « وماذا تقول نبوءة ساسان ؟ » فأجابه « تقول إن رجلا من العرب سيأخذ سرير ملك فارس ويصبح الرؤساء مرءوسين له ، ويضع مكان تماثيل الآلهة ومواقد النار المقدسة بيتا معمورا بلا صور وبلا تماثيل » . فسأله مالك « إذا كانوا صادقين فليقولوا من أية قبيلة ذلك الرجل » . فصاح به سابور « لو عرفت فى أية قبيلة سيظهر لأفنيت تلك القبيلة وحقنت دماء العرب أجمعين » . فقال مالك « لو أن ذلك مقدر وسوف يقع فهل سفكك لدماء العرب يمنع وقوعه ؟ » فأعجب سابور بهذا القول الحكيم وقال « لقد أوقفت القتل والتعذيب عن العرب من الساعة » .

ولو أن حجب الغيب شقت أمام عينى سابور فى تلك اللحظات ، لقرأ فيها أن العربى الذى يخشى منه على ملكه هو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف ابن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك الواقف أمامه .

ورغم محاولات خزاعة للنيل من مكانة قريش وزعامتها ، إلا أن العرب أقبلوا على قريش والتفوا حولها .. بل إن منهم من طلب إليها أن تحتل مكانها الأول ، وأن تستولى على ولاية البيت التى هى حقها الطبيعى . وقد أوغر هذا صدور خزاعة التى استعانت ببكر وشنت الحرب على قريش ومن حالفها . ودار القتال فى منى ثم تدخلت القبائل العربية الأخرى فى النزاع وعظموا عليهم سفك الدماء على الأرض الحرام ، وتم الصلح واستقرت شئون البيت فى يد قصى . وهكذا عادت الكعبة إلى أبناء إسماعيل .

على هذا النحو كان الصراع السياسى يدور داخليا فى مكة حول محور أساسى هو الكعبة المشرفة .. الصراع السياسى الخارجى الذى كان يدور حول الجزيرة العربية بين القوتين العظميين فى تلك الحقبة الزمنية — وهما الفرس والروم — وكان محوره كذلك الكعبة المشرفة .

فقد كان « يوسطنيانوس » قيصر الروم يطمع فى أن تسيطر المسيحية على العالم ، وأن يرفرف الصليب على وجه الأرض من أقصاها إلى أقصاها . ففكر فى أرسال أبرهة لغزو الحجاز لكى يتصل نصارى الحبشة واليمن بنصارى القسطنطينية عن طريق البر ولكى يؤمن حرية الملاحة فى البحر الأحمر ، ولكى يتمكن أخيرا من مهاجمة الفرس مستعينا بالقبائل المعادية لهم .

وبينما كان « يوسطنيانوس » يحلم بهذا ويفكر كيف يحقق حلمه ، كان أبرهة قد قفز إلى حكم اليمن بعد أن قتل « أرياط » حاكمها الأول . ووصلت هذه الأخبار إلى « النجاشى » ملك الحبشة فهاج وماج وصاح « لقد اعتدى أبرهة على أميرى « أرياط » وقتله دون إذن منى . والله لا أدع أبرهة حتى أطأ أرضه وأجز ناصيته وأسفك دمه » .

وسمع « أبرهة » بهذا فأسرع إلى النجاشى ، وعندما مثل بين يديه قال فى خضوع :

« أيها الملك العظيم ، إنما كان أرياط عبدا من عبيدك وأنا أيضا عبد من عبيدك ، ولكننا اختلفنا فيما بيننا وكلنا طاعة لك . إلا أننى كنت أقوى على حكم اليمن منه وأضبط وأسوس لأهلها . ثم إننى أفكر فى بناء كنيسة لم يبن مثلها لملك من قبلك ، ولن أهدأ أو أستريح حتى أصرف حجاج العرب إليها ، وأجعلهم ينسون تماما أن فى مكة بيتا يحج إليه » .

وصادف هذا القول هوى فى نفس النجاشى ، الذى كان يقلقه ويقض مضجعه كزعيم للدين المسيحى فى المنطقة تهافت الحجاج العرب على الكعبة فى مكة المكرمة ، فوافق على ذلك وكتب إلى يوسطنيانوس يزف البشرى إليه ، فابتهج بدوره وأحس أن حلمه الكبير سوف يتحقق .

وقام أبرهة ببناء كنيسة فخمة ضخمة نقل إليها أروع ما حواه قصر الملكة بلقيس من أعمدة الرخام وأحجار المرمر وتحف الذهب والفضة ، وأطلق عليها اسم القليس . وانتظر أبرهة وانتظر معه النجاشي والقيصر أن يتحول حجاج العرب عن الكعبة المعظمة إلى كنيسة القليس بصنعاء ، ولكن شيئا من هذا لم يتحقق .

وظلت الكعبة كما هي قبلة العرب ومعقد آمالهم ، ولم يستطع القليس مع كل ما قاموا له به من دعاية وإعلان عنه أن يصرف العرب عنها . فاغتاظ أبرهة وأخذ يفكر ماذا يفعل ؟ ودله الشيطان إلى أن يدعى أن بعض العرب قد أحدثوا فى القليس .. واتخذ من ذلك ذريعة يتذرع بها لكى يغزو الكعبة ويهدمها فلا يكون لها وجود ولا يكون على الأرض سوى القليس ..

وكتب إلى النجاشى مستئذنا فى الخروج إلى مكة لهدم الكعبة ، فوافق وحصل له على تأييد القيصر ، ثم زوده بجيش ضخم وفيل كبير مدرب على اقتحام المعارك .

وخرج أبرهة على رأس الجيش يتقدمهم الفيل متجها إلى مكة . وسمعت العرب بذلك فأعظموه وفظعوا به ورأوا جهاده حقا عليهم . وخرج رجل من أشراف أهل اليمن وأقيالهم يقال له « ذو نفر » ومعه قومه ، ودارت معركة انتصر فيها أبرهة وأسر ذا نفر فلما أراد قتله قال له . « مهلا أيها الملك لا تقتلنى ، فعسى أن يكون بقائى على قيد الحياة أفضل لكم من قتلى ، وعسى أن يكون مقامى معكم خيرا من ذهابى عنكم إلى غير رجعة » . فأبقى أبرهة على حياته ، واستأنف السير إلى أن وصل أرض « خثعم » . وهناك تصدى لهم « نفيل بن حبيب الخثعمى » فى قبائل « خثعم وشهران وناهس » ، ودارت معركة أخرى انتصر فيها أبرهة أيضا وأسر نفيلا ، ولما هم بقتله صاح به نفيل قائلا « أيها الملك أبق على حياتى وسوف أكون دليلك بأرض العرب .. وهاتان يداى على قبائل خثعم بالسمع والطاعة » . فعفا عنه أبرهة واتخذه دليلا حتى وصل الطائف . فخرج له « مسعود بن معتب » فى رجال ثقيف عند « اللات بيت عبادتهم » قائلا « أيها الملك .. إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون لأوامرك ، وليس لك عندنا خلاف ، وليس بيتنا هذا بالبيت الذى تريد — يعنون بين صنمهم اللات — ، وإن شئت أرسلنا معك من يدلك عليه » .

وتطوع أحدهم « أبو رغال » بأن يدلهم على مكة ويصل بهم إلى الكعبة ، وسار أمامهم يحدو لهم ويحمسهم حتى وصلوا مكانا يقال له « المغمس » على مقربة من مكة ، فهلك أبو رغال بداء غريب أصابه ودفن بنفس المنطقة وقد رجمت العرب قبره .

وعسكر أبرهة فى المغمس وبعث « الأسود بن مقصود » على خيل له حتى انتهى إلى مكة فاغتصب أموال أهل « تهامة » من قريش ، وأصاب فيها مائتى بعير لعبد المطلب بن هاشم وهو يومئذ رأس قريش وسيدها . وما أن علم عبد المطلب بذلك حتى جمع الناس بدار الندوة للتشاور ، وقد رأوا جميعا أن يخرجوا لحرب أبرهة وصده عن بيت الله . ولكن عبد المطلب خوّفهم من ذلك وبيّن لهم أن المعركة لن تكون متكافئة ، ونصحهم بأنه يتركوا الأمر لله وحده فهو رب البيت القادر على حمايته .

ولم يلبث أبرهة أن طلب سيد قريش فذهب إليه طامعا فى استعادة الإبل . فلما التقيا سأله أبرهة أن يطلب حاجته . فقال له عبد المطلب « حاجتى أن يرد الملك على المائتى بعير التى أصابها رجاله » . فدهش أبرهة لهذا القول وقال « أهذا ما جئت تطلبه منى .. أنت شريف مكة وصاحب الأمر والنهى فيها ؟ جئت تكلم أبرهة العظيم فى مائتى بعير ؟ هل نسيت أننى إنما جئت أهدم بيت عبادتكم ؟ أهدم كعبتكم المعظمة لديكم ؟ أتكلمنى فى مائتى بعير تريد استردادها وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك وأجدادك لا تكلمنى فيه ؟ ؟ » . فأجابه عبد المطلب فى هدوء « مهلا أيها الملك . إننى أنا رب الإبل ، وإن للبيت ربًّا يحميه » . فقال أبرهة « ما كان ليمتنع على » . فأجابه عبد المطلب « أنت وذاك .. اهدمه إن استطعت ولكن رد على إبلى » . فقال أبرهة « قد رددناها عليك وسوف نمضى إلى البيت فنجعله أثرا بعد عين » .

وقبل أن يخرج عبد المطلب من مجلس أبرهة دخل إليه من يقول « إن بالباب سيد هذيل يعرض ثلث أموال تهامة ، على أن يرجعَ الملك فلا يهدم الكعبة » . ولا يقبل أبرهة هذا العرض وإنما يصيح فى غرور وصلف وغطرسة « بل سأهدمها ولو عرضت على أموال الدنيا كلها .. لقد آن الأوان لحذف هذه الكعبة من سجل الوجود » .

ولم يستطع أبرهة أن يحول شيئا من تهديداته إلى واقع ، كما لم يستطع أن يحقق حلم القيصر وأمل النجاشى . وانتهى بالمأساة التى حدثنا عنها القرآن الكريم فى قول الله تعالى : بسم الله الرحمن الرحيم ﴿ ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ۝ ألم يجعل كيدهم فى تضليل ۝ وأرسل عليهم طيرا أبابيل ۝ ترميهم بحجارة من سجيل ۝ فجعلهم كعصف مأكول ﴾ . الفيل ١ — ٥

وبهذه المأساة التى لم تعرف البشرية لها مثيلاً من قبل ولا من بعد ، تتضح لنا طبيعة الصراع السياسى داخل الجزيرة العربية وخارجها ، وهى صورة فى مجملها تشير إلى المكانة المقدسة لمكة — تلك المكانة التى استمدتها من وجود بيت الله الحرام فيها — ذلك البيت العتيق العريق الذى كان محورا لكل الصراعات التى دارت فى البيئة سياسياً

واجتماعيا وفكريا واقتصاديا ، وشكلت بمقوماتها أيكولوجية الإعلام قبل الإسلام ، وسوف يكون لها تأثيرها فى تكوين أيكولوجية الإعلام الإسلامى بعد مولد نبى الهدى محمد بن عبد الله ﷺ فى نفس العام « عام الفيل » حيث أخرج الإنسانية كلها من الظلمات إلى النور .

ويحدثنا التاريخ أن قريشا فرحت بما أصاب أصحاب الفيل ، وأقبلوا على الكعبة يطوفون بها شاكرين ربها وربهم الكريم الذى من عليهم بالنجاة وحفظ للبيت الحرام مكانته ، ولمكة زعامتها وقيادتها للعرب أجمعين ، وصاح شاعرهم ينشد :

فتنكلوا عن بطن مكة إنها ... كانت قديما لا يرام حريمها
سائل أمير الجيش عنها ما رأى ... ولسوف ينبى الجاهلين عليمها
ستون ألفا لم يؤوبوا أرضهم ... بل لم يعش بعد الإياب سقيمها

الفصل الرابع

القرآن الكريم ونظرية الإعلام الإسلامى

بسم الله الرحمن الرحيم .. ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ۝ خلق الإنسان من علق ۝ اقرأ وربك الأكرم ۝ الذى علم بالقلم ۝ علم الإنسان ما لم يعلم ۝ ﴾

بهذه الآيات الكريمة افتتحت الدعوة المحمدية ، أو الرسالة الإسلامية التى حملها الله سبحانه وتعالى لرسوله الكريم محمد بن عبد الله ﷺ ، وكلفه بتبليغها للناس كافة والإعلام عن الدين الحق والإله الواحد الذى لا شريك له ولا ولد .

وكان ذلك فى ليلة القدر من شهر رمضان المبارك ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ۝ وما أدراك ما ليلة القدر ۝ ليلة القدر خير من ألف شهر ۝ تنزل الملائكة والروح فيها بإذن ربهم من كل أمر ۝ سلام هى حتى مطلع الفجر ﴾ سورة القدر .

وكان رسول الله ﷺ قد خرج إلى غار حراء كعادته فى تلك الفترة التى كان يعتزل الناس فيها ، ويقضى الليالى ذوات العدد متعبدا متحنثا متأملا فى الكون مناجيا من كونه سبحانه وتعالى . ففاجأه جبريل عليه السلام بأمر الله جلّ جلاله ــ قال رسول الله ﷺ (فجاءنى جبريل وأنا نائم بنمط من ديباج فيه كتاب .. فقال (اقرأ) فقلت (ما أقرأ) قال (فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ، ثم أرسلنى فقال (اقرأ) قلت (ما أقرأ) فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال (اقرأ) فقلت (ما أقرأ) فغتنى به حتى ظننت أنه الموت ثم أرسلنى فقال (اقرأ) فقلت (ماذا اقرأ؟) ما أقول إلا افتداء منه أن يعود لى بمثل ما صنع بى ، فقال ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ۝ خلق الإنسان من علق ۝ اقرأ وربك الأكرم ۝ الذى علم بالقلم ۝ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ قال فقرأتها ثم انتهى فانصرف عنى ، وهببت من نومى فكأنما كتبت فى قلبى كتابا) . قال رسول الله ﷺ (فخرجت حتى إذا كنت فى وسط من الجبل سمعت صوتا من السماء يقول (يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل) ، فرفعت رأسى إلى السماء أنظر فإذا جبريل فى صورة رجل صاف قدميه فى أفق السماء يقول (يا محمد أنت رسول الله وأنا جبريل) . قال ﷺ (فوقفت أنظر إليه فما أتقدم وما أتأخر ، وجعلت أصرف وجهى عنه فى آفاق السماء فلا أنظر فى ناحية منها إلا رأيته كذلك .. فمازلت واقفا ما أتقدم أمامى وما أرجع ورائى حتى بعثت خديجة رسلها فى طلبى ، فبلغوا أعلى مكة ورجعوا إليها وأنا واقف فى مكانى ذلك ، ثم انصرف عنى) .

وقد أجمع المفسرون على أن قوله تعالى ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ أى اقرأ مبتدئا باسم ربك و﴿ اقرأ وربك الأكرم ﴾ أى الذى لا يدانى كرمه كرما مهما كان، و ﴿ الذى علم بالقلم ﴾ أرشد ووفق إلى الكتابة به، وفى هذا تنبيه على فضل علم الكتابة، فما دونت العلوم ولا ضبطت كتب الله تعالى المنزلة إلا بالكتابة، ولولاها لما استقامت أمور الدين والدنيا و﴿ علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ أى علمه ما لم يكن يعلم، أو عرفه ما لا يستطيع معرفته بقواه البشرية المحدودة — وإن من ينظر إلى الكهرباء واللاسلكى والصواريخ الموجهة والطائرات التى تخترق حاجز الصوت والإذاعات المرئية والمسموعة والأقمار الصناعية ورحلات الفضاء وكل وسائل الاتصال وغيرها من خوارق الصناعات والمعلومات والتكنولوجيا الحديثة، يعلم حق العلم أن العقل البشرى مهما سما وارتفع وتوغل فى دنيا العلوم فهو عاجز قاصر لا يستطيع أن يحقق شيئا من المعرفة بغير إلهام وتعليم من العليم الخبير عز وجلّ.

ولا شك أن افتتاح الرّسالة المحمدية بكلمة اقرأ يعنى التأكيد على اقتران العلم بالدين وارتباطه بالدعوة والإعلام الإسلامى، وبيان أن العلم أساس للحقائق الكونية كلها. وأن العلم بالله أو معرفة الله سبحانه وتعالى هى رأس جميع الحقائق الكونية .. إن الله يأمر بالقراءة التى هى أهم وسائل العلم وأولها، وقد كرر الأمر بالقراءة مرتين، وذكر العلم ثلاث مرات، وذكر القلم مرة فى هذه السورة، ثم ذكره بعد ذلك عندما أقسم سبحانه قائلا ﴿ نٓ والقلم وما يسطرون ﴾.

والعلم فى الإسلام من وسائل تثبيت الإيمان، والعلماء هم أعرف الناس بالله وأكثرهم خشية له جل جلاله ﴿ إنما يخشى الله من عباده العلماء ﴾ وللعلماء عند الله مكانة لا يرقى إليها غيرهم، فهو سبحانه يقول ﴿ شهد الله أنه لا إلٰه إلا هو والملائكة وأولو العلم ﴾ ولقد أمر الله رسوله الكريم أن يلجأ إليه داعيا أن يزيده علما فقال ﴿ وقل ربِّ زدنى علما ﴾، والآيات القرآنية فى فضل العلم وفى الحض على التعلم وفى تقدير العلماء كثيرة.

والعلم الذى يدعو إليه الإسلام ليس قاصرا على الدين وحده، وإنما هو العلم بمعناه الواسع. والله سبحانه وتعالى يدعونا إلى التأمل فى خلق السموات والأرض، وفيما سخره لنا من بحار وأنهار وجبال وسهول ووديان وأنعام وغيرها .. وهو يقول عز من قائل ﴿وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعا منه إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴾.

وهكذا اقترن الإسلام بالعلم منذ تلك الليلة المباركة التى نزل فيها القرآن الكريم على محمد رسول الله ﷺ.

والثابت أن العرب كانوا فى جاهليتهم أميين أى بلا كتاب، ولم يكن فيهم من يعرف الكتابة إلا قلة قليلة لعلها كانت ممّن تسلسل من ولد إسماعيل عليه السلام. وقد وردت فى القرآن الكريم كلمة الأمى والأميين ووصف الرسول عليه الصلاة والسلام بالنبى الأمى، وقد وردت فى سورة مكية ومدنية. ففى سورة الأعراف ١٥٦ قال تعالى ﴿ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل ﴾ وفى البقرة الآية ٧٧ قوله عز شأنه ﴿ ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانىّ وإن هم إلا يظنون ﴾ وفى آل عمران الآية ٧٥ قال جل جلاله ﴿ .. ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾.

ولعل هذا ما جعل بعض العلماء يقولون إن الأميين من لا كتاب لهم من الناس. ومن هؤلاء العلماء الطبرى الذى فسر الآية ١٩ من آل عمران ﴿ فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم فقد اهتدوا وإن تولّوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد ﴾ بأن قال « المقصود من هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى يقول يا محمد، قل للذين أوتوا الكتاب من اليهود والنصارى والأميين الذين لا كتاب لهم من مشركى العرب أأسلمتم ».

وهناك تفسير آخر يقول سمّى (بالأمىّ) لأنه من أمة العرب التى لم تكن تكتب أو تقرأ. وقد بعثه الله بالحق رسولا وهو لا يعرف القراءة ولا الكتابة وهذه إحدى المعجزات، لأنه ﷺ تلا القرآن على قومه كما أنزل عليه فلم يغير ولم يبدل لفظا أو حرفا وفى ذلك يقول العلى القدير ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾.

وقال القرطبى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ﴾ الضمير فى قبله عائد إلى الكتاب أى القرآن المنزل على محمد ﷺ — أى وما كنت يا محمد تقرأ قبله ولا تختلف إلى أهل الكتاب — بل أنزلناه إليك فى غاية الإعجاز والتضمين للغيوب وغير ذلك. فلو كنت ممن يقرأ كتابا ويخط حروفا لارتاب المبطلون أى أهل الكتاب — وكان لهم فى ارتيابهم متعلق — وقالوا : الذى نجده فى كتبنا أنه أمى لا يكتب ولا يقرأ » — قال مجاهد « كان أهل الكتاب يجدون فى كتبهم أن محمدا ﷺ لا يخط ولا يقرأ.. فنزلت هذه الآية ». ولا شك أن نزولها دليل على نبوة محمد ﷺ لقريش لأنه لا يقرأ ولا يكتب ولا يخالط أهل الكتاب، ولم يكن بمكة أحد من أهل الكتاب، ومع ذلك فقد جاءهم بأخبار الأنبياء والأمم والأحداث التى وقعت فى الأيام الموغلة فى جوف الزمن.

وقد تعرض الجاحظ لهذا الموضوع أيضا فقال مقالا عن كلام شيخ من البصريين « إن الله إنما جعل نبيه أميا لا يكتب ولا يحسب ولا ينسب، ولا يقرض الشعر ولا يتكلف الخطابة ولا يتعمد البلاغة، لينفرد سبحانه بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة وبقصره على معرفة مصالح الدين، دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر والبشر ومن العلم بالأنواء وبالخيل وبالأنساب وبالأخبار وتكلف قول الأشعار، ليكون إذا جاء بالقرآن الحكيم وتكلم بالكلام العجيب كان ذلك أدل على أنه من الله.

« وزعم أن الله تعالى لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ليكون أنقص حظا من الحاسب الكاتب، ومن الخطيب الناسب، ولكن ليجعله نبيا، وليتولى من تعليمه ما هو أزكى وأنمى. فإنما نقصه ليزيده، ومنعه ليعطيه، وحجبه عن القبائل ليجلّى له الكثير ».

وقد رد الجاحظ على كلامه هذا بقوله « وقد أخطأ هذا الشيخ وإن كان لم يرد إلا الخير — وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه — ولو زعم أن أداة الحساب والكفاية وأداة قرض الشعر ورواية جميع النسب قد كانت فيه تامة وافرة ومجتمعة ولكنه ﷺ صرف عن تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أذكى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة، وكان إذا احتاج إلى البلاغة كان أبلغ البلغاء، وإذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء، وأنسب من كل ناسب، وأقوف من كل قائف، ولو كان فى ظاهره والمعروف من شأنه أنه كاتب حاسب، ومتفرس ناسب. ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة.. وما كان ذلك بمانع من وجوب تصديقه ولزوم طاعته والانقياد لأمره، على سخطهم ورضاهم، ومكروههم ومحبوبهم. ولكنه أراد ألّا يكون متعلقا عما دعى إليه حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق، وليكون ذلك أخف فى المئونة وأسهل فى المحنة. فلذلك صرف نفسه عن الأمور التى كانوا يتكلفونها ويتنافسون عليها ».

وحديث الجاحظ هذا يذكرنا بالآية الكريمة ﴿ وما علمناه الشعر وما ينبغي له إن هو إلا ذكر وقرآن كريم ﴾ يس ٦٨. كما يذكرنا بحادثتين وقعتا لرسول الله ﷺ وهو فتى يرعى الغنم، وكان مع زميل له، فحدثته نفسه يوما أن يلهو كما يلهو الفتيان. فأفضى إلى زميله بذلك ذات مساء وطلب منه أن يقوم على حراسة أغنامه لكنه ما أن بلغ أعالى مكة حتى استرعى انتباهه حفل زواج، فوقف عنده ثم ما لبث أن غلبه النوم. ونزل مكة ليلة أخرى لهذه الغاية فامتلأت آذانه بأصوات موسيقية عذبة كأنما هى موسيقى السماء، فجلس يستمع ثم غلبه النوم حتى الصباح.

وماذا عسى أن يكون الشعر والنثر والموسيقى وكل المغريات بالنسبة لرجل أعده الله سبحانه وتعالى ليكون الإعلامي الأمثل، والداعية الأول إلى دينه الحق؟ نعم لقد عصمه الله وصرف اهتمامه إلى ما هو أهم وأعظم.. إلى الرسالة التى أعده لحملها والقيام بتبعاتهما.

وإذا كان القرآن الكريم قد بدأ بلفظ اقرأ، فإن ذلك لدليل على حكمة بالغة الأهمية تهدف إلى حض الناس على التعلم والتثقف والاستنارة. فالقراءة تفتح أمام الجاهل صفحات جديدة للحياة الكريمة وتأخذ بيده إلى الحقائق.. بل تصل به إلى جوهر القيم وتضعه على المسار الصحيح، أو بعبارة أخرى تضع له المنهج السليم. والمنهج السليم الذى وضعه الله سبحانه وتعالى فى كتابه الحكيم هو جانب من جوانب الإعجاز الإعلامى فى القرآن الكريم، ذلك الذى يحدد معالم نظرية إعلامية متكاملة تتضمن علم النبوة أو علم الرسائل الإلـٰهية، كما تتضمن علم المعجزات وتشييد المجتمع الإسلامى على الصورة التى يريدها الله. فإنها تتضمن عددا من العناصر الاتصالية المتكاملة المتصلة الحلقات اعتمادا على نظرية الوحى، حيث يوحى إلى الرسول ﷺ من عند الله فيقوم الرسول بالتبليغ والإعلام. والرسالة القرآنية تعتمد على أسس وضعها الله سبحانه وتعالى للتأثير فى نفوس الجماهير الذين يتلقون هذه الرسالة.

فالعنصر الأول وهو الوحى أشار إليه القرآن الكريم فى أكثر من موضع، فقال تعالى ﴿ وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ﴾ النساء ١٦٣. وقال سبحانه ﴿ أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس ﴾ يونس ٢. وقال عز من قائل ﴿ نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن ﴾ يوسف ٣. وقال جل جلاله ﴿ وأوحينا إليه لتنبئنهم بأمرهم هذا وهم لا يشعرون ﴾ يوسف ١٥. ﴿ كذلك أرسلناك فى أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلو عليهم الذى أوحينا إليك وهم يكفرون بالرحمن ﴾ الرعد ٣٠. ﴿ والذى أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه ﴾ فاطر ٣١. ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ﴾ آل عمران ٤٤. ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلـٰهكم إلـٰه واحد ﴾ الكهف ١١٠. ﴿ وأنا اخترتك فاستمع لما يوحى ﴾ طه ١٣. ﴿ قل إنما يوحى إلىّ أنما إلـٰهكم إلـٰه واحد فهل أنتم مسلمون ﴾ الأنبياء ١٠٨. ﴿ واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعلمون خبيرا ﴾ الأحزاب ٢. ﴿ إن يوحى إلىّ إلا إنما أنا نذير مبين ﴾ ص ٧٠. ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلىّ أنما إلـٰهكم إلـٰه واحد ﴾ فصلت ٦. ﴿ إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ وما أنا إلا نذير مبين ﴾ الاحقاف ٩. ﴿ إن هو إلا وحى يوحى ﴾ النجم ٤.

وكل هذه الآيات الكريمة تؤكد أن عنصر الوحى فى النظرية القرآنية للإعلام هو العنصر المعجز، لأن ما يوحى به الله سبحانه وتعالى لا يمكن أن يأتى به بشر، ومن هنا كانت معجزة محمد عليه الصلاة والسلام تختلف عن معجزات الأنبياء السابقين.. فإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم كانت معجزاتهم معجزات حسّية تراها العين وتسمعها الأذن وتلمسها الأيدى، ولكن معجزة محمد عليه الصلاة والسلام كانت معجزة عقلية تعتمد على التأمل ومخاطبة العقل — ولله سبحانه وتعالى فى ذلك حكمة — فالبشرية فى عهودها الأولى كانت فى مراحلها البدائية التى تحتاج فى الإقناع إلى الوسائل الحسية الملموسة، فى حين أنها فى عهد محمد ﷺ كانت قد بلغت درجة من الرقى العقلى واللغوى تجعلها فى حاجة إلى معجزة عقلية وبلاغية تبهر عقولهم، وتكسف شمس بلاغتهم. وقد أرسل الله إليهم القرآن الكريم معجزة المعجزات فى اللغة والعقل متحديا الأجيال كلها أن يأتوا بمثله ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ الإسراء ٨٧.

ومن يدرس القرآن الكريم يجده حجة الله سبحانه على خلقه، وحجة النبى فى رسالته، ومرجع الشريعة المحكم فى بيانه، والفيصل عند الاختلاف، والمنهج السليم عندما تلتوى الطريق، والسراج المنير عندما يطبق الظلام.

حدث الترمذى بسنده عن على بن أبى طالب كرّم الله وجهه أنه قال «سمعت رسول الله ﷺ يقول (ستكون فتن كقطع الليل المظلم) قلت «يارسول الله وما المخرج منها؟» قال (كتاب الله تبارك وتعالى.. فيه نبأ من قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم. هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله. هو حبل الله المتين، ونوره المبين، والذكر الحكيم، والصراط المستقيم. وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تتشعب معه الآراء، ولا يشبع منه العلماء، ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه. وهو الذى لم تنته الجن إذ سمعته أن قالوا ﴿ إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدى إلى الرشد ﴾ من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم)».

وفى معنى هذا الحديث الشريف روى عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال «إن هذا القرآن مأدبة الله تعالى، فتعلموا من مأدبته ما استطعتم.. إن هذا القرآن هو حبل الله والنور المبين والشفاء النافع، عصمة من تمسك به ونجاة من اتبعه. لا يعوج فيقوم، ولا يزيغ فيستعتب، ولا تنقض عجائبه. فاتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته بكل حرف عشر حسنات».

ومن الإعجاز الإعلامى فى القرآن الكريم نزوله منجما على مدى السنوات الثلاثة والعشرين التى هى مدة الرسالة المحمدية . فقد نزل على فترات غير محددة الأوقات ، ولم ينزل دفعة واحدة كما نزلت الألواح العشر على موسى عليه السلام ، وكما نزل الزابور على داود عليه السلام . وقد تساءل القريشيون عن السبب فى هذا فقال تعالى ﴿ وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ الفرقان ٣٢.وهذا الرد الإلـٰهى قد تضمن ثلاث إجابات[1] تفسر السبب فى نزوله منجما . أولها تثبيت فؤاد الرسول بموالاة الوحى بالقرآن ، فإن موالاته فيها أنس للنبى عليه الصلاة والسلام وتثبيت لعزيمته وتأييد مستمر له ، فيقوم بحق الدعوة بالجهاد فى سبيلها . وإذا كان المرء يستأنس بوليه إذا داوم الاتصال به ، فكيف لا يستأنس رسول الله بلقاء الروح الأمين الذى يجيئه بكلام رب العاملين فى موالاة مستمرة ؟

وثانيها أن تثبيت الفؤاد بنزول القرآن يكون بحفظ ما ينزل عليه جزءا جزءا ، ذلك أن هذا القرآن نزل ليحفظ فى الأجيال كلها جيلا بعد جيل ، وما يحفظ فى الصدور لا يعتريه التغيير ولا التبديل ، وما يكتب فى السطور قد يعتريه المحو والتحريف والتصحيف .

ولأن الله تعالى كتب للقرآن أن يحفظ .. كان رسول الله ﷺ يحفظ جزءا جزءا ، وكان حريصا على أن يحفظه عند نزوله فكان يردد ما يتلوه عليه جبريل ويتعجل حفظه . وقد قال الله سبحانه وتعالى لنبيه فى ذلك ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ٥ إن علينا جمعه وقرآنه ٥ فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ٥ ثم إنا علينا بيانه ﴾ القيامة ١٦ — ١٩ .

ونرى من هذا النص حرص النبى ﷺ على أن يحفظ ما يوحى إليه .. فيحرك به لسانه مستعجلا الحفظ ، فينبهه الله تعالى إلى أنه سبحانه يتولى جمعه والقراءة له ، وأنه مبينه وحافظه كما قال تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ الحجر ٩ .

وثالثها ترتيل القرآن بتعليم تلاوته،وأن هذا النص يستفاد منه أن تلاوة القرآن وطريقة ترتيله هى من تعليم الله تعالى . إذ أنه سبحانه وتعالى ينسب الترتيل إليه تعالت قدرته وسمت كلماته وعظم بيانه ، فنحن بقراءتنا وترتيلنا إن أحكمناه إنما نتبع ما علم الله تعالى نبيه من ترتيل محكم جاء به التنزيل ، وأمر به النبى ﷺ فى قوله تعالى ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ المزمل ٤ .

---

(١) محمد أبو زهرة : المعجزة الكبرى للقرآن ، القاهرة ، دار الفكر العربى ١٩٧٠ ، ص ٢٢ وما بعدها .

وما كان تعليم هذا الترتيل المنزل من عند الله تعالى ليتوافر إذا لم ينزل القرآن منجما . فلو أنه نزل جملة واحدة ما تمكن النبى عليه السلام من تعليمه لقومه مرتلا وهم حملته إلى الأجيال من بعده .

وهناك سبب آخر يراه الشيخ محمد أبو زهرة لنزول القرآن منجما نلمسه من حال العرب ومن شئونهم ، ذلك أنهم كانوا أمة أميّة والكتابة فيهم ليست رائجة ، بل يندر فيهم من يعرفها ، وأندر منه من يتقنها . فما كان فى استطاعتهم أن يكتبوا القرآن كله إذا نزل جملة واحدة ، إذ يكون بسوره وآياته عسيرا عليهم أن يكتبوه ، وإن كتبوه لا يعدموا الخطأ والتصحيف والتحريف .

ونحن نرى أن التفسير الإعلامى لفائدة إنزال القرآن منجما ، أنه كان ينزل لمناسبات وأحداث ، فيكون فى هذه الأحداث بعض البيان لأحكامه ، والمبين الأول هو النبى ﷺ ، كما قال تعالى ﴿ وأنزلنا الذكر لتبين للناس ما أنزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ النحل ٤٤

وقد اهتمت الآيات المكيّة — وهى التى نزلت قبل هجرة رسول الله ﷺ إلى المدينة — بالعقيدة ، وركزت على عبادة التوحيد باعتبارها العبادة الحقة ، ودعت إلى الله الواحد الأحد الذى لا شريك له ولا ولد . ثم بينت ضلال الشرك وإثم الكفر وما حاق بالمشركين والكافرين فى مختلف العصور من عذاب أليم مرير . وروت قصص الأنبياء وأخبار الأمم الغابرة ، ثم حذرت من المحرمات .

أما الآيات المدنية ، فيمكن القول إنها فى مجموعها تشريع شامل كامل لم يترك صغيرة ولا كبيرة للدولة الإسلامية المثالية كما يريدها الله سبحانه وتعالى للبشر .. فقد نظمت فيها العلاقات بين الناس ، وشرعت لهم النظم والقوانين التى تضمن لهم الحياة الكريمة المتعاونة ، وسنّت الأحكام الفاصلة بين الحقوق داخل الدولة . كما وضعت أسس العلاقات الدولية ونظم الحرب ، وروعيت فيها حقوق الإنسان حتى العدو فى ساحة القتال وبعده . وأحسن مثل على هذا ما جاءت به الآيات الكريمة التى تقول ﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ◦ وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلا إن الله يعلم ما تفعلون ◦ ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة أنكاثا تتخذون أيمانكم دخلا بينكم أن تكون أمة هى أربى من أمة إنما يبلوكم الله به وليبينن لكم يوم القيامة ما كنتم فيه تختلفون ﴾ النحل ٩٠ — ٩٢

ولقد أحصى القرطبي فى تفسيره الجامع لأحكام القرآن الكريم السور المدنية ، فقال عن قتادة « نزل بالمدينة من القرآن .. البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال وبراءة والرعد والنحل والحج والنور والأحزاب ومحمد والفتح والحجرات والرحمن والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق ويا أيها النبى لمَ تحرم إلى رأس العشر وإذا زلزلت وإذا جاء نصر الله ، أما بقية القرآن فقد نزلت سوره بمكة فى مرحلتى السر والعلن .

ولا ندرى لماذا جعل سورة النحل من السور المدنية مع أنها نزلت فى مكة كما تقول المصاحف التى بين أيدينا ؟ والمتبع لأسباب نزول الآيات القرآنية يرى أن كلا منها قد نزل لسبب قوى كان يحتم نزول الآية بذاتها ، من ذلك مثلا قصة المجادلة خولة بنت ثعلب الخزرجية وزوجها أوس بن الصامت التى نزلت الآيات فيها تقول ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ◦ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفوّ غفور ◦ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسّا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ◦ فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسّا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ المجادلة ١ — ٤

وكان أوس قد حرم زوجته خولة عليه كما حرمت عليه أمه إذ قال لها « أنت علىّ كظهر أمى » . وكان الظهار من أشد طلاق الجاهلية لأنه فى التحريم أوكد ، وفى قطع الصلة أبين . فأسقط فى يد خولة وحارت فى أمرها ، وعز عليها أن تنفصل عن أوس وهو زوجها الحبيب إليها وأبو أولادها ، فذهبت إلى الرسول ﷺ تستنجد به ليجد لها مخرجا .

وانتظر الرسول أن ينزل عليه الوحى بشىء فى أمرها ليقضى لها ولكن الوحى تأخر عليه ، فأخذت خولة تلح وهى تبكى وحار الرسول الكريم ماذا يفعل أو يقول لها وهو لم يتلق وحيا بشأنها ، فقال لها (ما عندى فى أمرك شىء) . فعادت خولة إلى الرسول شاكية متوسلة راجية أن يرحم حالها ، فقتحت لتوسلاتها أبواب السماء وسمع الله شكاتها فغشى الرسول ما كان يغشاه عند نزول الوحى ، ثم نطق لسانه بتلك الآيات الكريمة . وهكذا حلت المشكلة وجعل الله للمسلمين وسيلة يتحللون بها من تلك العادة الجاهلية الذميمة .

الفصل الخامس

محمد عليه الصلاة والسلام : الداعية والإعلامي الأمثل

والداعية الأول والأمثل في الإسلام هو محمد بن عبد الله ﷺ ، الذي اختاره الله وأدبه وأعده الإعداد الصالح اللازم للدعوة .. فكان مثلا في الأمانة والشجاعة والصدق وكريم الأخلاق . ويكفي أن الله سبحانه وتعالى وصفه في القرآن الكريم بقوله ﴿وإنك لعلى خلق عظيم﴾ . لقد كان خلقه القرآن ، والله تعالى يقول ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا﴾ .

ولما كان رسول الله ﷺ قد تخلق بالقرآن ، فإن فعاله كانت تفسيرا له . ولما كان قد انفعل بالقرآن فإن نطقه كان تعبيرا عنه . وعلى المسلمين جميعا خاصة رجال الإعلام والدعاة والمشتغلين بالاتصال الجماهيري في الدول الإسلامية كافة ، أن ينسجوا على منواله وأن يسيروا على نهجه قدر استطاعتهم ، وأن يحاولوا الوصول إلى القمة الشامخة السامقة التي تربع عليها .

وأول ما اشتهر به رسول الله ﷺ هو الصدق والأمانة ، حتى لقد سمي بالصادق الأمين .. وحتى إن أعداءه من المشركين كانوا يشهدون له بالإجماع بهذه الصفات . ويذكر أصحاب الأخبار أن أبا سفيان الذي كان من زعماء الشرك في الوقت الذي جرى فيه حديث بينه وبين « هرقل » ملك الروم عن النبي ﷺ ، وقد سأله عن نسبه الكريم قال « إنه من أوسطنا نسبا » . ولما سأله عن أخلاقه ﷺ قال « لولا أني أخشى أن يحفظ عني كِذبة في العرب لكذبت ، ولكنني أقولها ناصعة إنه الصادق الأمين في القول وفي الفعل » .

ولما اختلفت قريش ووصل الخلاف بهم إلى حد التهديد بسفك الدماء ، حكّموا بينهم أول داخل من باب المسجد . فلما دخل محمد بن عبد الله صاحوا جميعا « هذا هو الصادق الأمين » . وقد استطاع بعقله وحكمته وسداد رأيه أن يفض النزاع .

وكثيرا ما احتكم إليه المتخاصمون من العرب قبل بعثته ﷺ ، وقد روى له « الربيع ابن خيثم » كان يتحاكم له رسول الله في الجاهلية قبل البعث ، وذلك لما عرف به من الصدق والأمانة وحبه للعدل وكونه لا ينطق إلا بالحق . ولقد بلغ من إحساسه ﷺ

بالعدل والأمانة أنه قام فى مرض الموت وقد بلغ به الإعياء أشده وقال (أيها الناس من كنت جلدت له ظهرا فهذا ظهرى فليقتد منه ، ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليقتد منه ، ومن أخذت منه مالا فليأخذه منى ولا يخشى الشحناء فإنها ليست من شأنى . ألا وإن أحبكم لى من أخذ منى حقا إن كان له ، أو حللنى فلقيت ربى وأنا طيب النفس .

ولقد كان عليه الصلاة والسلام ينهى عن الظلم ويحض على **العدل** . وكثيرا ما نبه أصحابه والمسلمين إلى العدل وقال (اتقوا دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب) . وقال (من مشى مع ظالم فقد سعى إلى النار) . وقال أيضا (لا يأخذ الله تعالى العامة بظلم الخاصة إلا إذا رأوا ولم ينكروا) . وقال كذلك (والله لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن على يد الظالم ولتأطرن على الحق أطرا ، أو ليضربن الله قلوب بعضكم ببعض ثم تدعون فلا يستجاب لكم) .

ويقول القاضى عياض فى **فضل عقل الرسول** ﷺ وآثاره فى الدعوة الإسلامية «**إنما وفور عقله وذكاء لبه وقوة حواسه وفصاحة لسانه واعتدال حركاته وحسن شمائله** فلا مرية أنه كان أعقل الناس وأذكاهم ، ومن تأمل تدبيره أمْرَ بواطن الخلق وظواهرهم ، وسياسة العامة والخاصة مع عجيب شمائله وبديع سيره ، فضلا عما أفاضه من العلم وقرره من الشرع دون تعلم سبق ، ولا ممارسة تقدمت ، ولا مطالعة للكتب منه .. لم يمتر فى رجحان عقله وثقوب فهمه لأول بديهة ، وهذا ما لا يحتاج إلى تقريره لتحققه . ولقد قال « وهب بن منبه » قرأت فى أحد وسبعين كتابا فوجدت فى جميعها أن النبى صلى الله تعالى عليه وسلم أرجح الناس عقلا وأفضلهم رأيا . وفى رواية أخرى فوجدت فى جميعها أن الله لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل فى جنب عقله ﷺ إلا كحبة رمل من بين رمال الدنيا » .

أما بلاغته ﷺ وبراعته فى الاتصال بالجماهير ومقدرته على إقناعهم ، فقد كانت مثلا يحتذى فى هذه النواحى أيضا . وقد وصف الجاحظ بلاغته فقال « الكلام الذى قلّ عدد حروفه وكثر عدد معانيه ، وجل عن الصفة ونزه عن التكلف . استعمل المبسوط فى موضع البسط ، والمقصور فى موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن الهجين السوقى ، فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام حف بالعصمة وشد بالتأييد ويسر بالتوفيق . وهذا الكلام الذى ألقى الله تعالى المحبة عليه ، وغشاه بالقبول ، وجمع له بين المهابة والحلاوة وبين حسن الإفهام وقلة عدد الكلام . وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة السامع إلى معاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زلت له

قدم ، ولا بارت له حجة . ولم يبرز له خصم ولا أفحمه خطيب ، بل يبدأ الخطب الطوال بالكلام القصير ، ولا يلتمس إسكات الخصم إلا بما يعرفه الخصم ، ولا يحتج إلا بالصدق ، ولا يطلب الفج إلا بالحق ، ولا يستعين بالخلابة ولا يستعمل المواربة ، ولا يهمز ولا يلمز ، ولا يبطئ ولا يعجل ، ولا يسهب ولا يحصر ، ثم لا يسمع الناس بكلام قط أتم نفعا ، ولا أصدق لفظا ، ولا أعدل وزنا ، ولا أجمل مذهبا ، ولا أكرم مطلبا ، ولا أحسن موقعا ، ولا أسهل مخرجا ، ولا أفصح فى معناه ، ولا أبين عن فحواه من كلامه ﷺ » .

وقالت عائشة رضى الله عنها فى وصف كلامه ﷺ « ما كان رسول الله ﷺ يسرد الكلام كسردكم هذا ، ولكن كان يتكلم بكلام بيّن فصل يحفظه من جلس إليه » .

وما قاله القاضى عياض فى وصف **بلاغة الرسول وفصاحته** ﷺ « وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان ﷺ من ذلك بالمحل الأفضل ، والموضع الذى لا يُجهل سلامة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع ، ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان وقلة تكلف . أوتى جوامع الكلم ، وخص ببدائع الحكم ، وعلم ألسنة العرب فكان يخاطب كل أمة بلسانها ، ويحاورها بلغتها ، ويباريها فى منزع بلاغتها ، حتى كان كثير من أصحابه يسألونه فى موطن عن شرح كلامه وتفسير قوله . ومن تأمل حديثه وسيرته علم ذلك وتحققه ليس مع قريش والأنصار وأهل الحجاز ونجد هدف كلامه مع « وطيفة الهندى » و « قطن بن حارثة العليمى » و « الأشعث بن قيس » و « وائل بن حجر الكندى » ، وغيرهم من أمثال « حِمْير وملوك اليمن » .

ومن الذين وصفوه وصفا دقيقا صادقا « أم معبد » فقد قالت تُحدث زوجها عنه « مر بنا رجل مبارك ، ما مسح ضرع الشاة الجاف بيده حتى تفاجت ودرت وأشترت ، فأتيت له بالإناء فحلب فيه فجّه حتى غلبه الثمال ، وقد شربت حتى رويت. فسقى صاحبيه حتى رويا وشرب هو آخرهم » . وقالت فى وصف النبى « هو رجل ظاهر الوضاءة ، متبَلج الوجه ، حسن الخلق ، وسيم قسيم ، فى عينيه دعج ، وفى صوته صحل ، ليس بالطويل الممغط ولا بالقصير المتردد ولا بالجعد القطط ولا السبط . شديد سواد الشعر ، فى عنقه سطع وفى لحيته كثافة . إذا مشى تقلع كأنما يمشى فى صبب ، وإذا صمت فعليه الوقار ، وإذا تكلم سما وعلاه البهاء . حلو المنطق فصل لا نذر ولا هذر ، غصن بين غصنين » ... الخ .

وإذا كانت نظريات الإعلام الحديثة تؤكد على ضرورة وجود **الثقة كاملة** بين المصدر والمتلقى بل إن النتائج التى وصل إليها الباحثون أخيرا فى جامعة ييل Yale

تشير إلى أن أهم مكونات تصديق المصدر تتلخص فى ثلاثة أشياء هى : النية والخبرة والثقة .. فإن هذه الصفات كانت من أسس الدعوة المحمدية قبل هذا بأربعة عشر قرنا من الزمان . فقد كان ﷺ على خلق عظيم حبب الناس فيه وجعلهم يثقون به ثقة كاملة .

وقد قال عن نفسه (إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق) . وقد وجهه الله سبحانه وتعالى إلى أسلوب الدعوة القائمة على الخلق العظيم فى قرآنه الحكيم ﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين ﴾ .

ولقد أحب الناس محمد بن عبد الله وتآلفوا معه ، وأقبلوا على دعوته لما اتصف به من حلم وصبر وصفح وعفو عند المقدرة ، وليس أدل على ذلك من قصته مع « غورث بن الحارث » حينما تصدى ليفتك برسول الله وهو نائم فى ظل شجرة وقت القيلولة ، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف مصلت على رأسه فى يد « غورث » وهو يقول « من يمنعك منى ؟ » . فقال عليه السلام بهدوء وإيمان ولسان صادق (الله !) فسقط السيف من يد « غورث » ، فأخذه النبى ﷺ وقال « لغورث » (من يمنعك منى ؟) . قال غورث « كن خير آخذ » . فتركه وعفا عنه . فدنا قلب الرجل بعد نفور ، وصار داعية لمحمد ﷺ بعد أن كان يريد قتله . وقد ذهب الرجل إلى قومه يحببهم فى محمد ﷺ ودينه ، فقال لهم « جئتكم من عند خير الناس » . وهكذا حول عفو رسول الله « غورث » من الشر إلى الخير ، وجعله من خيرة الدعاة لمحمد ودينه بعد أن كان يريد قتله والقضاء على دينه .

ولقد كان العفو من الصفات التى جمعت القلوب على حب رسول الله ﷺ ، وألفت بين النفوس وجعلت الناس يحبونه إلى درجة جعلتهم على استعداد لفدائه بأرواحهم . ولم يخرج على هذا الإجماع إلا من ركب الشيطان رأسه فطغى وبغى واستكبر ، وآثر الضلال على الهدى .

يقول هند بن هالة ربيب رسول الله ﷺ فى وصفه « وإن من أول صفات محمد بن عبد الله ﷺ أنه يخزن لسانه فلا يظهره إلا لخير يرتجيه .. فلا يشجع على نفرة ، بل إنه لا ينطق إلا فيما يعنى الذين يخاطبهم ويفيدهم ويكون فيه تأليف لقلوبهم ، وتقريب لنفوسهم ، وتأنيس غريبهم ، ويأمر بإعطاء ذى الحق ، ولا يتكلم فى مراء ، ولا يذم أحدا ولا يكثر فى قول خشية سقط اللسان . لا يعيب الحرمات ، ولا يقطع على أحد حديثه حتى يشبع نهمة القول ، فإذا تكلم هو كان كلامه فصلا ، وكان قوله حكما » .

ومن أخلاق الرسول عليه الصلاة والسلام التى كان لها أثرها الكبير فى الدعوة الإسلامية ، أنه كان يأتلف مع أصحابه ، ويوزع محبته بينهم . وكان متواضعا ، فإذا دخل على جماعة يجلس حيث ينتهى المجلس ، وقد حث أصحابه على ذلك . وإن أرشد ففى رفق يكتفى معه بالإشارة ، فإن لم يكف كان التعريض ، فإن لم يكف كان التنبيه فى تعميم . فإذا رأى بعض الناس يسىء فلا يواجهه بالإساءة ، بل يقول ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ؟ ومن ذلك ما قاله يوم خرج على الناس بعد قصة الإفك فقال (أيها الناس .. ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غير الحق . والله ما علمت منهم إلا خيرا ، وقد ذكروا رجلا ما علمت منه إلا خيرا وما يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى) .

ولم يكن ﷺ يذم أحدا مهما كان السبب ، بل إنه قد امتنع طول حياته عن الذم إلا أن يضطره الحق اضطرارا فإنه يتكلم بالكناية .

روى عروة بن الزبير عن خالته أم المؤمنين عائشة أنها قالت فى أخلاق محمد ﷺ « ما ضرب رسول الله ﷺ بيده خادما قط ولا امرأة ، ولا ضرب بيده شيئا إلا أن يجاهد فى سبيل الله . وما خيّر بين شيئين إلا كان أحبهما إليه أيسرهما إلا أن يكون إثما ، ولا انتقم لنفسه من شىء يؤتى إليه حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله عز وجل » .

وقد وصفه أبو هريرة رضى الله عنه فقال « كان يقبل جميعا ويدبر جميعا — بأبى وأمى — لم يكن فاحشا ولا متفحشا ولا صخابا فى الأسواق » .

ومن هذا الوصف يتضح لنا أنه ﷺ كان يحسن استقبال الناس فيقبل على الواحد منهم إقبالا كاملا ، وإذا تركه فإنه لا يتركه إلا بعد أن يتم حديثه وينتهى راضيا مستريح النفس . وأنه ﷺ لم يكن ينطق فحشا أو يستعمل ألفاظا نابية ، أو يصخب أو يغاضب أو يمازح أو يجادل فى الأسواق والأماكن العامة .

وروى أبو أمامة رضى الله عنه قال « خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئا على عصا فقمنا له ، فقال (لا تقوموا كما يقوم الأعاجم يعظم بعضهم بعضا) . وقال (إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد ، وأجلس كما يجلس العبد) .

وفى حديث لعمر رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال (لا تطرونى كما أطرت النصارى ابن مريم .. إنما أنا عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله) . وقال ﷺ (إنما أنا ابن امرأة من قريش تأكل القديد) .

وقد أجمع الرواة على أنه ﷺ كان متواضعا فى غير ذلة ، وكانت له هيبة ترهب الكفار والمشركين وتملأ قلوبهم رعبا وهلعا .. وهى للمؤمنين رحمة تزيدهم إيمانا به وحبا له .

ومما يرويه ابن إسحق أن رجلا من أراش قدم إلى مكة بإبل له ، فاشتراها منه أبو الحكم عمرو بن هشام « أبو جهل » ثم ماطله فى الدفع . فأقبل الأراشى حتى وقف بدار الندوة ورسول الله ﷺ بناحية من المسجد جالس ، فقال الأراشى « يا معشر قريش من رجل يؤدينى على أبى الحكم ، فإنى رجل غريب ابن سبيل وقد غلبنى على حقى ؟ » فقال له أهل ذلك المجلس « أترى ذلك الرجل الجالس ؟ » وأشاروا إلى رسول الله وهم يهزءون به لما يعلمون بينه وبين أبى جهل من العداوة « اذهب إليه فإنه يؤديك عليه » . فأقبل الأراشى على رسول الله وروى له القصة ، فقام معه رسول الله ﷺ . فلما رأوه قام معه قالوا الرجل ممن معهم « اتبعه فانظر ماذا يصنع » . وخرج رسول الله حتى جاء بيت عمرو ابن هشام فضرب عليه بابه ، فقال عمرو بن هشام « من هذا ؟ » قال الرسول (محمد .. فاخرج إلىّ) . فخرج إليه وما فى وجهه من رائحة قد انتقع لونه . فقال له الرسول (أعط هذا الرجل حقه) . قال عمرو « نعم .. لا تبرح حتى أعطيه الذى له » . فدخل وعاد بحق الرجل فدفعه إليه ، ثم انصرف رسول الله وقال للأراشى (الحق بشأنك) . فأقبل الأراشى حتى وقف على الندوة وقال « جزاه الله خيرا فقد والله أخذ لى حقى » . وجاء من بعده الرجل الذى بعثوا به معه فسألوه عما رأى فقال « عجبا من العجب .. والله ما هو إلا أن ضرب عليه بابه فخرج إليه وما معه روحه » . وروى لهم ما حدث ، ثم لم يلبث أن جاء عمرو بن هشام فقالوا له « ويلك .. مالك ؟ واللات ما رأينا مثل ما صنعت قط » قال « ويحكم ! واللات ما هو إلا أن ضرب على بابى وسمعت صوته فملئت رعبا، ثم خرجت إليه وإن فوق رأسه لفحلا من الإبل ما رأيت مثل هامته ولا قصارته ولا أنيابه لفحل قط .. واللات لو أبيت لأكلنى » .

وتروى لأبى جهل قصة مماثلة ، فقد حاول يوما أن يضرب رسول الله بحجر ضخم أعده لذلك عندما يسجد للصلاة ، ولكنه ما كاد أن يرفع الحجر ويهم بإلقائه فوق رأس رسول الله ﷺ حتى انتابه الفزع وألقى بالحجر بعيدا، ثم أسرع إلى أصحابه وهو يرتعد . فسألوه ما به فروى لهم القصة وقال « وما إن هممت بإلقاء الحجر حتى وجدت بينى وبين محمد فحلا بشع الصورة مكشرا عن أنيابه يريد أن يلتهمنى ، فنجوت بنفسى » .

ومن الأمور التى تؤكد ما كان لرسول الله ﷺ من هيبة ومهابة بين أصحابه ووصف الواصفين لمجلسه ، فقد أجمعوا على عظيم مهابته وشدة وقاره وسمته وقالوا « إن مجلسه كان يحفه الوقار ، لا يتكلم فيه أحد إلا إذا أذن له الرسول فى القول ، وإذا صمت عليه السلام صمتوا جميعا فى هدوء واطمئنان » .

ولهذا عجب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أشد العجب عندما دخل يوما إلى رسول الله فوجد بعض النسوة يتسابقن فى سؤاله ويتصايحن عليه. وما كدن يرين عمرا حتى سكتن جميعا. فابتسم رسول الله ﷺ حتى بدت سنه، فقال عمر «أضحك الله سنك يا رسول الله.. ما الذى أضحكك؟» فقال عليه الصلاة والسلام (هؤلاء النسوة كن يتصايحن علىّ، فلما رأينك سكتن). فقال عمر «أى عدوات أنفسهن، أتهبنني ولا تهبن رسول الله؟». فقالت إحداهن «ولكنك أفظ وأغلظ». فأسكتها الرسول وقال نافيا الغلظة عن صاحبه (لا.. إن الشيطان لا يسير فى فج يسير فيه عمر).

ويروى عمرو بن العاص أن النبى ﷺ كان يطوف بالبيت والملأ من قريش جالسون فى فنائه، فكلما مر النبى ﷺ غمزوا بالقول فيبدو ذلك فى وجهه. وكرروا ذلك سبعا حتى أتم الطواف، ثم التفت إليهم وقال لهم فى قوة المؤمن وهيبته (يا معشر قريش شاهت الوجوه! وأرغم الله هذه المعاطس! لقد جئتكم بالذبح). أو كما قال عليه الصلاة والسلام. فما كان منهم أحد إلا كان يقابله بأحسن القول ويقول «اذهب أبا القاسم موفورا، ما علمنا عليك شرا قط».

وروى أبو هريرة رضى الله عنه قال «دخلت السوق مع النبى ﷺ فاشترى سراويل، وقال للوزان (زن وأرجح). فوثب التاجر إلى يد النبى يقبلها، فجذب يده وقال (هذا ما يفعله الأعاجم بملوكهم ولست بملك، إنما أنا رجل منكم). ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها، فقال ﷺ (صاحب الشىء أحق بشيئه أن يحمله).

هكذا كان رسول الله من حيث **التواضع والوقار والهيبة** وهو على نفس الدرجة من **الرحمة والشفقة والرأفة**.. وقد وصفه الله سبحانه وتعالى فى كتابه العزيز بقوله ﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم﴾ وقال جل شأنه ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

سأله أصحابه يوما قائلين ﴿يا رسول الله، أكثرت من ذكر الرحمة.. ونحن نرحم أزواجنا وذريتنا». فقال ﷺ (ما هذا أريد.. إنما أريد الرحمة بالكافة).

ومما يروى عن رحمته عليه السلام أن أعرابيا جاءه يطلب منه شيئا، فأعطاه ثم قال له (أأحسنت إليك؟). قال الأعرابى «ولا أجملت». فغضب الحاضرون من المسلمين وقاموا إلى الرجل. فأشار الرسول لهم أن كفوا.. ثم قام عليه الصلاة والسلام ودخل منزله ثم أرسل إلى الأعرابى وزاد شيئا، ثم قال (أأحسنت إليك؟) قال «نعم.. فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيرا». فقال عليه الصلاة والسلام (إنك قلت ما قلت وفى نفس أصحابى من ذلك شىء. فإن أحببت فقل ما قلت بين يدى حتى يذهب ما فى

صدورهم عليك) . قال « نعم » . فلما كان العشى جاء فقال ﷺ لأصحابه (إن هذا الأعرابى قال ما قال فزدناه ، فزعم أنه رضى بذلك) . قال الأعرابى « نعم فجزاك الله تعالى من أهل وعشيرة خيرا ﴾ . فقال النبى ﷺ (مثلى ومثل هذا مثل رجل له ناقة شردت عليه فأتبعها الناس فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحبها : خلّوا بينى وبين ناقتى فإنى أرفق بها منكم وأعلم . فتوجه لها بين يديها فأخذها من قمام الأرض فردها حتى جاءت إليه واستناخت ، وشد عليها رحلها واستوى عليها . وإنى لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار) .

هذه صورة من صور الرحمة عند رسول الله ﷺ ، وهى تبين لنا كيف كان رحيما مع المسلمين رءوفا بهم حريصا على صالحهم ، وكيف كان قدوة لهم وأسوة حسنة كما قال الله سبحانه وتعالى ﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ .

وهناك صور أخرى كثيرة تبين كيف أن الرحمة عند رسول الله ﷺ **تنبئ عن حكمة الدعوة والإرشاد** والهداية إلى الحق .. تقرب الشارد وتصلحه ولا تعاقبه أو تنفره . وتسوس النفاس وتحولها من الباطل إلى الحق وتضعها على الجادة بدون عنف أو عقاب أو قسوة . وفى ذلك **كمال التبليغ للدعوة الإسلامية وبيان للإعلاميين والدعاة يشرح لهم كيف أن الرحمة وسيلة الوصول إلى النفوس والاستئثار بالقلوب وإقناع العقول .**

وتتجلى الرحمة فى أرق صورها وألطف مشاهدها بين الرسول وأهل بيته .. بينه وبين أولاده وأحفاده . فقد كان يسمع بكاء الطفل وهو يصلى فيخفف فى صلاته ليكون بجوار الطفل من يرحم بكاءه . وقد روت لنا الكتب أن أحد السبطين كان يركب على ظهره وهو ساجد ، فكان عليه السلام يطيل السجود حتى لا يزعجه . ويستمر الطفل مرتحلا ظهر جده الرءوف الرحيم حتى يتركه .

وعندما أرسلت إليه ابنته زينب الكبرى لتقول إن ولدها يحتضر ، أرسل إليها عليه الصلاة والسلام يقول (إن لله ما أخذ وما أعطى ، وكل شىء عنده مسمى فلتحتسب لتعتبر) . فأصرت زينب على أن يحضر وأقسمت عليه . فقام ﷺ ومعه من بحضرته من الصحابة ، فلما رأى الطفل حمله ثم وضعه فى حجره ونفس الطفل يخرج ، ففاضت عيناه عليه الصلاة والسلام . فقال له سعد بن أبى وقاص « ما هذا يارسول الله ؟ » قال (هذه رحمة وضعها الله فى قلوب من شاء من عباده ، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء) .

وكما كان ﷺ رحيما بالأبناء كان رحيما بالآباء كذلك . والعلاقة بين الآباء والأبناء فى الرسالة المحمدية تأخذ وضعا ساميا رفيعا .. وقد بلغ من تقدير القرآن لقوة هذه

العلاقة أن قال تعالى ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه و بالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهم أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ه واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا ﴾ الإسراء ٢٣ ، ٢٤ .

ولم يسمح الإسلام للابن بأن يعق أبويه حتى ولو كانا مشركين ، ولكنه أباح للابن ألا يطيع أبويه فى الشرك دون أن يهدر حقهما عليه ، وأن يصاحبهما فى الدنيا معروفا .

﴿ ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلىّ المصير ه وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا ﴾ لقمان ١٤ ، ١٥ .

وقد قدم الرسول ﷺ برّ الوالدين على الجهاد فى سبيل الله . جاء إليه رجل فقال « جئت أبايعك على الهجرة وتركت أبوى يبكيان » . فقال ﷺ (ارجع إليهما فأضحكهما كما أبكيتهما) .

وجاءه صحابى يسأل الإذن فى الجهاد ، فسأله الرسول (ألك أبوان ؟) . قال « نعم » . قال (ففيهما فجاهد) . وحدث الصحابى « معاوية بن جاهمة السلمى » قال « أتيت رسول الله ﷺ فقلت « يا رسول الله إنى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة » . قال (ويحك أحيَّة أمك ؟) . قلت « نعم » . قال (ارجع فبرها) . ثم أتيته من الجانب الآخر فقلت « يا رسول الله .. إنى كنت أردت الجهاد معك أبتغى وجه الله والدار الآخرة » . قال (ويحك أحيَّة أمك ؟) . قلت « نعم يا رسول الله . قال (فارجع إليها فبرها) . ثم أتيت من أمامه وأعدت ما قلت .. فقال (ويحك الزم رجلها فثم الجنة) .

وعن أبى أمامة أن رجلا قال « يا رسول الله ما حق الوالدين على ولدهما ؟ » . قال (هما جنتك ونارك) .

وإذا كنا فيما تقدم قد تحدثنا عن **الرحمة وصلة الرحم وعن الصلة بينهما وبين مفهوم الاتصال**، فإن الإعلام الإسلامى يحرص على أن تكون الرحمة بجميع أشكالها وصورها إحدى وسائله وأساليبه فى الاتصال بالجماهير . وكذلك **العفو والتسامح** وهما صفتان من صفات رسول الله ﷺ : وقد أمره الله سبحانه وتعالى بهما فى قوله الكريم ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ . وفى قوله أيضا ﴿ ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ﴾ .

قال « أنس بن مالك » : كنت أمشى مع النبى ﷺ وعليه برد غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجبذ بردائه جبذا شديدا حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله فإذا

قد أثرت فيها حاشية البرد من شدة جبذته . ثم قال الأعرابى « يا محمد مر لى من مال الله تعالى الذى عندك » . فالتفت إليه رسول الله ﷺ وضحك ، ثم أمر له بعطاء .

ولو كان أحد رجالات قريش فى مكان رسول الله وقام هذا الأعرابى بهذا العمل معه لضربه فشدخه أو قتله ، ولكن سماحة الرسول الكريم أبت عليه أن يفعل ذلك فالتفت إليه وضحك وكأن شيئا لم يحدث . بل القارئ لهذه القصة قد يرى أن الرسول قد ضحك لكى يخفف من وقع هذا التصرف الغليظ على صاحبه وعلى من يشهدون الواقعة .

وروى أنه لما كذبت قريش دعوة الإسلام وبالغت فى الإساءة إلى النبى وإيذائه ، حتى إنه لجأ إلى ثقيف بالطائف يرجو أن يجد النصرة عندهم . فما كان منهم إلا أن أغروا سفهاءهم به فطاردوه وضربوه بالحجارة . فاشتكى إلى الله سبحانه وتعالى ما يجد منهم وقال (اللهم إليك أشكو ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس . يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى . إلى من تكلنى أإلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى ؟ إن لم يكن بك غضب علىّ فلا أبالى ، ولكن عافيتك أوسع لى . أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة من أن ينزل بى غضبك أو يحل على سخطك . لك العتبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك) . فأتاه جبريل عليه السلام فقال له « إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك ، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم » . فناداه ملك الجبال وقال « مرنى بما شئت .. إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين » . قال النبى ونفسه تقطر رحمة وسماحة (اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون) .

وعن السماحة والعفو عند رسول الله ﷺ تحدثنا القصة التالية وقد وقعت يوم الفتح الأبلج — فتح مكة — فقد طلب الرسول الكريم عثمان بن طلحة بن أبى طلحة وأعطاه مفتاح الكعبة وهو يقول (خذوها يا بنى أبى طلحة تالدة خالدة لا ينزعها منكم إلا ظالم . يا عثمان ، إن الله سبحانه وتعالى استأمنكم على بيته فخذوها بأمانة الله عز وجل) . وابتسم الرسول الكريم لعثمان ابتسامة ذات معنى ، فأطرق عثمان فى خجل وكان لذلك قصة . فقد كان الرسول ﷺ قد قال لعثمان يوما وهو يدعوه للإسلام (لعلك سترى هذا المفتاح يوما بيدى أضعه حيث شئت) . فقال له عثمان يومها « قد هلكت قريش وذلت » . فأجابه الرسول الكريم عليه أزكى الصلاة والسلام (بل عزت وعمرت يومئذ يا عثمان) .

هكذا عفا رسول الله عن عثمان وسامحه فى لحظة كان فيها هو المنتصر الذى بيده أن يمنع ويمنح ، وكان فيها يستطيع أن يفعل بعثمان ما يشاء . ولكنه رسول الله ونبيه الكريم الذى جُبِل على مكارم الأخلاق .

وفى نفس اليوم — يوم الفتح — بعد الخطبة ، التفت رسول الله ﷺ إلى الذين عادوه وحاربوه بكل وحشية وشراسة وبذلوا كل ما فى طاقتهم لكى يقضوا عليه وعلى دعوته ، وقال لهم (ما ترون أنى فاعل بكم ؟) . قالوا وهم يرتعدون « خيرا .. أخ كريم وابن أخ كريم » . فقال ﷺ (اذهبوا فأنتم الطلقاء) . فذهل القوم وتسابقوا إلى الدخول فى الإسلام ، وباتت مكة ليلتها وقد رفرف عليها الإيمان .

نستخلص من هذه القصص التى تؤكد ما كان عليه رسول الله من عفو وسماحة ، أن الداعية الإسلامى يجب أن يطهر نفسه من كل حقد وغل حتى ولو كان لمقابلة إساءة قديمة بمثلها ، أو الانتقام لموقف سبق أن تعرض له على يد أحد الذين يدعوهم .
وأن يطهر نفسه أيضا من الأنانية والأثرة ، ولن يكون له ذلك إلا بالإيثار والفناء فى دعوته . ولقد قالت عائشة رضى الله عنها فى هذا المعنى « إن النبى ﷺ لا يجزى بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويصفح » .

ومن الصفات التى زانها رسول الله ﷺ صفة الحياء . وقد قال أبو سعيد الخدرى رضى الله عنه « كان رسول الله ﷺ أشد حياء من العذراء فى خدرها » . وقال القاضى عياض فى كتابه الشفاء « كان النبى ﷺ أشد الناس حياء ، وأكثرهم عن العورات إغضاء » .

وقد تمثل القاضى عياض بقول الله سبحانه وتعالى ﴿ وإن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم ﴾ . وقد نزلت هذه الآية لأن بعض أصحابه كانوا يستغلون كرمه الشديد وحياءه الشديد أيضا ، فكانوا يجلسون فى بيته فيتناولون الطعام ويأخذون فى الحديث مما يؤدى إلى إضطراب فى بيته وإقلاق لراحة أهله . ولم يكن النبى لفرط حيائه يأمرهم بالكف عن ذلك أو يطلب إليهم الخروج ، فتولى الله تعالى ذلك عنه وعلّم المؤمنين الأدب فى هذا المقام ، وأعفى رسوله من هذه المهمة التى تجعله يخرج عن طبيعته فى الحياة ، فقال تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه ولكن إذا دعيتم فادخلوا فإذا طعمتم فانتشروا ولا مستأنسين لحديث إن ذلكم كان يؤذى النبى فيستحى منكم والله لا يستحى من الحق ﴾ الأحزاب ٥٣ .

جاء فى كتاب الشيخ محمد أبو زهرة سؤال حول **صلة الحياء والشمائل النبوية بدعوة الرسول ﷺ وتبليغ الرسالة ، وهو سؤال يرتبط بالإعلام الإسلامى بوجه عام .**
يقول « إن خلق الداعى يجذب إلى موضوع الدعوة ، فلو كان الداعى فحّاشا ، أو صخابا ، أو يغلب عليه أن يلومَ وتقرعَ عباراتُهُ ، لَنَفَرَ منه الناس وما استجاب له إلا أهل الحق الصرف الذين لا يهمهم لون الدعوة بمقدار ما يهمهم لبها » .

وإذا كان الخلق الطيب يجذب النفوس ويوجهها نحو الحق، فإن الحياء أشد الأخلاق اجتذابا للنفوس، فإن الحياء يجعل صاحبه لا يفجأ الناس بما لا يسرهم بل يجيء إليهم من جانب ما يألفون فلا تنشعب عن الحق. وإن عنف الداعى وتفحش قوله يعوق دعوته ويكون استثقاله مؤديا إلى رده، وإذا كان مع الحياء لين فى الطبع من غير ضعف، وقوة فى الحق، وصل إليه فى مداخل سهلة لينة. ولقد قال فى وصفه على بن أبى طالب « كان أوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة ». ولقد كان لالتقاء الخلق الحسن اللطيف المعشر مع الحياء والاستمساك بالحق مزيجا من أخلاق كريمة جعله لا يترك التنبيه إلى الحق فى رفق، وجعله يصل إلى ما يريد من إيغاله فى القلوب.

وقد ذكر ابن عباس صفات رسول الله ﷺ فقال « كان أجود الناس بالخير، وأجود ما يكون فى شهر رمضان. وكان إذا لقيه جبريل أجود بالخير من الريح المرسلة ».

ولقد قالت له خديجة رضى الله عنها « أبشر يا بن العم واثبت، فوالذى نفس خديجة بيده إنى لأرجو أن تكون نبيَّ هذه الأمة. ووالله لا يخزيك الله أبدا.. إنك لتصل الرحم، وتصدق الحديث، وتحمل الكَلّ، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق ».

وقد عرف عن النبى ﷺ أنه ما كان يرد أحدا، وأنه كان يجود بالموجود كله. وقد ذكر أن رجلا جاءه يسأله حاجة، فقال (ما عندى شيء، ولكن اتبع علىّ فإذا جاءنا شيء قضيناه).

ولقد قال عمر رضى الله عنه وقد رأى الرسول الكريم يتحمل ثمن البيعات ليؤديه إذا لم يكن معه، فقال له « ما كلفك الله تعالى ما لا تقدر عليه ». فكره عليه الصلاة والسلام من صاحبه ذلك لأنه لا يريد أن يحول أحد بينه وبين سجيته التى فطره الله عليها. وقد لاحظ أنصارى كان فى حضرة الرسول وصاحبه فقال « يا رسول الله أنفق ولا تخش من ذى العرش إقلالا ». فتبسم رسول الله ﷺ بعد إذ كره وعرف البشر فى وجهه، وقال (بهذا أمرت).

والمعروف أنه كان يأمر بلالا قائلا (أنفق بلال ولا تخش من ذى العرش إقلالا).

ويقول عليه الصلاة والسلام (ما من يوم يصبح إلا وملكان يقول أحدهما اللهم أعط منفقا خلفا، ويقول الآخر اللهم أعط ممسكا تلفا).

والمطلع على السيرة النبوية يجد أن من شمائل الرسول ﷺ **الوفاء بالعهد ورعايته**، وأوضح مثل على ذلك وفاؤه بأم المؤمنين خديجة إلى درجة جعلت عائشة رضى الله عنها تغار من كثرة ذكره لها وبره لمن كان على صلة بها، فقالت « هل كانت إلا عجوزا بدلك

الله خيرا منها » . فقال (والله ما أبدلني خيرا منها . آمنت بى إذ كفر الناس ، وصدقتنى إذ كذبنى الناس ، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس ، ورزقنى منها الولد دون غيرها من النساء) .

ومن ذلك بره بحليمة السعدية وأولادها ، وبره بأم أيمن التى كان يقول عنها (هى أمى بعد أمى) .

ولما كانت **الشجاعة إحدى الصفات التى يتحتم وجودها فى الداعية بصفة خاصة ، ورجل الإعلام بصفة عامة** ، فإنها كانت فى أعظم صورها إحدى صفات الرسول ﷺ . ولم تكن شجاعة حسية فحسب وإنما اجتمعت عنده ﷺ **الشجاعة الحسية مقترنة بالشجاعة المعنوية** ، وسلامة التصرف وسداد الرأى والإقدام حيث يتحتم الإقدام والمبادرة حيث تكون إحدى الضرورات التى يفرضها الموقف .

وليس أدل على ذلك من تصرفاته قبل البعث حيث كان لا يحفل بأصنام القوم ولا يسجد لها ولا يعترف بها ، وهو يعلم خطر ذلك عليه وأنهم جميعا يفرضون احترامها وتبجيلها . ولم يكن ﷺ يحلف بها . ويروى أنه فى إحدى رحلاته اختلف مع البائع على الثمن ، فطلب منه البائع أن يحلف باللات والعزى فرفض .

وعندما اشتد الخلاف بين القبائل القرشية ، وأصرت كل واحدة منها أن تستأثر بشرف وضع الحجر الأسود إلى مكانه من جسد الكعبة ، واشتعلت الخصومة وتطاير الشرر ينذر باقتراب حرب طاحنة تأكل الأخضر واليابس ، وبقيت قريش أربع ليال والخطر يتهددها ، وراح الكل يستعد ويعد العدة للقضاء على الآخر ، وحاول العقلاء والكبار من رجالات قريش أن يحسموا الأمر قائلين « إن رفع الحجر لم يكن ضمن الاقتراع عند البناء ، وأنه يمكن الاقتراع عليه من جديد » . ولكن محاولتهم كلها راحت عبثا إذ استمر الخلاف واستحكم وبلغ أشده ، وجاءت بنو عبد الدار بجفنة مليئة بالدماء وصاح كبيرهم « يا عبد الدار هذه جفنتنا قد امتلأت بالدماء ، فتعالوا واغمسوا أيديكم فيها ولنتعاقد على الموت إن فاتنا شرف وضع الحجر الأسود مكانه » . وجاء بنو عبد مناف وقالوا « لن يفوتنا هذا الشرف . الموت لنا إن فاتنا » . وصاح بنو أسد « ونحن بنو أسد ومعنا بنو عدى نعلن أن هذا الشرف لن يستأثر به غيرنا إلا بعد أن نكون قد أصبحنا طعاما تهضمه بطون الوحوش فى الجبال » .

وهنا تقدم منهم أبو حذيفة المخزومى وقال « كفى يا معشر قريش . لقد أردنا البر ولم نرد الشر ! فلا تحاسدوا ولا تنافسوا فإن فعلتم تشتتت أموركم وطمع فيكم غيركم . حكّموا بينكم أول من يدخل من هذا الباب يفصل فى خلافكم . فوافقت القبائل كلها

على ذلك وتعلقت أعينهم بالباب الذى أشار إليه أبو حذيفة، تترقب الداخل المجهول للحكم بينهم ويفض خلافهم. وإنهم لكذلك إذ يدخل محمد بن عبد الله عليه الصلاة والسلام، فهتفوا جميعا « هذا الأمين.. هذا محمد بن عبد الله الهاشمى. قد رضينا بحكمه». وأقبلوا جميعا عليه وشرحوا له ما كان من أمرهم، فطلب ثوبا ثم وضع الحجر بيده الكريمة فيه، وقال ﷺ (ليأت من كل ربع من أرباع قريش رجل). فكان فى ربع عبد مناف عتبة بن ربيعة، وفى الربع الثانى أبو زمعة بن الأسود، وفى الربع الثالث العاص ابن وائل، وفى الربع الرابع أبو حذيفة المخزومى نفسه. ثم قال ﷺ (ليأخذ كل رجل منكم بزاوية من زوايا الثوب ثم ارفعوه جميعا). ثم ارتقى ﷺ على الجدر ورفع القوم له الركن، حتى إذا بلغوا موضعه وضعه بيده الكريمة فى مكانه. وهكذا حلت المشكلة العويصة وحقنت دماء قريش.

قبل رسول الله ﷺ الحكم فى هذا الخلاف المستحكم المشتعل بشجاعة، ولم يجفل أو يتردد مع علمه أن هذه القبائل قد جبلت على المشاكسة وحب السيطرة والاستئثار، وأن إرضاءهم جميعا أمر من الأمور التى تكاد تكون مستحيلة. ولكنه أقدم وحكم بشجاعة، فكان أن وفقه الله وجعلهم جميعا يرضون عن حكمه.

وبعد أن بعثه الله تعالى بدعوة التوحيد تجلت شجاعته فى المجالين — المعنوى والحسى — فى معارك الرأى ومعارك السيف.

عن على رضى الله عنه قال(١) « لقد رأيت يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ﷺ وهو أقربنا إلى العدو، وكان من أشد الناس يومئذ بأسا ».

وعنه أيضا أنه قال « كنا إذا حمى البأس واحمرت الحدق اتقينا برسول الله ﷺ، فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه(٢) ».

وعن سعد بن عياض الشمالى قال « كان رسول الله ﷺ قليل الكلام قليل الحديث، فلما أمر بالقتال تشمّر وكان من أشد الناس بأسا ».

وحينما بلغ الخامسة عشرة من عمره ثارت حرب اشتركت فيها قريش وهى حرب الفجار، فإذا هو يصحب الجيش المحارب ويقف على خط القتال ويخوض أول معركة من المعارك الحربية، وكانوا قد حددوا له دوره فى المعركة وهو أن ينبل على أعمامه — أى يمدهم بالنبال — ولكن ما إن بدأت المعركة وحمى وطيسها حتى جاوز هذه المهمة وأخذ يرمى بالسهام والنبل.

---

(١)،(٢) الحافظ أبى محمد عبد الله الأصبهانى المتوفى سنة ٣٦٩ هـ كتاب أخلاق النبى ﷺ وآدابه (مخطوط)، حققه (حسن محمد مرسى)، وراجعه (محمد عبد الرحمن عثمان)، القاهرة، مؤسسة الأهرام ١٤٠١ هـ.

لقد غلبته شجاعته ودفعته إلى أن يكون مقاتلا على الرغم من عوده الأخضر وسنه الصغيرة .

وهو الذى حدث فيما بعد بقوله (ليس من اللهو محمود إلا ثلاثة : تأديب الرجل فرسه ، وملاعبته أهله ، ورميه بقوسه ونبله ، فإنهن من الحق .. ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة فإنها نعمة تركها) .

وليس من شك فى أن هذه الأمثلة — وغيرها كثير — للشجاعة النادرة تتيح لصاحبها أن يبلغ الدعوة وأن يؤدى الرسالة غير هياب ولا وجل ولا متردد .

وقد فرض الجهاد فى الإسلام بهدف تبليغ الدعوة ، وكان ذلك بعد أن حاول الرسول بالحكمة والموعظة الحسنة ، وبعد أن جادلهم بالتى هى أحسن ولم يبق إلا أن يستعمل السيف .

يقول الدكتور إبراهيم إمام « الأصل فى الجهاد أنه يمهد الطريق لحرية الإعلام الإسلامى ، ويتيح الفرصة أمام رجاله كى يبلغوا الرسالة ويؤدوا الأمانة ، لأنه » بعث رحمة للعالمين فى وقت كان العالم فيه يئن تحت نير الظلم والتعسف والطغيان . وكانت الديانات السائدة آنذاك تفرض الطاعة المطلقة لكل طاغية ، غير أن تبليغ الرسالة والإعلام بالدين الحق أسمى واجبات المسلمين مهما كانت العقبات التى تكتنف الطريق ، ومهما كانت الصعوبات التى تواجه المؤمنين . وقد وعد الله سبحانه وتعالى رسوله الكريم بأنه يعصمه من الناس فى سبيل الدعوة إلى الحق ﴿ يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدى القوم الكافرين ﴾ المائدة ٦٧ .

وقد نشط الطغاة والأباطرة للقضاء على دعوة الإسلام ورسوله ، فأرسل كسرى من يقتل النبى ﷺ قتل العديد من المؤمنين . وقد حاول بعض اليهود أن يقتلوا الرسول وأصحابه وحاولوا أن يفتنوه وأن يسحروه ، ولكنهم فشلوا فى ذلك فشلا ذريعا .

ولقد كان الجهاد فى وقت من الأوقات هو الوسيلة الوحيدة لتعبيد الطريق وتمهيده أمام الإعلام الإسلامى ، وتهيئة المناخ اللازم لإبلاغ العباد كلمة الله العليا ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإذا انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين ﴾ .

فالمسلمون يجاهدون بالسيف لرفع كلمة الله ، ويقاتلون لإزاحة العقبات عن طريق الدعوة إلى سبيله . وهم يؤمنون بأن حرية الإعلام هى القاعدة الأساسية التى يختار على هديها الإنسان دين الحق . فليس القتال لإزهاق الأرواح وإنما رغبة لإشاعة جو الدعوة إلى التوحيد ، وإعلام الناس بحقائق الدين القائم على الحق والحرية والعدل والإيمان

بالواحد الأحد ﴿ كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾ .

فالإعلام الإسلامى ضرورة حتمية لكمال الرسالة حتى تصل حقائق الإسلام إلى كل إنسان ، فإذا كفر فقد كفر عن بينة وبذلك يتحقق قوله تعالى ﴿ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ﴾ الإسراء ١٥ .

ولا يتحقق مغزى بعث الرسول إلا إذا تم التبليغ ، وحمله الدعاة والإعلاميون والمرشدون والمفسرون كما حمله الرسول عليه الصلاة والسلام . وقد أوصى الرسول من بعده بأن يخلفوه فى حمله .. وهذه رسالة الإعلام الإسلامى . فلقد خاطب النبى عليه الصلاة والسلام من عاصروه من العرب ومن جاورهم من دول أخرى ، وكان من أسس الدعوة مطالبة الأجيال كلها فى مشارق الأرض ومغاربها بالاقتداء بمنهج الرسول الكريم ، من أجل الإنسانية كلها .

﴿ لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا ﴾ .

فالإعلام الإسلامى مهمة مستمرة دائبة فى كل زمان وفى كل مكان . لذلك كان هذا التكليف موجها إلى الأمة الإسلامية جميعا .

وقد اتفق أهل العلم على وجوب الدعوة الإسلامية ، وكان ذلك الاتفاق إجماعا انعقد فى عهد الصحابة وفى عهد التابعين رضى الله عنهم . والإجماع لا ينقض بتخلى المسلمين عنه أو عدم القيام به .

الفصل السادس

الأشكال الاتصالية فى الدعوة الإسلامية

اتسمت الأشكال الاتصالية فى صدر الدعوة الإسلامية بالطابع الشخصى والجمعى والحضارى . وقد تحدثنا عن رسول الله ﷺ كداعية أمثل فى إطار نظرية الوحى التى تمثل نظرية متكاملة للاتصال . وسوف نتحدث هنا عن الاتصال الشخصى الذى يتحقق فى الجماعات الأولية التى يرتبط أفرادها بعلاقات شخصية ويتم فيها الاتصال بالمواجهة ــ سرية كانت أو علنية .

الاتصال الشخصى فى الإعلام الإسلامى :

ذلك أن الرسول ﷺ لم يجهر بالدعوة إلا بعد أن أمره الله سبحانه وتعالى بأن ينذر عشيرته الأقربين . وكان بين ما أخفى رسول الله ﷺ أمره واستتر به إلى أن أمره الله تعالى بإظهار دينه ، ثلاث سنوات تمثل المرحلة السرية فى الاتصال الشخصى بعد نزول الوحى .. إذ قال عز وجل ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ وقال جل جلاله ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين وقل إنى أنا النذير المبين ﴾ الحجر ١٥ .

ومن ذلك يتضح أن هاتين المرحلتين السرية والعلنية ، كانتا تستندان إلى الاتصال الشخصى الذى يكون بطبيعته بين أفراد العشيرة والأقربين من الأهل والصحاب .

فقد اعتمد رسول الله ﷺ فى الاتصال الشخصى بمن يثق ويطمئن إليهم ، كزوجته خديجة رضى الله عنها ، وابن عمه على كرم الله وجهه ، وصديقه أبى بكر ، ومولاه زيد بن حارثة ، وعثمان بن عفان ، والزبير بن العوام ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد ابن أبى وقاص ، وطلحة بن عبيد الله ، وأبو عبيدة بن الجراح ، وأبى سلمة بن عبد الأسد ، وزوجته أم سلمة ، والأرقم بن أبى الأرقم ، وعثمان بن مظعون ، وغيرهم من الصفوة الأبرار رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين .

ولقد كان الاتصال يتم خفية وبعيدا عن أعين المشركين من قريش . وظل كذلك سنوات ثلاثا أثمرت فيها الدعوة غرسها ، وأصبح حول رسول الله واحد وخمسون

مسلما يمثلون أوائل الدعاة فى الإسلام وللإسلام ، وهم الذين نزلت فيهم الآية الكريمة ﴿ والسابقون السابقون أولئك المقربون ﴾ الواقعة ٥٦

وقد تضمنت المرحلة السرية هذه صفحات مشرقة لكل واحد من هؤلاء . فأول من أسلم كانت أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضى الله عنها وأرضاها . وقد احتضنت الدعوة فى بدايتها منذ هبط الوحى على النبى ﷺ . وكلنا يعرف موقفها حينما جاءها وهو يرتجف فطمأنته ، ثم آمنت به وصدقت بما جاءه من عند الله ، وآزرته على أمره فخفف الله بذلك عن نبيه ﷺ . وقد أرسل إليها سبحانه وتعالى تحية طيبة مباركة من السماء ، فقد أمر نبيه أن يخبرها على لسان جبريل بأنه عز وجل يقرئها السلام وأن لها بيتا فى الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب .

أما على بن أبى طالب فكان فى حجر رسول الله ﷺ قبل الإسلام . ويذكر ابن هشام أن رسول الله كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة ، وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيا من أبيه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه ، فيصليان الصلوات فيها . فإذا أمسيا رجعا فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا . وقد عثر عليهما أبو طالب يوما وهما يصليان فقال لرسول الله « يا بن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ » فأجابه ﷺ (أى عم .. هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا إبراهيم — أو كما قال ﷺ — بعثنى الله به رسولا إلى العباد . وأنت أى عم أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه) فقال أبو طالب « أى ابن أخى إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه،ولكن والله لا يخلص إليك بشىء تكرهه ما بقيت » .

وقال ابن هشام إن أبا طالب قال لابنه على « أى بنى ما هذا الدين الذى أنت عليه ؟ » فأجابه « يا أبتى ، آمنت بالله وبرسول الله وصدقته بما جاء به وصليت معه لله واتبعته ». فقال أبو طالب « أما إنه لم يدعك إلا إلى خير فالزمه » .

وأما زيد بن حارثة فقد أسلم كذلك فور نزول الوحى على الرسول ﷺ وصلى معه . يقول ابن هشام إن زيدا كان رقيقا على عادة الجاهلية اشتراه حكيم بن حزام ، ثم وهبه لعمته خديجة رضى الله عنها فوهبته بدورها إلى زوجها قبل البعث . فأعتقه ﷺ وتبناه إلى أن أنزل الله عز وجل ﴿ ادعوهم لآبائهم ﴾ وقد بلغ من حب رسول الله لزيد أن ناداه الناس « بحِب رسول الله » . وقد دخل زيد فى الإسلام فور دعوة رسول الله له فكان من الأوائل الذين صدقوا به وآمنوا معه .

وكان أبو بكر بن أبى قحافة التيمى صديقا حميما لمحمد ﷺ ، وكان يقدر أمانته ونزاهته وصدقه وحبه للعدل والحق . وكان رسول الله يبادله الحب والتقدير ويعتز بصداقته ويفضى إليه بأسراره ، ولذلك كان أبو بكر أول من تلقى تفاصيل الوحى من رسول الله ﷺ .

ولم يتردد أبو بكر لحظة واحدة فى التصديق والدخول إلى الدين الحق . وقد أعلن إسلامه ودعا إلى الله وإلى رسوله ، وقد استجاب الكثيرون إلى الإسلام بدعوته لأنه كما يقول ابن هشام كان « رجلا مألفا لقومه محببا سهلا ، وكان أنسب قريش لقريش ، وأعلم قريش بقريش وما كان فيها من خير وشر ، وكان رجلا تاجرا ذا خلق ومعروف ، وكان رجال قومه يفدون إليه ويألفونه لغير واحد من الأمر — لعلمه وتجارته وحسن مجالسته — فجعل يدعو إلى الله وإلى الإسلام من وثق به من قومه ممن يغشاه ويجلس إليه .

أما الاتصال الشخصى فى المرحلة العلنية فقد توسل بالقرآن الكريم والقدوة الحسنة إلى جانب الأحاديث النبوية الشريفة .

يقول الرواة : إن النبى ﷺ بعد أن أمر بالجهر وإنذار عشيرته الأقربين وخفض جناحه للمؤمنين ، جمع بنى عبد المطلب وهم يومئذ أربعون رجلا فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب ، فقدم لهم طعاما صنعه لهم ثم قال (خذوا باسم الله) فأكل القوم حتى ما لهم بشىء حاجة . ثم أراد رسول الله أن يكلمهم فبدره أبو لهب إلى الكلام فتفرق القوم ولم يكلمهم . وفى اليوم التالى أمر عليا فصنع لهم طعاما ودعاهم إلى المائدة مرة أخرى ، فحضروا وأكلوا هنيئا وشربوا مريئا . ثم تكلم رسول الله فقال (يا بنى عبد المطلب إنى والله ما أعلم رجلا فى العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به . إنى قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة وقد أمرنى الله تعالى أن أدعوكم إليه) . ويقول الطبرى « صعد رسول الله ﷺ ذات يوم الصفا فقال (يا صباحاه !) . فاجتمعت قريش فقالوا « مالك ؟ » . قال ﷺ (أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مصبحكم أو ممسيكم أما كنتم تصدقوننى ؟) . قالوا « بلى » . قال (فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد) . فقال أبو لهب « تبا لك .. ألهذا دعوتنا وجمعتنا ؟ » فأنزل الله عز وجل ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ﴾ المسد ١ .

وهكذا يتبين لنا أن الرسول ﷺ قد توسل بكل الوسائل التى تحقق أهداف الاتصال الشخصى ، فقد دعا قومه إلى طعامه مرتين ، وأقام لهم حفلا وتحدث إليهم بلطف ولين ، ولم يكن فظا غليظ القلب . ثم قدم لحديثه بأسئلة يعرف إجابتها مقدما ، وذلك ليستدرج القوم لما يريد ويمهد للأمر فى نفوسهم .

ولولا معارضة أبى لهب له لانصاع الناس لقوله وآمنوا جميعا به . ولكن هذه المعارضة فى حد ذاتها جاءت لتؤكد أن الأمر ليس أمراً عائليا أو عصبية أسرة أو إجماع قبيلة تريد أن تسود وأن يكون لها الأمر الدنيوى ، ولكنها رسالة رب العالمين إلى الناس كافة .

وروى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ حين نزل عليه قوله تعالى ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ الآيات ، وقف وقال (يا معشر قريش اشتروا أنفسكم لا أغنى عنكم من الله شيئا .. يا بنى عبد المطلب لا أغنى عنكم من الله شيئا .. يا صفية عمة رسول الله لا أغنى عنك من الله شيئا .. يا فاطمة بنت رسول الله سلينى ما شئت من مال لا أغنى عنك من الله شيئا) . وهذا الحديث مخرج على شرط البخارى ، وروى مثله الإمام أحمد فى مسنده .

ولقد جاء فى التاريخ الكبير لابن الأثير « لما أنزل الله تعالى على رسوله ﴿ وأنذر عشيرتك الأقربين ﴾ الشعراء ٢١٤ ، اشتد ذلك على النبى ﷺ وضاق ذرعا فجلس فى بيته كالمريض ، فأتته عماته يعدنه فقال (ما اشتكيت شيئا ولكن الله أمرنى أن أنذر عشيرتى) . فقلن له « فادعهم ولا تدعُ أبا لهب فيهم فإنه غير مجيبك . فدعاهم ومعهم نفر من بنى المطلب بن عبد مناف فكانوا خمسة وأربعين ، فبادرهم أبو لهب فقال « هؤلاء عمومتك وبنو عمك ، فتكلم ودع الصباة ، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة وأنا أحق من أخذك فحبسك .. وإن أقمت على ما أنت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وغيرهم من العرب . فما رأيت أحدا جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به » . فسكت رسول الله ﷺ ولم يتكلم فى هذا المجلس .

وكان رسول الله ﷺ حكيما غاية الحكمة ، مدركا تمام الإدراك لأبعاد الموقف الاتصالى وما تمثله معارضة أبى لهب من معوقات اتصالية أمام الدعوة الجديدة . لهذا بادر بالصمت وأرجأ الحديث إلى مجال آخر لا يكون فيه هذا الجو الذى شحنه أبو لهب بالمعارضة .

فلما أتيحت له الفرصة وتهيأ له المجال الاتصالى المناسب ، قال ﷺ (الحمد لله أحمده وأستعينه وأثق به وأتوكل عليه ، وأشهد أن لا إلـه إلا الله وحده لا شريك له) . ثم قال (إن الرائد لا يكذب أهله ، والله الذى لا إلـه إلا هو إنى رسول الله إليكم خاصة وإلى الناس كافة . والله لتموتن كما تنامون ، ولتبعثن كما تستيقظون ، ولتحاسبن بما تعملون ، وإنها للجنة أبدا أو للنار أبدا) .

ولقد أفحم أبو لهب بهذا القول فلم ينطق بحرف ، وتكلم أبو طالب فقال « ما أحب إلينا معاونتك وأقبلنا لنصيحتك وأشد تصديقا لحديثك ، وهؤلاء بنو أبيك مجتمعين وإنما أنا أحدهم ، غير أنى أسرعهم إلى ما تحب فامض لما أمرت به ، فوالله لا أزال أحوطك وأنفعك غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب » . وهنا استفز أبو لهب فقال « هذه واللات السوأة .. خذوا على يديه قبل أن يأخذه غيركم » . فأجابه أبو طالب بإصرار « والله لنمنعنّه ما بقينا » .

وتعتبر الأحاديث النبوية الشريفة الدعامة الثانية للإعلام الإسلامى بعد القرآن الكريم . ذلك أن القاعدة الأساسية فى نظرية الإعلام الإسلامى تقوم على أساس من الثبات فى الأصول والتطور فى الفروع .

الأحاديث النبوية الشريفة فى الاتصال الشخصى والجمعى والحضارى :

والأحاديث النبوية الشريفة تمثل بطبيعتها وسيلة من أهم وسائل الإعلام الإسلامى ذلك أن « الحديث » من حيث المعنى هو أداة اتصالية ، فقد كان لكلمة الحديث معنى عام هو الخبر أو المحادثة — دينية كانت أم غير دينية — ثم أصبح لها معنى خاص هو ما ورد عن النبى ﷺ من قول أو فعل يروى عنه .

وتأسيسا على هذا الفهم فإن الحديث أصبح يطلق عند المسلمين على ما يروى عن الرسول ، ويطلق على العلم الخاص به علم الحديث .

وإذا كنا قد تحدثنا فى الفصل السابق كذلك عن الرسول ﷺ ، كمبلغ للدعوة وقائم بالاتصال فيما يصدر عنه من قول وما يروى عن أفعاله إنما يمثل الرسالة الإعلامية ، والتى نعنى بها فى هذا الصدد الأحاديث النبوية الشريفة ، والتى كان لها طابعان :

أولا : طابع التعليم والتوجيه والإرشاد .

ثانيا : طابع الإعلام والدعوة والتبليغ .

وهذان الطابعان يمثلان الوظائف الأساسية للإعلام بوجه عام ، وللإعلام الإسلامى بوجه خاص .

ومن أحاديث الرسول ﷺ جميعا نجد تحقيقا لهذه الوظائف ، سواء أكانت تستهدف التنشئة الاجتماعية أو التوجيه أو الهداية على النحو المستفاد من الدلالة التى ترتبط بلفظ السنة ذاته ، والتى كان المقصود بها عند العرب « النهج القديم المأثور الذى يعتاده المرء فى كافة المعاملات » . وهذا اللفظ كان له احترامه عند الجاهليين الذين يعتبرون السنة فضيلة من الفضائل(١) .

---

(١) ص ٤١ ، ج ١ ، تعليق ٨

ولما جاء الإسلام ، كان فى جوهره ثورة على السنن الجاهلية وما يرتبط بها من وثنية وعادات سيئة وتقاليد ضارة بالمجتمع . وقد استبدل الإسلام سنن الجاهلية وعاداتها وتقاليدها بسنن قوية وعادات سليمة وتقاليد مفيدة يترسمها المجتمع الإسلامى فى كل زمان ومكان . ذلك أن الدرس المستفاد من الأحاديث النبوية ، إلى جانب ما أوضحه القرآن الكريم حول الدعوة والتبليغ أن الإعلام الإسلامى إنما هو فريضة واجبة يتوجه بها إلى العالم كله ، لا إلى أمة بعينها . وقد جاء عن النبى ﷺ أنه قال (نصرت بالرعب من مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل . وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث لقومه خاصة وبعثت للناس عامة)(١) .

وقد أكد القرآن الكريم هذا المعنى فى أصول الإعلام الإسلامى ، إذ قال تعالى ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾ فأصبح الواجب إذن على القائمين بالإعلام الإسلامى أن يتخذوا من شخصية الرسول وخلقه ، وشخصيات صحابته وخلفهم ، مُثلا عليا يترسمونها ويحتذون خطواتها فى أداء رسالتهم الخالدة العامة .

وإذا كان الصحابة رضى الله عنهم وأرضاهم أجمعين ، قد بذلوا كل ما فى طاقتهم فى سبيل جمع أحاديث الرسول وأخباره لتكون نبراسا للإعلام الإسلامى فى كل العصور ، فإن هذه الأحاديث والأخبار ذاتها كانت فى حينها تمثل رسالة إعلامية مباشرة للقوم الذين تخاطبهم ، وقد استمرت فعاليتها إلى يومنا هذا ، وسوف تستمر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وينقسم الحديث إلى : **حديث إلهى وهو الحديث القدسى** الذى يرويه النبى ﷺ عن ربه عز وجل ، **وحديث نبوى** وهو ما تحدث به رسول الله وما روى عنه ﷺ .

وهذان النوعان من الحديث يمثلان الرسالة الإعلامية المفسرة للقرآن الكريم ، وقد توسل بها الرسول ﷺ فى كل مراحل الدعوة الإسلامية . وقد طبعت بطابع الاتصال الشخصى الشفهى الذى يؤكد علماء الإعلام أنه ناجح فى الإقناع ، لأنه يتلافى سلبيات الإعلام الأخرى وبخاصة مقاومة المستقبل التى تضعف بدورها تأثير الإعلام . فالاتصال الشفهى يتسم بالحوار والإقناع وتبادل الأفكار ، ودحض الحجج والبراهين ، ومحاولة التغلب على كل أساليب الاحتجاج مما يجعل المستقبل يؤمن تأمينا قلبيا على الرسالة التى تلقاها . بل إنه يصبح فى أغلب الأحوال داعية لنفس الرسالة بين

---

(١) رواه البخارى ومسلم .

جماهير أخرى لا يلبث بعضهم أن يتحول بدوره إلى دعاة كذلك . وهكذا تدور الدورة الاتصالية فى الإعلام الإسلامى .

لذلك لم يكن غريبا أن يتوسل الرسول ﷺ بالاتصال الشخصى فى مراحل الدعوة المختلفة وتبليغ رسالة ربه إلى الناس . ولقد نجح ﷺ نجاحا باهرا منجزا شد انتباه غير المسلمين وكل من تصدى لدراسة حياته والكتابة عنه . وتقول دائرة المعارف البريطانية فى مادة قرآن « جاء محمد بدعوة جديدة هى دعوة الإسلام . وكان هذا الرسول أفضل الأنبياء والشخصيات الدينية وأكثرهم حظا من النجاح ، فقد أنجز فى عشرين عاما من حياته ما عجزت عن إنجازه قرون من جهود المصلحين — يهودا أو نصارى — الذين كانت تؤيدهم السلطة الزمنية . ورغم أنه كان أمام ذلك الرسول تراث أجيال من الوثنية والخرافة والجهل والبغاء والربا والميسر ومعاقرة الخمور واضطهاد الضعفاء والحروب والمنازعات بين القبائل العربية ، ومئات الشرور والآثام الأخرى » .

وهذا التأكيد من دائرة المعارف البريطانية الذى نقلناه بنصه يوضح ما نعنيه بنجاح الاتصال الشخصى فى دعوة الرسول ﷺ ، فى مراحلها التى أشرنا إليها .

الاتصال الشخصى بالقبائل العربية :

ومن وسائل الاتصال التى لجأ إليها الرسول ﷺ لتبليغ دعوة الإسلام ، عرض نفسه على القبائل العربية الوافدة إلى مكة للحج أو العمرة أو التجارة ، كما كان يحرص على خضور الأسواق خاصة فى المواسم والأعياد . ويروى أنه ﷺ كان يقف على منازل القبائل من العرب فيقول (يا بنى فلان إنى رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا . وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأنداد ، وأن تؤمنوا بى وتصدقوا بى وتمنعونى حتى أبين عن الله ما بعثنى به) .

وكثيرا ما كان أبو لهب يحرك العوامل الوسيطة عند هذه القبائل بأن يتبع ابن أخيه فيقول معقبا على قوله ﷺ « يا بنى فلان .. إن هذا إنما يدعوكم أن تسلخوا اللات والعزى من أعناقكم ، وحلفاءكم من الجن من بنى مالك بن أقيش ، إلى ما جاء به من البدعة والضلالة فلا تطيعوه ولا تسمعوا منه » .

العوامل الوسيطة ومقاومة الدعوة :

وإذا كان علماء الإعلام فى عصرنا هذا يقولون إن الاتصال قد ينجح مرة وقد يفشل أخرى أو يحقق عكس المطلوب منه ، فإننا نستطيع أن نستقرئ هذا من المواقف التى عرض فيها الرسول — ﷺ — نفسه على القبائل ، وما لقيه من نجاح أو فشل بسبب

محاولات أبي لهب المضادة والتي كانت تثير العوامل الوسيطة في النفوس وتستهويها استهواء عكسيا . ولم تكن المقاومة قاصرة على أبي لهب ، بل كانت تشتمل الكثير من سادة قريش وأصحاب الرأي والجاه والمال فيها من الذين غلبت عليهم الضلالة فلا يتبعون الحق لذات الحق . وهؤلاء هم المعاندون المكابرون الذين عميت قلوبهم وكان على إدراكهم غشاوة .

يقول ابن كثير إن رسول الله ﷺ « استمر يدعو إلى الله تعالى ليلا ونهارا ، وسرا وجهارا ، لا يصرفه عن ذلك صارف ، ولا يرده عن ذلك راد ، ولا يصده عن ذلك صاد ، يتبع الناس في أنديتهم ومجامعهم ومحافلهم ، وفي المواسم ومواقف الحج يدعو من لقيه من حر وعبد وضعيف وقوي وغني وفقير ، جميع الخلق في ذلك شرع سواء . وتسلط عليه وعلى من اتبعه من آحاد الناس من ضعفائهم ، الأشداء الأقوياء » .

وكان أشدهم قسوة وضراوة بعد أبي لهب أبو جهل عمرو بن هشام المعروف بأبي الحكم ، والذي كان فاجرا في القول والعمل ، ولم يدخر وسعا في مقاومة الدعوة واضطهاد كل من آمن بها خاصة الضعفاء ومن لا حول ولا قوة . أما أبو لهب فهو كما تقدم قد اختار لنفسه موقعا يناوئ منه الدعوة الإسلامية . وقد يكون سادة قريش هم الذي وضعوه في هذا الموقع استغلالا منهم للصلة القوية بينه وبين ابن أخيه ، مما يجعله مصدر ثقة وعاملا من العوامل الوسيطة الفعالة في مقاومة النبي ﷺ ، وإضعاف حجته وإصابته بالإحباط وإيلامه في نفسه ، لأن الظلم هنا يقع من أقرب المقربين إليه ، وهو الذي يفترض فيه أن يكون أول المؤيدين والمساندين لدعوته .

قال ابن إسحاق « كان رسول الله ﷺ كلما اجتمع له الناس بالموسم ، أتاهم يدعو القبائل إلى الله وإلى الإسلام ، ويعرض عليهم نفسه وما جاء به من الله من الهدى والرحمة . وهو لا يسمع بقادم يقدم مكة من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له فدعاه إلى الله وعرض عليه ما عنده » .

وقد لقي رسول الله قوما من الخزرج في أحد المواسم عند العقبة فقال لهم (من أنتم ؟) . قالوا « نفر من الخزرج » . قال (أمن موالي يهود ؟) . قالوا « نعم » . قال (أفلا تجلسون أكلمكم ؟) . قالوا « بلى » . فجلسوا معه فدعاهم إلى الله عز وجل وعرض عليهم الإسلام وتلا عليهم القرآن . فقال بعضهم لبعض « يا قوم .. تعلموا والله أنه للنبي الذي توعدكم به اليهود فلا يسبقونكم إليه » . فأجابوه فيما دعاهم إليه بأن صدقوه وقبلوا منه ما عرض عليهم من الإسلام ، وقالوا « إنا قد تركنا قومنا ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم ، فعسى أن يجمعهم الله بك . فسنقدم عليهم

فندعوهم إلى أمرك وتعرض عليهم الذى أجبناك إليه من هذا الدين ، فإن يجمعهم الله عليه فلا رجل أعز منك » . ثم انصرفوا راجعين إلى بلادهم وقد آمنوا وصدقوا .

وكانت هذه بداية نجاح الاتصال الشخصي بين رسول الله ﷺ ، وانتصاره على مقاومة العوامل الوسيطة التى أزكاها أبو لهب وغيره من أشباهه .

وإذا كان لفظ الجمع فى اللغة العربية يعنى تأليف المتفرق ، فإن الاتصال الجمعى كما يذهب إلى ذلك علماء الإعلام يكتسب من هذه الدلالة اللغوية خصائصه ومفهومه من حيث اعتماده على التفاعل المباشر بين الجماعة والداعية أو المرسل .

الاتصال الجمعى :

ولما كان الإسلام هو الدين القائم على جمع الناس تحت راية واحدة هى راية لا إله إلا الله ، وتوحيد صفوفهم وبث التواد والتراحم والتآزر والتضامن فى نفوسهم ، كان الاتصال الجمعى من أهم مميزات الإعلام الإسلامى .

قال تعالى ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ . آل عمران ١٠٣

وقال سبحانه ﴿ قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا ﴾ . الأعراف ١٥٨

وقال عز شأنه ﴿ قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم ﴾ . سبأ ٢٦

وقال جل جلاله ﴿ لا حجة بيننا وبينكم الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ الشورى ١٥

هذه الآيات وغيرها تؤكد على أهمية الاتصال الجمعى فى الإعلام الإسلامى لما تتضمنه من التأكيد على الألفة والاجتماع على كلمة الحق ، والتسليم لأمر الله والاعتصام بحبله سبحانه . وهو الذى يقول عنه المفسرون إنه السبب الموصل إلى البقية والحاجة ، ولذلك سمى الأمان حبلا لأنه سبب يوصل به إلى زوال الخوف والنجاة من الجزع والذعر — كما كره الله الفرقة وحذر المسلمين منها ونهاهم عنها .

وقال رسول الله ﷺ (إن بنى إسرائيل افترقت على إحدى وسبعين فرقة ، وإن أمتى ستفترق على اثنين وسبعين فرقة كلهم فى النار إلا واحدة) . قيل « يارسول الله وما هذه الواحدة ؟ » . فقبض يده وقال (الجماعة) . ثم استشهد ﷺ بالآية الكريمة ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ .

ولقد شرع الإسلام صلاة الجماعة فى المساجد لحكمة بالغة هى التأليف بين قلوب المسلمين وتوحيد صفوفهم وجمع كلمتهم وتحقيق المساواة بينهم . والتمرس على المشاركة العملية والوجدانية ، والتدرب على العمل تحت قيادة واحدة . ثم إن صلاة الجماعة فيها حركة السعى إلى المساجد ، وفيها سهولة إعلام الناس بالأمور العامة والأحداث الهامة أيضا .

ولذلك أكد الرسول الكريم على طلب صلاة الجماعة التى أصبحت سنة مؤكدة وشعيرة من شعائر الإسلام ، بل دعامة من أهم دعائمه . وقد داوم على إقامتها رسول الله ﷺ والخلفاء والتابعون من بعدهم ، ومازالت إلى يومنا فى كل مجتمع إسلامى ، وستظل إلى يوم الدين بإذنه تعالى .

قال ﷺ (صلاة الجماعة تعدل صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة) . متفق عليه . وقال (ما من ثلاثة فى قرية ولا بدو لا تقام فيهم الصلاة إلا قد استحوذ عليهم الشيطان . فعليكم بالجماعة فإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية) . رواه أبو داود بإسناد حسن .

أما صلاة الجمعة فقد قال الله عز وجل بشأنها ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ﴾ . الجمعة ٩.وقال رسول الله ﷺ (من ترك ثلاث جمع تهاونا طبع الله على قلبه) . رواه الستة . كما قال (إن أهل الكتابين أعطوا يوم الجمعة فاختلفوا فيه فصرفوا عنه ، وهدانا الله تعالى له وأخره لهذه الأمة وجعله عيدا لهم ، فهم أولى الناس به سبقا وأهل الكتاب لهم تبع) . متفق عليه . وقد أجمع المسلمون كافة على وجوب صلاة الجمعة التى ثبتت فريضتها بالكتاب والسنة .

ومن مظاهر الاتصال الجمعى فى صلاة الجمعة الخطبة ، وهى الرباط الروحى للمصلين والمخبر الإعلامى للمسلمين ، ومن خلالها يمكن توجيه الناس وإرشادهم وإعلامهم والأخذ بأيديهم إلى خير السبل وأسلمها .

الخطب النبوية والاتصال الجمعى :

ويقول ابن القيم الجوزى عن خطب النبى ﷺ « إنها كانت تقريرا لأصول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه . وذكر الجنة والنار وما أعد الله لأوليائه وأهل طاعته ، وما أعد لأعدائه وأهل معصيته ، فيملأ القلوب من خطبه إيمانا وتوحيدا ومعرفة بالله وأيامه .. لا كخطب غيره التى تفيد أمورا مشتركة بين الخلائق ، وهى النوح على الحياة والتخويف بالموت ، فإن هذا أمر لا يحصل فى القلب إيمانا بالله ولا توحيدا له ، ولا معرفة خاصة ، ولا تذكيرا بأيامه ، ولا بعثا للنفوس على صحبته والشوق إلى لقائه ، فيخرج السامعون ولم يستفيدوا فائدة غير أنهم يموتون وتقسم أموالهم ويبلى التراب أجسامهم .. فيا ليت شعرى أى إيمان حصل بهذا ، وأى توحيد وعلم نافع يحصل به ؟ ومن تأمل خطب النبى ﷺ وخطب أصحابه ، وجدها كفيلة ببيان الهدى والتوحيد وذكر صفات الرب جل جلاله ، وأصول الإيمان الكلية والدعوة

إلى الله وذكر آلائه تعالى التى تحببه إلى خلقه ، وأيامه التى تخوفهم من بأسه ، والأمر بذكره وشكره الذى يحببهم إليه ، فيذكرون من عظمة الله وصفاته وأسمائه ما يحببه إلى خلقه ، ويأمرون من طاعته وشكره وذكره ما يحببهم فينصرف السامعون وقد أحبوه وأحبهم . ثم طال العهد وخفى نور النبوة وصارت الشرائع والأوامر رسوما تقوم من غير مراعاة حقائقها ومقاصدها ، فأعطوها صورها وزينوها بما زينوها به فجعلوا الرسوم والأوضاع سننا لا ينبغى الإخلال بها ، وأخلوا بالمقاصد لا ينبغى الإخلال بها فرضعوا الخطب بالتسجيع والفِقَر وعلم البديع فنقص .. بل عُدِم حظ القلوب منها وفات المقصود بها » .

أما النووى فيقول « يستحب كون الخطبة فصيحة بليغة مرتبة مبينة من غير تمطيط ولا تقعير ، ولا تكون ألفاظا مبتذلة ملفقة لأنها لا تقع فى النفوس موقعا كاملا . ولا تكون وحشية لأنها لا يحصل مقصودها . بل يختار ألفاظا جزلة مفهمة .

أما الخطابة النبوية الشريفة فيتمثل فيها الاتصال الجمعى فى أسمى معانيه ، فقد كانت أداة الدعوة ، واللسان الناطق بالرسالة الإسلامية ، وأداة الاتصال والتعبير فى مجالات العقيدة والشريعة والأخلاق . فإذا كانت الكتابة غير شائعة فى هذا العصر ، فإن الخطابة كانت تمثل الوسيلة الأساسية للاتصال الجمعى ، ولذلك اعتمد عليها النبى ﷺ فى دعوته عشيرته الأقربين ، وفى اتصاله بأحياء العرب وبالأسواق العامة ومواسم الحج ، فكان عليه السلام يخطب ويقول (قولوا لا إلـٰه إلا الله تفلحوا) . ثم انتقل إلى يثرب يدعو إلى الله على بصيرة ، ويقوم فى مجتمعات جديدة يشرح لهم ببيانه وفصاحته رسالة الإسلام ، وهى فصاحة فطر عليها وقواها تلمذته للقرآن الكريم . سأله أبو بكر رضى الله عنه مرة « لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم فما سمعت أفصح منك ، فمن أدبك ؟ » . قال (أدبنى ربى فأحسن تأديبى) . وفى الخطابة النبوية الشريفة تتجلى قيمة الحرية فى الاتصال الجمعى ، فكان عليه السلام يقول بعد الثناء والتشهد (أما بعد) . وكان يعلم أصحابه فى خطبته قواعد الإسلام وشرائعه ، ويأمرهم وينهاهم فى خطبته إذا عرض له أمر أو نهى .

فالاتصال الجمعى — كما يتضح من دراسة الخطابة النبوية الشريفة — لا يتم من جانب واحد ، وإنما كان يتاح فيه للمتلقى توجيه الأسئلة والتفاعل الذى يتيحه رجع الصدى من المستقبل إلى الرسول ﷺ ، وهى الميزة التى يفقدها الاتصال الجماهيرى المعاصر . ذلك أن الرسول ﷺ كان يقطع خطبته للحاجة تعرض ، والسؤال لأحد من أصحابه فيجيبه ثم يعود إلى خطبته فيتمها . وكان ﷺ يأمر بمقتضى الحال فى خطبته ،

فإذا رأى منهم ذا فاقة وحاجة أمرهم بالصدقة وحضهم عليها . ولم يكن يأخذ بيده سيفا أو خلافه ، وإنما كان يعتمد على عصا أو قوس قبل أن يتخذ المنبر ، وكان يخطب للنساء على حدة فى العيدين ويحرضهن على الصدقة .

ولقد كانت الخطابة من أهم وسائل الرسول ﷺ فى الاتصال الجمعى فى الإعلام الإسلامى بعد الجهر بالدعوة مباشرة ، حين صعد على الصفا حاملا عبء الجهاد من حين نزل قوله تعالى ﴿ فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ﴾ . ويذكر ابن كثير أن أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله بعد النبى ﷺ هو أبو بكر رضى الله عنه .

ولما كانت أول جمعة للنبى ﷺ بالمدينة ، خطب المسلمين فكان مما قال :

(الحمد لله ، أحمده وأستعينه ، وأستغفره وأستهديه ، وأومن به ولا أكفره ، وأعادى من يكفره ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور والموعظة على فترة من الرسل ، وقلة من العلم ، وضلالة من الناس ، وانقطاع من الزمان ، ودنو من الساعة ، وقرب من الأجل . من يطع الله ورسوله فقد رشد ، ومن يعصه فقد غوى وفرط وضل ضلالا بعيدا . وأوصيكم بتقوى الله فإنه خير ما أوصى به المسلم المسلم أن يحضه على الآخرة وأن يأمره بتقوى الله . فاحذروا ما حذركم الله من نفسه ، ولا أفضل من ذلك ذكرا . وإن تقوى الله يوق مقته ويوق عقوبته ، وإن تقوى الله يبيض الوجوه ويرضى الرب ويرفع الدرجة ، خذوا بحظكم ولا تفرطوا فى جنب الله ، قد علمكم الله كتابه ونهج لكم سبيله ليعلم الذين كذبوا ويعلم الكاذبين . فأحسنوا كما أحسن الله إليكم ، وعادوا أعداءه . جاهدوا فى الله حق جهاده هو اجتباكم وسماكم المسلمين ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حىّ عن بينة ، فأكثروا من ذكر الله واعملوا لما بعد اليوم ، فإنه من يصلح ما بينه وبين الله يكفيه الله ما بينه وبين الناس

(وذلك بأن الله يقضى على الناس ولا يقضون عليه ، ويملك من الناس ولا يملكون منه ، الله أكبر ولا قوة إلا بالله) .

خطبة الوداع وحقوق الإنسان :

ومن الخطب النبوية الرفيعة خطبة حجة الوداع ، وهى مشهورة وتعد بعد القرآن الكريم أقدم وثيقة عالمية بحقوق الإنسان .

قال رسول الله ﷺ بعد أن حمد الله وأثنى عليه :

(أيها الناس اسمعوا قولى فإنى لا أدرى لعلى لا ألقاكم بعد عامى هذا بهذا الموقف

أبدا . أيها الناس إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا وكحرمة شهركم هذا . وإنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، وقد بلغت . فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها ، وإن كل ربا موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون . قضى الله أنه لا ربا ، وأن ربا العباس ابن عبد المطلب موضوع كله ، وأن كل دم كان فى الجاهلية موضوع ، وأن أول دمائكم أضع دم ابن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب وكان مسترضعا فى بنى ليث فقتلته هذيل ، فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية . أما بعد أيها الناس فإن الشيطان قد يئس من أن يعبد بأرضكم هذه أبدا ، ولكنه إن يطع فيما سوى ذلك فقد رضى به مما تحقرون من أعمالكم ، فاحذروه على دينكم . أيها الناس إن النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله ، فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله . وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاثة متوالية ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان . أما بعد أيها الناس فإن لكم على نسائكم حقا ولهن عليكم حقا . لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه ، وعليهن ألا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن فى المضاجع وتضربوهن ضربا غير مبرح ، فإن انتهين فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف . واستوصوا بالنساء خيرا فإنهن عندكم عوان لا يملكن لأنفسهن شيئا ، وإنكم إنما أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمات الله . فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلغت . وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا .. أمرا بينا كتاب الله وسنة نبيه . أيها الناس اسمعوا قولى واعقلوه .. تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وأن المسلمين إخوة فلا يحل لامرئ من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم. اللهم هل بلغت ؟) . فقال الناس « اللهم نعم » . فقال رسول الله (اللهم اشهد) .

ومن خطبة الوداع نستخلص دستورا للإعلام الإسلامى ينص على الدعوة إلى التوحيد الخالص ، والإيمان بالله ، كما ينص على الدعوة إلى وجوب احترام حقوق الإنسان وبخاصة فى النفس والمال والعرض ، وإلغاء التعامل بالربا ، وتأكيد حقوق المرأة ووجوب رعايتها ورعاية العلاقة الزوجية والأسرية ، وصيانة الروابط الدينية والأخوية والاتصالية بين المؤمنين . كما تنص هذه الخطبة على إعلان المساواة التامة بين بنى الإنسان فى الحقوق والواجبات مساواة تامة ، بغض النظر عن اللون والجنس ، وهذا النص يمثل عمادا من أعمدة الإعلام الإسلامى الذى أكدت عليه خطبة الوداع . وهى الخطبة التى

أرست كذلك من مبادئ الإعلام الإسلامى .. التحذير من فتن الشيطان ، والتنبيه إلى وجوب التزام اليقظة ، والحذر من وسائل إفساده للأخوة ، وللاتصال بين المسلمين وتفريق صفوفهم . وكذلك الدعوة إلى وجوب التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، لأنها الهدى الذى لا يضل من تمسك به .

وقد نصت خطبة الوداع صراحة على أن الإعلام الإسلامى إنما يقوم على أساس من تبليغ الرسالة للناس كافة ، وهذا الأساس يمثل جوهر الإعلام الإسلامى .

صلاة العيدين والاتصال الجمعى :

وصلاة العيدين شعيرة تمثل الاتصال الجمعى فى أروع مظاهره ، فالأعياد بطبيعتها مواسم إعلامية ، والعيدان الكبيران فى الإسلام هما عيد الأضحى وعيد الفطر ، وأكبرهما هو الذى يأتى بعد مشقة الحج والتقرب إلى الله سبحانه وتعالى ، وثانيهما هو الذى يأتى بعد شهر الصيام ، ويحتفل به الصائم وقد راض نفسه على مغالبة الجوع والظمأ ومخالفة العادات التى جرى عليها فى سائر الشهور . وكلاهما — كما يقول العقاد — رمز واضح إلى فضيلة التضحية وفضيلة ضبط النفس ، أو إلى الفضيلة الإنسانية الجامعة لكل الفضائل ، وهى حرية الاختيار والقدرة على مغالبة الغرائز والأهواء والعادات .

وصلاة العيدين سنة مؤكدة وشعيرة من شعائر الدين ، وفيها نسمع التكبير ثلاثا نسقا ، فنقول : الله أكبر الله أكبر ، الله أكبر كبيرا ، والحمد لله كثيرا ، وسبحان الله بكرة وأصيلا . لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، مخلصين له الدين ولو كره الكافرون . وفى هذا التكبير تلخيص لرسالة الإعلام الإسلامى حيث يتم التواصل بين المسلمين ودينهم على أتم ما يكون التواصل ، وتصبح الأعياد الإسلامية تجديدا للمودة والألفة والتعارف بين المسلمين .

فالعيد إذن وسيلة أساسية من وسائل الاتصال الجمعى فى الإعلام الإسلامى . وقد تكون كلمة العيد باللغة العربية أصدق الكلمات دلالة على ما نعنيه . فالعيد يعود كل سنة فى موعد محدد ومعروف ، كأنه سيوجب مجتمعا مستقرا له دينه ونظامه الاجتماعى القائم على أسس راسخة .

وهذه الدورية للعيد أى عودته سنويا فى الموعد المحدد ، صفة من أهم صفات الإعلام بوجه عام .

والعيدان الإسلاميان — وهما عيد الفطر وعيد الأضحى — كان لهما أصل قديم قبل الإسلام ، فكان العرب يصومون من أسبوع إلى أسبوعين فى موعد الانقلاب الصيفى الذى يوافق شهر القيظ ، أو شهر رمضان . وكانوا يحجون إلى الكعبة ويقدمون القرابين إلى أربابهم عند منصرفهم من الطواف ، وكانوا يؤدون شعائر الحج عراة إلا من الكساء الذى يخصصه السدنة للحج فى جوار مكة . فلما كاء الإسلام هذب هذين العيدين وأزال عنهما بقايا الصبغة المادية وحولها إلى العبادة الإلٰهية ، وساعد على زوال الأثر المادى منهما أن الإسلام حرم النسيء ، وهو زيادة شهور على السنة كل بضعة أعوام لإعادة التاريخ القمرى إلى الحساب الشمسى الذى تنتظم عليه مواسم الزراعة والتجارة .

الحج والاتصال الإعلامى :

ويمثل **الاتصال الإعلامى** شكلا من أشكال الاتصال فى الدعوة الإسلامية ، إذ يعنى الاتصال على مستوى الأمة ، الأمر الذى يتفق مع جوهر الإسلام كرسالة للناس كافة وليس لقبيلة أو شعب معين ، وهو الأمر الذى لاحظه الأستاذ مونتجمرى وات عميد قسم الدراسات العربية الأسبق بجامعة « أدنبرة » فى كتابه « الإسلام والجماعة المتحدة » ، حين ذهب إلى أن فكرة « الأمة » كما جاء بها الإسلام هى الفكرة البديعة التى لم يسبق إليها ولم تزل إلى هذا الزمن ينبوعا لكل فيض من فيوض الإيمان يدفع بالمسلمين إلى « الوحدة » فى « أمة » واحدة ، تختفى فيها حواجز الأجناس واللغات وعصبيات النسب والسلالة . وقد تفرد الإسلام بخلق هذه الوحدة بين أتباعه فاشتملت أمته على أقوام من العرب والفرس والهنود والصينيين والمغول والبربر والسود والبيض على تباعد الأقطار وتفاوت المصالح ، ولم يخرج من حظيرة هذه الأمة أحد لينشق عليها ويقطع الصلة بينه وبينها ، بل كان المنشقون عنها يعتقدون أنهم أقرب ممن يخالفونهم إلى تعزيز وحدتها ولم شملها ونفى الغرباء عنها .

ويذهب العقاد[1] إلى أن مونتجمرى قد أصاب فى التنويه بمعنى « الأمة » فى العقيدة الإسلامية ، واعتباره أنه معنى فريد خلقته العقيدة الإسلامية ولم يكن له مرادف فى لغة من اللغات قبل ولا بعد الإسلام .

فكلمة Nation التى تقابل هذه الكلمة باللغات الأوربية ، مأخوذة فى أصلها من معنى الولادة ، ومفادها أن الولادة فى مكان واحد هى الرابطة التى تكسب أبناء الوطن

---

(١) عباس محمود العقاد : المجموعة الكاملة ، م ٦ ، الإسلاميات ٢ ، ص ٥٢١

حقوق هذه الوحدة الاجتماعية . وكلمة People تقابل عندهم كلمة الشعب أحيانا باللغة العربية ، وترجع فى أصلها إلى السكن والإقامة . وكلا المعنيين ــ معنى الولادة ومعنى السكن ــ قاصر عن الدلالة على « الأمة » التى جاء بها القرآن الكريم فى معارض كثيرة تفيد معنى الجماعة الكبرى التى تحيط بشعوب كثيرة ، ويلزم من دلالتها وحدة الوجه الإسلامية فى نهاية الأمر .

وإذا كان الاتصال الإعلامى بالمعنى الحديث، وبشكله التكنولوجى، يتجاوز اللقاء المباشر والتفاعل المواجهى ، فإن الحج يمثل قمة الاتصال بين المسلمين الذين يلتقون فيه من كل فج عميق على اختلاف أجناسهم وألوانهم ولغاتهم ، وتتحقق فيه الدلالة الإسلامية لمعنى « الأمة » على أفضل نحو ، حيث جعل الله البيت العتيق مثابة للناس وأمنا ، وجعل الحج من بين أركان الإسلام ومبانيه عبادة العمر وختام الأمر وتمام الإسلام وكمال الدين فيه ، على حد تعبير الإمام الغزالى رضى الله عنه ، وقد أنزل الله عز وجل قوله ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ المائدة ٣ .

وقال الله عز وجل ﴿ وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ﴾ الحج ٢٧ .

وقال قتادة : لما أمر الله عز وجل إبراهيم ﷺ وعلى نبينا وعلى كل عبد مصطفى أن يؤذن فى الناس بالحج ، نادى : يا أيها الناس إن الله عز وجل بنى بيتا فحجوه . وقال تعالى ﴿ ليشهدوا منافع لهم ﴾ الحج ٢٨ . قيل التجارة فى الموسم والأجر فى الآخرة . وهذه المنافع تتضمن فوائد إعلامية بطبيعة الحال من حيث تبادل الأفكار والمعلومات فى إطار القيم الإسلامية . وقد جعل رسول الله ﷺ طيب الكلام مع إطعام الطعام من بر الحج ، والمماراة تناقض طيب الكلام . ولقد اختار الله سبحانه وتعالى أن تكون مكة المكرمة منزل الوحى والدعوة الإسلامية الأولى ، وجعلها مصدر الإعلام العربى على قدر ما عند العرب من معرفة ، وبها حج بيت الله الحرام ، وملتقى العرب فى موسمه ، وبها أسواق الأدب التى يتبارى فيها الشعراء والخطباء فى عكاظ وذى مجاز ومجنة . ولذلك كانت الأحداث فيها تنتقل أخبارها إلى بلاد العرب ، ومنها سار خبر الرسالة الإسلامية ودعوة النبى ﷺ إلى الحق وتجاوبت أصداؤها . ومن العرب من كان يجئ إلى مكة المكرمة بهدف التعرف على أمر ذلك الرسول الكريم ﷺ ، ومنهم من يرسل إليه من يتعرف دعوته كما فعل أكثم بن صيفى حكيم العرب ، إذ أرسل بنيه إلى النبى ﷺ يتعرف ما يدعو إليه ، فلما حضروا وسألوا النبى ﷺ ، تلا عليهم قول الله تعالى

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون ﴾ . فلما بلغه ما تلا عليهم الرسول ﷺ قال : إنه إن لم يكن دينا فهو خلق الناس أمر حسن ، يا بَنِىَّ كونوا فى هذا الأمر أولا ، ولا تكونوا آخرا .

وقد أسلم أبو ذر الغفارى بهذا الإعلام العام الذى اشتهرت به دعوة النبى ﷺ . كما أسلم على هذا النحو الطفيل بن عمرو إذ جاءه النبأ بدعوة النبى ﷺ ، وكان رجلا شريفا شاكرا ، وكذلك فعل الجارود بن المعلى وغيرهم من زعماء القبائل الذين دخلوا فى الإسلام .

الاتصال الحضارى فى الإعلام الإسلامى :

والاتصال الحضارى من أهم أشكال الإعلام الإسلامى ، لأنه يقوم على أسس إسلامية مستقاة من القرآن والسنة ، ويرتكز على التوحيد والإيمان والتسليم والطاعة لله رب العالمين ، ويتغيا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

فإذا كان مقياس المدنية الغربية هو التفوق المادى ، فإن الحضارة الإسلامية تقوم على حرية الفكر ، ودعم حرية الإنسان وكرامته ، وتشجيع المعرفة والنظام والمساواة بين الناس فى ظل إخاء شامل ، وعدل تام وروحانية صافية واعتزاز بالمثل العليا والقيم الأخلاقية . ذلك أن الحضارة الإسلامية قد استمدت مقوماتها من الإسلام ذاته ، الذى أتم صقل الأمة العربية والإسلامية وتهذيبها ، وأودع فى شعوبها طاقات جديدة ، وصفى طاقاتها الموروثة فاستأصل منها الغريب والشاذ ومالا يتلاءم مع طبيعة المجتمع المثالى الذى يريده الإسلام .

فالاتصال الحضارى فى الإسلام لم ينسخ النظرة الواقعية ، بل اهتم بتطويرها ودعا الناس إلى الاهتمام بدنياهم إلى جانب الاهتمام بدينهم . كذلك وجه عنايته إلى رفاهية المسلمين ، وتكامل سعادتهم بسعادة الروح والجسد فسعادتهما مكفولتان فى الإسلام ولا يطغى حق واحد منهما على الآخر . وهذه التعادلية فى الاتصال الحضارى الإسلامى بين المادة والروح ، بين الدنيا والآخرة ، بين العقل والقلب ، مسايرة لطبيعة الإنسان وخلقه ، فهو مادة وروح ، جسد وقلب . ولقد كان المجتمع العربى قبل الإسلام يحيا على واحدة منهما ويهمل الأخرى ، فكانت النتيجة الانغماس فى الفوضى وعدم الاستقرار والإخفاق فى الوصول إلى هدف منشود .. وتكفل التعادلية بين القوتين فى الاتصال الحضارى البقاء للإنسانية والسير قدما ، فالقوانين المادية الوضعية وحدها لا تفى برفاهية الخلق ، ولا تنهض وحدها بحل مشكلات الإنسان .

والمجتمع المتحضر هو المجتمع الأخلاقى أو « المدينة الفاضلة » بتعبير الفارابى . وهنا يغدو الاتصال الحضارى وسيلة لجعل أمور الحياة خاضعة لقانون الأخلاق النابع من جوهر الإسلام ، كدين إنسانى عام يخاطب الأمم جميعا فلا يفرق بين أمة وأمة بفارق الجنس أو اللون أو اللغة . فكل إنسان فى جوانب الأرض أهل لأن يأوى إلى هذه الأخوة الإنسانية حيث شاء وحين يشاء ، قال تعالى ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيرا ونذيرا ﴾ .

هكذا أعلنها القرآن الكريم دعوة عامة منذ ألف وأربعمائة سنة، وهكذا أعلنها النبى عليه السلام وخلفاؤه الراشدون وتابعوهم الأبرار فى صدر الإسلام . ولم يمض ربع قرن من التاريخ الهجرى حتى قامت بينات الواقع على حقيقة الاتصال الإنسانى فى الدعوة الإسلامية ، فدان بالدين الجديد أناس من جميع الأقوام والسلالات ، ولم تنقض على الهجرة ثلاثة قرون حتى كان فى عداد المسلمين ساميون وآريون وحاميون وطورانيون ، عرب وفرس وترك وهنديون وصينيون وأفريقيون من السود الأثيوبيين .. وهكذا يتأكد لنا أن الاتصال الحضارى فى الإعلام الإسلامى يتسم بالشمولية فى مخاطبة الناس جميعا بلا تفرقة .

يقول العقاد :

« إن دينا من الأديان الأخرى لم يكسب أمة ذات كتاب عريقة فى الحضارة ، وإنما كانت الأديان مقصورة على العصبية القومية ، أو على تحويل الوثنيين الذين درجوا على عبادة الأصنام وما يشبه الأصنام من رموز القوى الطبيعية .

فالموسوية قصرت دعوتها على العبريين أو اليهود ، ولما قام المكابيون ليكرهوا قبائل البادية على قيود الشعائر اليهودية كانت هذه القبائل وثنية مغرقة فى الجهالة ، وكان المكابيون يؤمنون بالإله « يهوا » ملكا تجب له الطاعة على رعاياه ، وكانوا من أجل ذلك يسمون أمراءهم رؤساء كهان ولا يسمحون لهم بلقب الملك وشاراته ومراسمه ، فإكراه القبائل على قبول سلطان « يهوا » إنما كان عندهم بمثابة الخضوع السياسى الذى يلزم الأجانب والغرباء كما يلزم أبناء الأمة وأهل السلالة .

والبرهمية ظلت ديانة قومية عنصرية حتى خرجت منها النحلة البوذية ، فنجحت فى تحويل الوثنيين إليها فى الصين واليابان ولم تحول إليها قط أمة ذات كتاب . والمسيحية حولت إليها الرومان وغيرهم من الغربيين أو الشرقيين ، ولكنهم كانوا جميعا من الوثنيين الذين وقفوا عند خطوات الدين الأولى ولم يجاوزوها إلى عقائد أهل الكتاب .

أما الإسلام فقد حول إليه على خلاف ذلك أعرق الأمم فى الحضارة وفى الإيمان بالعقيدة الكتابية ، فأسلمت فارس وأسلمت مصر وهما على التحقيق أعرق أمم العالم يومئذ فى تاريخ الحضارة ، وأولاهما كانت تؤمن بالله واليوم الآخر والحساب والعقاب وغلبة الخير على الشر وخلود الروح ، وثانيهما كانت تدين بالمسيحية وتحمل لواءها فى العالم القديم .

هذه المزية ينفرد بها الإسلام بين جميع الديانات ، وهى آية العالمية والصلاح لدعوة الأمم جمعاء ، سواء منها الأمم المغرقة فى الحضارة والدين ، أو الأمم التى لم تبلغ بعد مبلغ الارتقاء فى التحضر والاعتقاد[1] » .

فالاتصال الحضارى فى الإسلام إذن اتصال موجه إلى الإنسانية جمعاء على توالى العصور واختلاف الأزمان ، وهو ملتزم بما أنزله الله للإنسانية ، وهو سبحانه وتعالى بكل شىء عليم وبعباده رءوف رحيم ، وهو يهدى الناس إلى صراط مستقيم[2] .

قال تعالى ﴿ وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ الأنعام ١٥٣

ولقد اشتمل التشريع القرآنى على معالم هذا الاتصال الحضارى من مبادئ وقيم تصلح للإنسانية جمعاء ، فالأخوة الإسلامية أصبحت هى الأساس فى الاتصال الحضارى بدلا من العصبية ، والاتحاد أصبح هو العماد الذى يقوم عليه هذا الاتصال الحضارى ، والحياة التى تقوم على الخير هى الهدف المنشود من هذا الاتصال . وتتمثل هذه الأسس فى الآيات الكريمة :

﴿ ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ﴾ آل عمران ١٠٤

﴿ وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتقوا الله إن الله شديد العقاب ﴾ المائدة ٢

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم ﴾ التوبة ٧١

وإن كان التشريع القرآنى قد رسم على هذا النحو الأسس التى يقوم عليها الاتصال الحضارى القويم ، فقد أكد أن تنكب هذا الطريق واختيار السير فى طريق الفساد إنما

---

(١) العقاد : المجموعة الكاملة ، م ٨ ، الإسلاميات ٤ ، ص ٣٣٥

(٢) د . إبراهيم إمام : الإعلام الإسلامى ص ٤٥

ينتهى بهدم البناء الاجتماعى والحضارى وتقويض أسسه ، ويتمثل هذا الإنذار للحضارات المنحرفة فى الآيات الكريمة :

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ الرعد ١١

﴿ فلولا كان من القرون من قبلكم أولو بقية ينهون عن الفساد فى الأرض إلا قليلا ممَّن أنجينا منهم واتبع الذين ظلموا ما أترفوا فيه وكانوا مجرمين ، وما كان ربك ليهلك القرى بظلم وأهلها مصلحون ﴾ هود ١١٦ — ١١٧

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا ﴾ الإسراء ١٦

والأمثلة على انهيار الحضارات كثيرة ، فها هو محمد إقبال يقول « مثلت حضارة الغرب دورها وقد شاخت وهرمت ، أينعت كالفاكهة وحان قطافها ، وسوف ينهار العالم الذى حوله مقامرو الغرب إلى حالة من الفساد . ولقد رأت أوربا بعينها النتائج المخيفة لمثلها الاقتصادية والأخلاقية والعلمية ، ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد ، وهذا العالم لا يحسن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام ، وورث محمدا وإبراهيم قيادة العالم » .

ولقد تنبأ المؤرخ الإنجليزى توينبى بانهيار حضارة الغرب المعاصرة كما انهارت حضارة روما ، ويذهب كولن ويلسون إلى أن عالم اليوم يمر بنفس الظروف التى مرت بها حضارة الرومان . وكتب « جيبون » فى كتابه « انهيار الإمبراطورية الرومانية وسقوطها » يقول « إن روما تحولت إلى حضارة لا تفكر إلا فى الجنس والحرب » .

والتشريع القرآنى يبين الأسس القويمة للاتصال الحضارى السوى كما يبين عوامل هدم الحضارات المنحرفة ، ويذكّر المؤمنين على الدوام بنعمة قيام الأمة المتحدة المؤتلفة بعد تنازل ، ويحذر من الجاهلية التى تعيد الفرقة بعد الوحدة ، ويتضح ذلك فى الآيات الكريمة :

﴿ يا أيها الذين امنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون ، واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا ﴾ آل عمران ١٠٢ — ١٠٣

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا إن الله مع الصابرين ﴾ الأنفال ٤٦

وتأسيسا على هذا الفهم نحاول استخلاص مظاهر الاتصال الحضارى فى الإعلام الإسلامى فنجد أنه يقوم على الشورى والعدل كركنين أساسيين للوسيلة والهدف .

وتبين الآيات الكريمة هذا التحول من النظام القبلى إلى الاتصال الحضارى فى الإعلام الإسلامى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ النساء ٥٩

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله ﴾ آل عمران ١٥٩

والإسلام فى تجدده وتجديده وانطلاقه وامتداده ليس إلا تفسيرا حقيقيا للطبيعة المتجددة والطبيعة الممتدة فى الحياة ، فالله جل شأنه قد مد الظل ولو شاء لجعله ساكنا ، كما قال فى محكم آياته . والله لم يجعل الليل سرمدا ولم يجعل النهار سرمدا ، ولكن جعلهما موصولين امتدادا وانطلاقا إلى أبد الآبدين . ولو وقف الكون عند نهار دائم وحسب أو ليل دائم وحسب ، لكان ذلك جمودا لا تصح به الحياة ولا يصح عليه الأحياء .

والإسلام من طبيعته التجديد وليس من طبيعته الجمود ، وآية ذلك دعوته الدائمة إلى العلم وحثه عليه . وقد أعلى الإسلام من شأن العلم ولم يساو بين عالم وغير عالم ، لأنه يريد للناس والإنسانية أن يتجددوا مع الحياة ، ولا يقفوا بها عند حد معين .

ولعل إيراد بعض آيات من مادة « العلم » فى القرآن يساند هذه القضية ، فالقرآن يقول ﴿ يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ ، ويقول ﴿ بل هو آيات بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ﴾ ، ويقول ﴿ شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائما بالقسط ﴾ ، ويقول ﴿ وزاده بسطة فى العلم ﴾ ، ويقول ﴿ هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ﴾ . فالعلم متغير ، متجدد ، قابل للتطور والارتقاء ، وليس كذلك العبادات . ومن هنا كانت دعوة الإسلام إلى العلم ، لأنها دعوة إلى التجديد فى الحياة .

وليس المقصود بالعلم هنا هو علم الدين كما فهمه بعض الجامدين من المسلمين ، وجاراهم فيه خبثاء المستشرقين والباحثين فى الإسلام « من أمثال « سيكار » الفرنسى الذى ملأ مجلة « مراكش الكاثوليكية » فى الثلاثينات من هذا القرن بادعاءات وطعون فى الإسلام زعم فيها أن الإسلام لم يدع إلى العلم بمفهومه العام ، ولكنه دعا إلى علم الدين ، وذلك ليجرد الإسلام من فضيلة الدعوة إلى العلم مطلقا والحث عليه .. ونسى المسكين الحديث النبوى (اطلبوا العلم ولو فى الصين) فلو كان العلم هنا دينيا ما دعا النبى إلى طلبه فى الصين ، لأن أهلها من عباد الأوثان .. وهذا الحديث مما رواه العقيلى ، وابن عدى ، والبيهقى وابن عبد البر عن أنس .

والإسلام — فى دعوته إلى التجديد والانطلاق فى آفاق الكون ، والنظر فى ملكوت السموات والأرض ، وعدم الجمود عند حد معين — لم يجر على سنن غريب عليه ، وليس منه .. فهو فى ذاته مجدد مصلح منذ أن دعا النبى إلى سبيل ربه .. وهو أبو التجديد ورائده .. وخاصة فى كثير من شئون التشريع ، فقد أتى على نظم الجاهلية وأدخل عليها من التجديد والإصلاح ما جعله حريا بأن يوصف بالتجديد لا بالجمود ..

لقد قلل من تعدد الزوجات وكان مطلقا بلا قيود ، وجعل نظام الميراث يتسع ليقبل المرأة والصغار من أبناء الميت . فقد روى عن ابن عباس أنه قال « لما نزلت الفرائض التى فرض الله فيها للولد الذكر والأنثى والأبوين كرهها الناس وقالوا : تعطى المرأة الربع والثمن ، وتعطى الابنة النصف ، ويعطى الغلام الصغير ، وليس من هؤلاء أحد يقاتل القوم ولا يحوز الغنيمة » . وهذا يدل على أنهم كانوا فى الجاهلية لا يورثون النساء ولا الصغار من أبناء الميت ، وإنما يورثون من يلاق العدو ويقاتل فى الحروب .

وإذا كان الإسلام قرينا للتجديد وداعيا له ، فما بال المسلمين قد تأخروا — وخاصة فى القرون الأخيرة إلى اليوم ؟ الحق أن هذا التأخر ليس من الإسلام ، ولكنه من المسلمين حين جمدوا وركنوا إلى التوقف ، بل مالوا إلى معاداة العلم ومحاربة الإصلاح وسدوا على أنفسهم باب الاجتهاد . وإلا فكيف نعلل ازدهار الإسلام وقوة المسلمين وتقدمهم فى القرون الأولى للإسلام ، وتأخرهم وهوانهم على الناس وعلى أنفسهم فى العصور الأخيرة ، مع أن الدين واحد والعبادات واحدة ؟ الحق أن طرائق المسلمين الآن غير طرائق المسلمين السابقين ، فليس غريبا أن تتفرق بهم السبل عن سبيل الله .

الفصل السابع

الدعوة الإسلامية وتطور الإعلام الإسلامى

نحاول فى هذا الفصل أن نعرض عرضا سريعا لتطور الإعلام الإسلامى، فى إطار منهج الدعوة الإسلامية عبر التاريخ فيما بعد البعثة النبوية المباركة.. فى محاولة لتحليل الوسائل التى اتبعت فى نشر الإسلام بالإعلام وحده، ودور الدعاة والتجار فى هذا المجال تأسيسا على أن إنتشار الإسلام لم يتم بالفتح وحده، لا سيما فى الشرق الأقصى على شواطئ المحيط الهادى، وأواسط وجنوب إفريقيا. ولذلك نحاول أيضا أن نعرض عرضا خاطفا لكيفية دخول عشرات الملايين فى الإسلام بدافع الاقتناع الذاتى عبر وسائل الإعلام المختلفة باختلاف العهود والعصور.

منهج الإعلام الإسلامى:

ذلك أن القرآن الكريم قد حدد منهج الدعوة الإسلامية، وهو المنهج الذى يدحض حجج بعض المستشرقين حول كون القوة عاملا هاما فى انتشار الإسلام. فالمنهج القرآنى فى الإعلام الإسلامى يتضح من الآيات الكريمة التالية:

﴿ لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى ﴾ البقرة ٢٥ .

﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ﴾ النحل ١٢٥ .

﴿ لكم دينكم ولى دين ﴾ الكافرون ٦ .

﴿ فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب ﴾ النحل ١٤٢ .

﴿ فذكر إنما أنت مذكر ٭ لست عليهم بمسيطر ﴾ الغاشية ٢١ ، ٢٢ .

وهذا المنهج القرآنى هو الذى جعل الكثير من الناس يدخلون فى الإسلام حبا وطواعية واقتناعا لا خوفا من السيف، بل إنهم احتملوا السيف فى سبيل الله على نحو ما نعرف عن مسلمى مكة. أما مسلمو المدينة فقد أقبلوا على الإسلام معتنقين مقتنعين، ذلك أن الإيمان بالله وحده هو أساس قيام المجتمع الإسلامى فى الماضى والحاضر والمستقبل. وعن هذا الإيمان تتحقق أهداف الإعلام الإسلامى فى تقوية أواصر الترابط وحسن العلاقات بين الأفراد والشعوب، والاستعداد والإعداد للدفاع عن الحق والمثل العليا.

الدعوة الإسلامية لم تنتصر بالسيف :

من أجل ذلك لم تنتصر الدعوة الإسلامية فى غزوة أو معركة فحسب ، وإنما انتصرت انتصارا كونيا غير مجرى التاريخ ، ونظم مسيرة الإنسان فى العالم . ولقد سئل رسول الله ﷺ : « الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى ، فمن فى سبيل الله ؟ » . قال (من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله) . ومن هذا الحديث ومن منهج القرآن فى الدعوة الإسلامية يتكشف لنا منهج الإعلام الإسلامى فى الإقناع بالحجة والمجادلة والموعظة الحسنة . ذلك أن الحروب والفتوحات فى الإسلام لم يقصد منها إكراه أحد على الدخول فى الإسلام ، وبذلك استبعد الإسلام « جميع الحروب والفتوحات التى تثيرها العصبية الدينية بهذا المعنى ، والتى ذاق العالم من ويلاتها لا فى الحروب الصليبية المعروفة فحسب ، ولا فى الاضطهاد الأسبانى للمسلمين فى الأندلس فحسب ، بل فى كثير من بقاع الأرض ، وفى كثير من أدوار التاريخ ، والتى ما تزال البشرية إلى يومنا هذا تتجرع مرارتها وإن كانت تتخفى تحت عنوانات أخرى غير عنوان التعصب الدينى[١] .

ولقد تبين فى الفصل السابق كيف أن الإعلام الإسلامى إعلام إنسانى ، يستبعد من حسابه الحروب كما يستبعد سيادة عنصر أو تغليب جنس . فالناس قد جعلوا شعوبا وقبائل ليتعارفوا ، لا ليستذل بعضهم رقاب بعض ولا ليسود جنس أو شعب . ومن ثم يتعين باعث واحد وهدف واحد للفتح الإسلامى هو الذى قال عنه الرسول ﷺ (لتكون كلمة الله هى العليا) .

ويتضمن هذا المنهج الإسلامى فى الإعلام أن يصبح الإسلام لله هو دين البشرية كافة ، يقول الله تعالى ﴿ إن الدين عند الله الإسلام ﴾ ، ﴿ ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه ﴾ . وما كان الجهاد إلا سبيلا لبلوغ تلك الغاية السامية ، بعيدا عن الإكراه فى الدين . يقول الله تعالى ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ ﴾ . فالاختيار والحرية من الظواهر الإنسانية فى الإعلام الإسلامى ، والإكراه والقسر من الوسائل الاستبدادية التى تتنافى وطبيعة الإسلام التى تكفل حرية الفرد فيما يعتقد ، كما تكفل حرية الإعلام الإسلامى . لأن الإكراه على الإيمان يضاد طبيعة الحياة التى يعيشها الإنسان على الأرض ، كما يضاد طبيعة الإنسان ذاتها التى يخاطبها الإعلام الإسلامى . وهذه الطبيعة الإنسانية هى التى كرمها الله سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم حين قال جل

---

(١) سيد قطب : دراسات إسلامية ، ص ٣٨

شأنه ﴿ وصوركم فأحسن صوركم ﴾ . غافر ٦٤ ، كما زود الله سبحانه وتعالى الطبيعة الإنسانية بالإدراك والشعور ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا ﴾ الإنسان ٢ . وهذا الإدراك الإنسانى هو الذى يتعامل معه الإعلام الإسلامى ، تاركا للإنسان الحكم على ما يرى أو يسمع أو يفكر ، وأن يرجح بين أشياء أو أطراف ويختار ما يرجح لديه بأنه أصوب أو أفضل .

فالإكراه مرفوض فى الإسلام الأمر الذى يجعل الإعلام الإسلامى ناهضا على أسس من الحرية الإنسانية فى الاعتقاد والإيمان ، وهو لذلك يتوسل إلى الطبيعة الإنسانية بالإقناع الإنسانى المهذب الذى حدد منهجه القرآن الكريم فى الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة التى هى أحسن .

والجهاد فى الإسلام يمهد الطريق لحرية الإعلام الإسلامى ، بقوله تعالى ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ﴾ . ذلك أن الجهاد يتيح للإعلام الإسلامى أداء الرسالة من خلال مقاومة القوى المادية التى تتمثل فى الجبابرة والطغاة والأكاسرة ، لتهيئة مناخ حرية الدعوة وحرية الاعتقاد وحرية الإعلام الإسلامى . فكل قوة مادية تقوم فى وجه هذه الحرية هى قوة معتدية ، وفى هذا السبيل كان الجهاد وكانت الفتوح الإسلامية فى عهدها الأول حيث انتشر الإسلام فى داخل الجزيرة وخارجها . ولم يتقرر الجهاد إلا فى حالة من حالتين : الوقوف بالقوة المادية فى وجه الدعوة السلمية والإعلام الإسلامى ، أو الاعتداء على حرية العقيدة وفتنة المسلمين عن دينهم أفرادا أو جماعات .

الفتوحات الإسلامية وانتصار الدعوة :

فالفتوح الإسلامية إذن كانت تستهدف تحقيق رسالة الإسلام ليكون هو دين البشرية كافة ، لا عن طريق الإكراه ، ولكن عن طريق الدعوة والإقناع والإعلام . « وضمانا لحرية الدعوة ، ولحرية العقيدة ، ساقت الجيوش وخاضت المعارك ، وفتحت البلاد بعد أن قدمت الدعوة بين يديها وأعلنت أنها الغاية الأولى والأخيرة .

ومن ثم تتهاوى جميع الأباطيل والمفتريات التى تقوّلها الغربيون على الفتوحات الإسلامية . طبيعتها وبواعثها ، والتى نشأ بعضها عن التعصب الدينى ضد الإسلام والمسلمين ، ونشأ البعض الآخر عن سوء التفسير بسبب قياس المؤرخين الغربيين لفتوحات الإسلام على فتوحاتهم هم ، وقياس بواعث الفتوحات الإسلامية على الفتوحات الإمبراطورية الاستعمارية عندهم فى القديم والحديث »[1] .

---

(١) سيد قطب : المرجع السابق ، ص ٤٢

وقد نجح الإعلام الإسلامى فى أداء رسالته النابعة من الإسلام كعقيدة يقوم عليها نظام اجتماعى متميز عن سائر النظم الاجتماعية التى عرفتها البشرية، ومن خصائص الإسلام التى أدت إلى نجاح الإعلام الإسلامى أن الإسلام عالمى مبرأ من العصبية العنصرية ومن التعصب الدينى، ومن ثم فهو يسمح لكل إنسان أن ينضم إلى موكبه فى يسر، وأن يتمتع فور اعتناقه بكافة الحقوق التى يتمتع بها أول مسلم من أى جنس ومن أى قبيلة. ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ الحجرات ١٣

ومن الصور الرائعة فى الإقناع عند الدعاة الأوائل فى الإسلام ما يرويه المؤرخون حول قصة خالد بن الوليد والرومى جورج أو جورجة كما يرد فى بعض المصادر الإسلامية القديمة. وهى قصة تتضمن ثلاثة دلالات لها صلة بموضوعنا هذا من قرب، وتعنى.

أولا ـــ أن الدعاة المسلمين على الرغم من أنهم قد أكرهوا على القتال فإنهم أبلوا بلاء حسنا وجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده، وفى الوقت نفسه لم يضرهم النصر بالسيف ويدفع بهم إلى الإمعان فى القتال، بل كانوا يؤثرون الدعوة السلمية بالإقناع والمجادلة والموعظة الحسنة على الاستمرار فى القتال.

ثانيا ـــ أن موقف خالد مع القائد الرومى كشف عن منهج الإعلام الإسلامى من حيث التدرج فى الإقناع والصبر عليه والصدق فيه، الأمر الذى يجعل المتلقى فى هذه الحالة يقبل على الدعوة الإسلامية إقبال المحب المقتنع الذى يتحول إلى مدافع عنها بكل ما يملك من غال ونفيس.

ثالثا ـــ أن الحوار والجدل بين خالد وبين القائد الرومى جورج انتهى بالتأكيد على ما سبق أن ذكرناه حول عالمية الإسلام وتبرئته من العصبية العنصرية والدينية، فأكرم الناس عند الله أتقاهم فى الإسلام.

فالقائد الرومى جورج يخرج من معسكره متحديا أمير جيش المسلمين خالد بن الوليد أن يبرز له. فلما برز له وتقاربا بجواديهما وقد أمن كل منهما صاحبه دار الحوار الآتى بصوت خفيض:

ـــ أصدقنى ولا تكذبنى يا خالد فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع.

ـــ فيم يا جورج؟

ـــ هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكه؟ فلا تسله على قوم إلا هزمتهم؟

— لا والله.

— لماذا سميت بسيف الله إذن؟

— إن الله سبحانه بعث فينا نبيا دعانا، فنفرنا ونأينا عنه، ثم إن بعضنا كذبه وباعده وقاتله.

— وهل كنت من ذلك البعض؟

— نعم، ثم إن الله أخذ بقلوبنا فهدانا به فتابعناه.

— أهو الذى سماك سيف الله؟

— نعم. قال (أنت سيف من سيوف الله سله على المشركين).

— وإلام تدعونى؟

— إلى شهادة ألا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، والإقرار بما جاء به من عند الله.

— وما منزلة من يدخل فيكم اليوم؟

— منزلتنا واحدة فيما فرض الله علينا شريفنا ووضيعنا، أولنا وآخرنا.

— وهل لمن دخل فيكم اليوم مثل ما لكم من الأجر؟

— نعم وأفضل.

— كيف يساويكم وقد سبقتموه؟

— إنا دخلنا فى الإسلام وبايعنا نبيه وهو حى بين أظهرنا تأتيه أخبار السماء ويخبرنا بالكتب ويرينا الآيات.. وحق لمن يرى ما رأينا ويسمع ما سمعنا أن يسلم ويبايع. وأنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج.. فمن دخل اليوم فى الإسلام بحقيقة ونية صادقة كان أفضل منا.

— والله لقد صدقتنى. أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله.

بهذا التدرج فى الإقناع يتضح ما نعنيه بإنسانية المنهج فى الإعلام الإسلامى. واعتباره أن السيف مجرد وسيلة لتهيئة المناخ الملائم للدعوة التى تعتبر هى الأصل، والسيف هو الاستثناء.

ولذلك يمكن القول أن الإعلام الإسلامى — لكونه إنسانيا يحرص على إقناع البشر بقيم الإسلام الخالدة — استطاع أن يفيد من الفتوح الإسلامية فى الإقناع الخالص، لأن هذه الفتوح هيأت حرية الإعلام والدعوة وحرية العقيدة والعدالة المطلقة لجميع الناس.

بل إن الصليبيين حينما جاءوا إلى الشرق إبان ضعف الخلافة العباسية بهدف محاربة الإسلام والقضاء عليه، لم يتحقق لهم حلمهم، وإنما اعتنق الإسلام جموع كثيرة منهم

انخرطت فى صفوف المسلمين تحارب أبناء دينها الأول من الصليبيين . يقول توماس أرنولد «لقد اجتذبت الدعوة المحمدية إلى أحضانها من الصليبيين عددا مذكورا حتى العهد الأول ، أى فى القرن الثانى عشر ، ولم يقتصر ذلك على عامة النصارى بل إن بعض أمرائهم وقادتهم انضموا أيضا إلى المسلمين حتى فى ساعات انتصار المسيحيين» .

وحينما تعرض الإسلام لهجمات المغول الضارية وقف رجاله فى مواجهتها بالعقيدة ، وسرعان ما دخل المغول فى الدين الذى حاربوه . يقول سير توماس أرنولد « لا يعرف الإسلام من بين ما نزل من خطوب وويلات خطبا أعنف قوة من غزوات المغول ، فلقد انسابت جيوش جنكيز خان ، واكتسحت فى طريقها العواصم الإسلامية وقضت على ما كان بها من مدنية وحضارة ، على أن الإسلام لم يلبث أن نهض من رقدته وظهر من بين الأطلال ، واستطاع بواسطة **دعاته** أن يجذب أولئك الفاتحين البرابرة ويحملهم على اعتناقه » .

ويذهب المؤرخون المنصفون[1] ، إلى أنه لا علاقة بين انتشار الإسلام وبين حروب المسلمين مع الفرس والروم . فقد كانت الحروب تشتعل وكان المسلمون ينتصرون ، ثم تتوقف الحروب وتتوارى السيوف ، وحينئذ يتقدم الدعاة ورجال الإعلام الإسلامى فيشرحون نظم الإسلام ومبادئه ، وكانت هذه الدعوة السمحة تجذب لها الناس وبخاصة عندما رأت الشعوب المغلوبة الفرق الكبير بين حكم قيصر وطغيانه ، وبين بساطة عمر ابن الخطاب وسماحته وتواضعه . وبالدعوة والإعلام الإسلامى دخل الناس أفواجا فى الدين الجديد ، فمنهم من أسرع فى اعتناقه ، ومنهم من دخل بعد عام أو خمسة أعوام أو عشرة أو مائة .

ويقول أحدهم « إن غالبية أهل الشام ومصر السفلى فى القرن التاسع الميلادى كانت لا تزال مسيحية ، على الرغم من أن الإسلام كان قد مضى عليه فى هذه البقاع أكثر من قرنين »[2] .

فالإسلام لا يكره أحدا على اعتناقه ، ولذلك يجىء الإعلام الإسلامى ليقوم بالإقناع والموعظة الحسنة ، على نحو ما نعرف من دخول الإسلام إفريقية كما يقول أحد المستشرقين ذلك أن الإعلام الإسلامى قد توسل بالثقافة والفكر والدعوة ، فانتشر الإسلام بين شعوب البربر ، وقامت خلف الصحراء دول إسلامية لعبت فى التاريخ دورا كبيرا[3] .

---

(١)،(٢) د . أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية ، ج ١ ، ص ٢٧٩

(٣) د . أحمد شلبى : المرجع السابق ، ص ٢٨٠

وعن انتشار الإسلام فى إفريقية يقول الكاتب المسيحى الفرنسى هوبير ديشان حاكم المستعمرات الفرنسية بإفريقيا حتى سنة ١٩٥٠(١).

« إن انتشار دعوة الإسلام بإفريقيا لم يقم على العكس وإنما قام على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بدينهم ، وكثيرا ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمى البطىء من قوم إلى قوم ، فكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية وهى هدف الدعاة الأول تبعتها بقية القبيلة . وقد يسر انتشار الإسلام أمر آخر هو أنه دين فطرة بطبيعته ، سهل التناول ، لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه ، سهل التكييف والتطبيق فى مختلف الظروف ، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأيسر ، إذ لا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح فى عداد المسلمين . وقد حبب الإسلام إلى الإفريقيين مظاهره البعيدة عن التكلف ، مثل الثوب الفضفاض والمسبحة والكتابة العربية والوقار الدينى وشعائر الصلاة ، مما يضفى على المسلم مكانة مرموقة وجاذبية ساحرة ، فالذى يدخل فى الإسلام ولو فى الظاهر يشعر بأنه أصبح ذا شخصية محترمة ، وأنه قد ازداد من القوة والحيوية » .

تلك شهادة شاهد من أهلهم تؤكد الحقيقة التاريخية للانتشار الإسلامى بالإقناع والإعلام ، وتدحض ما يزعمه الزاعمون حول انتشار الإسلام بالسيف .

الإعلام الدولى والاتصال التدوينى فى عهد الرسول :

وهكذا دخل الناس ويدخلون إلى ما شاء الله فى الإسلام أفواجا ، فحينما كان الرسول ﷺ فى حجة الوداع آخر سنة عشر من الهجرة ، دان بالإسلام فى حياته أكثر من مائة ألف ، والذين لم يكونوا معه فى هذه الحجة أكثر منهم أضعافا مضاعفة ، فلقد تمكن الإسلام من أنفس هؤلاء جميعا ، ولما كان الإعلام الإسلامى عاما بنص القرآن الكريم ، توسل الرسول ﷺ بالإعلام التدوينى إلى جانب الإعلام الشفهى والاتصال الشخصى والجمعى ، فأرسل كتبه ودعاته إلى الملوك ورؤساء الأمم يدعوهم إلى الإسلام حتى لا يكونوا ممن يصد عنه أو يقف فى سبيل دعوته .

وقد اختار عليه السلام من أصحابه رسلا لهم معرفة وخبرة بالإعلام الإسلامى وأرسلهم إلى الملوك ، فاختار دحية بن خليفة الكلبى رسولا إلى ملك الروم وكتب له كتابا هذا نصه :

---

(١) هوبير ديشان : الديانات فى إفريقية السوداء ، ص ١٢٨ — ١٢٩ — د . أحمد شلبى : المرجع السابق ، ص ٢٨١

(بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم . السلام على من اتبع الهدى . أما بعد ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، وإن تتول فإن إثم الأكارين عليك) .

وتحفل المصادر بروايات مختلفة عن كيفية استقبال هرقل لدحية ، وإن كانت تجمع جميعا على الأثر الإيجابي لرسالة النبي ﷺ ، ومن ذلك أن هرقل بمجرد أن قرأ الكتاب استدعى أعوانه ودعاهم إلى اتباع ما بشر به كتابهم المقدس من قبل من أمر محمد الوارد في الإنجيل ، وكان رد الفعل من جانبهم مباشرا ومخالفا لما أراد ، فما كان منه إلا أن رجع عن قولته الأولى وخاطبهم بقوله إنه إنما قال ما قال ليتأكد من مدى اقتناعهم بدينهم ، وقد تبين له ذلك بما لا يدع مجالا للشك .

وتذكر رواية أخرى عن ابن إسحاق ، أن هرقل قال لدحية حين بلغه الكتاب « ويحك ! والله إني لأعلم أن صاحبك نبي مرسل ، وأنه الذي كنا ننتظره ونجده في كتابنا ، ولكني أخاف الروم على نفسي ولولا ذلك لاتبعته ، فاذهب إلى ضغاطر الأسقف فاذكر له صاحبكم ، فهو والله أعظم في الروم مني وأجوز قولا عندهم مني ، فانظر ما يقول لك » . قال فجاءه دحية فأخبره بما جاء به رسول الله ﷺ إلى هرقل وبما يدعوه إليه ، فقال ضغاطر : صاحبك والله نبي مرسل نعرفه بصفته ونجده في كتابنا باسمه . ثم دخل فألقى ثيابا كانت عليه سوداء ولبس ثيابا بيضاء ، ثم أخذ عصاه فخرج على الروم وهم في الكنيسة فقال : يا معشر الروم إنه قد جاءنا كتاب من أحمد يدعونا فيه إلى الله عز وجل ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن أحمد عبده ورسوله . قال فوثبوا عليه وثبة رجل واحد فضربوه حتى قتلوه . فلما رجع دحية إلى هرقل فأخبره الخبر قال : قد قلت لك إنا نخافهم على أنفسنا ، فضغاطر والله كان أعظم عندهم وأجوز قولا مني .

واجتمع الروم على حرب المسلمين حينما بلغهم مجيء زيد بن حارثة ومن تبعه وكانت وقعة مؤتة ، كأنهم أرادوا أن يستأصلوا الأمر قبل استفحاله . ولكن القرآن الكريم كان قد حدث المسلمين من قبل عن هزيمة الروم « سورة الروم ١ » ، وفي ذلك صورة من صور الإعجاز الإعلامي في القرآن الكريم ، وإخباره عن أمور وقعت في المستقبل وما كان لأحد أن يعلمها إلا من قبل العليم الحكيم اللطيف الخبير الذي لا يغيب عن علمه شيء في السماء ولا في الأرض . ومن ذلك إخبار القرآن الكريم عن هزيمة الفرس بعد غلبهم ، فقال سبحانه ﴿ آلم ، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، في بضع سنين ﴾ الروم ١ — ٤

وقد حدث ما أخبر به القرآن .. فقد دارت رحى الحرب من بعد ذلك وهزم الفرس فى بضع سنين ، وما كان النبى ﷺ ممن حضر هذه الحرب وعرف سبب الغلب وما يتوقع من بعده .

ولقد توسل النبى ﷺ بالإعلام التدوينى فى الدعوة الإسلامية والاتصال الدولى ، فبعث عليه السلام شجاع بن دهب من بنى أسد بن خزيمة إلى المنذر بن الحارث بن شمر الغسانى صاحب دمشق وكتب إليه (سلام على من اتبع الهدى وآمن بى . إنى أدعوك إلى أن تؤمن بالله وحده لا شريك له يبقي لك ملكك) . ولما وصله الكتاب قال « من ينزع ملكى منى ؟ أنا سائر إليه » ، ولم يسلم . وبعث عمرو بن أمية الضمرى إلى النجاشى بكتاب يدعوه فيه إلى الإسلام ويطلب منه أن يرسل جعفرا ومن معه من مهاجرى الحبشة . ففعل النجاشى ما طلب منه فأرسل جعفرا وأجاب إلى الإسلام . كما أعلن بكتابه ، ولما بلغ الرسول وفاته صلى عليه بالمدينة .

كما بعث عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ومعه كتاب فيه (بسم الله الرحمن الرحيم . من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس . سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله ، وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حيا . أسلم تسلم فإن أبيت فإنما عليك إثم المجوس) .

فمزق كسرى كتابه ، ولما بلغ ذلك رسول الله ﷺ قال (مزق الله ملكه) . ثم كتب كسرى إلى باذان عامله على اليمن : ابعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به . فاختار باذان رجلين ممن عنده وبعثهما بكتاب إلى رسول الله يأمره أن ينصرف معهما إلى كسرى . فلما قدما المدينة وقابلا النبى ﷺ قال أحدهما « إن شاهنشاه ملك الملوك كسرى قد كتب إلى الملك باذان يأمره أن يبعث إليك من يأتيه بك ،وقد بعثنى إليك لتنطلق معى » وقالا قولا تهديديا . فى ذلك الوقت كان شيرويه بن كسرى قد قام على أبيه فقتله وأخذ الملك لنفسه ، وعلم رسول الله الخبر من الوحى فأخبرهما بذلك فقالا « هل تدرى ما تقول ؟ إنا قد نقمنا عليك ما هو أيسر من هذا ، أفنكتب هذا عنك ونخبره الملك ؟ » قال (نعم أخبراه ذلك عنى ، وقولا له إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسرى وينتهى إلى منتهى الخف والحافر ، وقولا له إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك وملكتك على قومك من الأبناء) . فخرجا من عنده حتى قدما على باذان فأخبراه الخبر ، وبعد قليل جاء كتاب بقتل شيرويه لأبيه ، وقال له شيرويه فى كتابه « انظر الرجل الذى كان كتب فيه أبى إليك فلا تهجه حتى يأتيك أمرى » . وكان ذلك سببا فى إسلام باذان ومن معه من أهل فارس باليمن وهم الأبناء .

وبعث حاطب بن أبى بلتعة إلى المقوقس عظيم مصر فلم يسلم ، وهو الذى بعث إلى رسول الله ﷺ بمارية القبطية أم إبراهيم ، فكان بذلك رحم بين العرب وأهل مصر . وبعث سليط بن عمرو العامرى إلى هوذة بن على الحنفى ؛ وبعث العلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى صاحب البحرين ، وعمرو بن العاص إلى جيفر وأخيه عباد الأزديين .

بذلك كان عليه السلام قد بلغ الدعوة إلى أكثر ملوك الأرض يعلنهم بدعوته ويطلب منهم اتباعه ، وكان هذا الإعلان سببا فى إجابة البعض وشاغلا لفكر الآخرين . فلم يلحق بربه إلا ومعظم الجزيرة العربية قد دخلت فى الإسلام ، ومعظم الناس فى البلدان الأخرى قد بدأوا يفكرون فى هذا الدين الجديد ويتناقلون أخباره ، إلى أن تمت الفتوحات فدخلوا فيه أفواجا إذ كانوا قد هيئوا لذلك من قبل .

وهكذا يمكن القول إن انتشار الإسلام لم يتم بالفتح وحده ، وإنما كان الفتح بمثابة تمهيد الطريق أمام حرية الإعلام الإسلامى وإتاحة الفرصة أمام رجاله ليبلغوا الرسالة ويؤدوا الأمانة ، لأن الرسول ﷺ بعث رحمة للعالمين . وكان العالم فى تلك العصور يئن تحت نير ظلم الطغاة والأباطرة المستبدين الذين لا يقرون حرية الإعلام الإسلامى ، ولا يمكنون الرسول عليه الصلاة والسلام من أداء رسالته ، ومن هنا كانت فريضة الجهاد . يقول الله تعالى فى كتابه الكريم ﴿ الذين آمنوا يقاتلون فى سبيل الله والذين كفروا يقاتلون فى سبيل الطاغوت فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا ﴾ النساء ٧٦

الجهاد وحرية الإعلام الإسلامى :

فحرية الإعلام الإسلامى تقتضى الجهاد بهدف الحفاظ على الإيمان بالله ونشر كلمته . يقول الله تعالى فى كتابه الكريم ﴿ إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوّان كفور ◌ أُذن للذين يقاتلون بأنهم ظُلموا وأن الله على نصرهم لقدير ◌ الذين أُخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله ولولا دفعُ الله الناسَ بعضهم ببعض لهُدمت صوامع وبيَع وصلوات ومساجد يُذكر فيها اسم الله كثيرا ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوى عزيز ◌ الذين إن مكّناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور ﴾ الحج ٣٨ — ٤١

فوعد الله سبحانه وتعالى المؤمنين بنصره أمر قرره القرآن الكريم ، ويصفهم الله تعالى بأنهم إذا مكّن لهم فى الأرض وهيأ لهم حرية الإعلام الإسلامى حققوا إيمانهم بالله

فى مظاهره من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وأداء رسالة الإعلام الإسلامى من أمر بالمعروف ونهى عن المنكر . يقول الله تعالى فى كتابه الكريم ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلى الكبير ﴾ الحج ٦٢

ومن هنا كانت الفتوحات الإسلامية تمهيدا لحرية الإعلام الإسلامى ، فأقبل الناس فى مشارق الأرض ومغاربها على اعتناق الإسلام لقوته الذاتية ، وما يتضمنه من مبادئ كريمة ومثل عليا . وكان أمام رجال الإعلام الإسلامى فى عهد الرسول ﷺ ومن بعده ، فى حياته أسوة حسنة ، وما تدل عليه من دلالة عميقة فى مسيرة الدعوة الإسلامية . . الدعوة إلى هداية الله . وليس هناك تعبير عن الإخلاص الكامل لله أبلغ من أن تكون حياة صاحب الدعوة إليه كلها وقفا على عبادته والتوجه إليه ، بحيث يصبح صاحب الدعوة المثل الأول للإنسان المؤمن منهجا وتطبيقا . ظهر هذا المغزى العميق فى انتشار الإسلام داخل الجزيرة العربية أولا ، ثم ما سمع عنه الفرس والروم وعن انتصاراته وعن مبادئه السمحة بعد ذلك ، لأنهم لأول مرة يسمعون عن دين يدعو إلى المساواة بين الناس ولا يجعل فضلا لعربى على أعجمى إلا بالتقوى . فكان الفرس يدركون أن جنودهم يحاربون دون رغبة حتى اضطر القائد الفرسى فى نهاوند أن يقيد جنوده بالسلاسل حتى لا يفروا ، وسميت هذه الموقعة « موقعة ذات السلاسل » . وفعل الروم مثل ذلك أيضا ، وانتشر فى فارس مبدأ الحق الإلٰهى المقدس ، وكانوا مع الروم فى معارك متصلة . وكانت الشعوب تضج تحت حكم الرومان ، ولذلك كثيرا ما رحبوا بحكم المسلمين وانضموا إليهم فى الكفاح . يروى البلاذرى أن المسلمين بعد أن أخذوا حمص أعد الرومان جيشا كبيرا ليستعيدوا به هذه المدينة ، ولكن أهل حمص انضموا للمسلمين وقالوا « لولايتكم وعدلكم أحب إلينا مما كنا فيه من الظلم والغشم ، ولندفعن جند هرقل عن المدينة معكم » . وأقسموا ألا يدخل عامل هرقل المدينة إلا إذا غلبوا . ويقول كيرك Kirk (١) « إن غمار أهل المدن والريف فى دول الشرق الأوسط الخاضعة للروم كانوا يعيشون فى ضنك من جراء ثقل الضرائب الباهظة وفساد الموظفين ، فلم يدينوا بشيء من الولاء لهذا الحكم ، ومن جهة أخرى نجد الكنيسة المسيحية باصطباغها الصبغة الرسمية دخلت فى دور الجمود المسيطر على رجال الحكم ، ولم يبق فى الكنيسة شيء من الإخاء الذى امتاز به صدر المسيحية ، وحصل انشقاق فى الكنيسة كان عامل الوطنية من أسبابه ولو أنه اتخذ شكلا دينيا حول تفسير طبيعة المسيح . ولم تثمر محاولات

---

(١) موجز تاريخ الشرق الأوسط ، ص ١٤ — د . أحمد شلبى : المرجع السابق ، ص ٣٩٤

التقريب بين الطوائف المسيحية لأن الكنائس المحلية ببلول الشرق الأوسط كانت تبغض الأباطرة وحكوماتهم ، فكانت النتيجة أن توقفت محاولات الأباطرة لاسترضاء شعوب الشرق الأوسط وحلت محلها اضطهادات شنيعة وحشية ، فاتسعت الهوة بذلك بين الفريقين إلى الأبد . وتطورت الأمور فى بلاد شرق البحر الأبيض المتوسط حتى بلغت الحد الذى يجعلها لقمة سائغة لأى فاتح يعرض عليهم من الحرية فى شئونهم ما لم ينالوه على يد أباطرة الرومان .

« وكانت الفرس تستعمر بلاد العراق ، وكان الاضهاد الدينى ببلاد الفرس على أشده . وضعف سلطان الساسانيين الذى امتد حوالى أربعة قرون ، وزال حكم يزدجرد الثالث آخر ملوكهم وكان شابا فى الحادية والعشرين قليل التجارب ورث دولة ضعيفة لا يستطيع المسير بها فى ركب الحياة » .

وفى ضوء هذه الاعتبارات كانت الفتوحات الإسلامية سبيلا لتوفير حرية الإعلام الإسلامى فى عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم ، ونذكر هنا ما قاله الدكتور حتى فى كتابه تاريخ العرب :

« كان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوما من بنى جنسهم يربطهم بهم ما لا يربطهم بأولئك الحكام السابقين الذين كانوا من الأجانب الغاصبين . فالفتوحات الإسلامية من هذه الوجهة هى عند التحقيق انقلاب اجتماعى سياسى استرد به الشرق الأدنى مجده السامى الغابر ، فقد جاء الإسلام مهيبا بالشرق إلى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب ، فاستطاع الشرق بالإسلام أن يسترجع ما فيه لا فى ميدان السياسة فحسب بل فى ميدان الثقافة أيضا ، حيث تسنى له أن يعيد قيادته الفكرية » .

ويقول كيرك kirk (١) « ورأى الأهلون فى المسلمين المساواة التى كانوا لا يحلمون بها ، وقام المسلمون بكثير من الإصلاحات التى تتصل بالقضاء والشرطة والطرق والرى والهندسة والجسور . وكان القانون الإسلامى يسرى على المسلمين فقط . أما غير المسلمين فقد ترك الفصل فى شئونهم للقانون المدنى الذى كان معمولا به قبل الفتح ، ووضع أمر تنفيذه فى يد رؤسائهم الدينيين . وهذا هو منشأ استقلال الطوائف الدينية بشئونها المالية ، ذلك النظام الذى ظل سائدا فى البلاد الإسلامية إلى وقت انهيار الدولة العثمانية ، والذى لا يزال معمولا به فى الشئون المالية فى معظم ممالك الشرق الأوسط التى لم يوحد فيها القضاء بجعله مدنيا بحتا لا دخل فيه للشريعة » .

---

(١) Kirk: A Short History of The Middle East, p. 29

فى هذا المناخ الذى وفره الفتح الإسلامى ، قام رجال الإعلام والدعوة الإسلامية يؤدون رسالتهم الإعلامية فيتحدثون عن الإسلام وأخلاقه ومبادئه ، ومن غير إكراه أقبل أهل هذه البلدان على الإسلام معتنقين . وانتشر الإسلام وانتشرت معه اللغة العربية .. لغة القرآن والإعلام الإسلامى . وأفاد الإعلام الإسلامى من التنظيمات الحضارية فى الدولة الإسلامية ، ذلك أن الإسلام دعوة إلى الحق ، وهو ما جاء به القرآن الكريم خاصا بهداية الناس وبطلب الإيمان بما أنزل فيه من تحديد للصراط المستقيم . وهو فى جانب الدعوة إلى الحق لا يجعل للمؤمنين ولاية على قوم ، ويمنعهم من أن يمارسوا ضغطا أو إكراها فى أية صورة من صور الإكراه للإيمان والإسلام .

يقول الله تعالى ﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم إلى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم تعملون ﴾ المائدة ١٠٥

ومن هنا كان المنهج الإسلامى للإعلام واضحا ومحددا أمام رجال الدعوة الإسلامية ، فى توفير الحرية فى مشيئة الإنسان عندما يدخل فى الإسلام .

فالمنهج الإسلامى للإعلام والدعوة إذن يرفض الإكراه فى الدين والعقيدة ، كما يذهب إلى أن تكون الهداية واضحة تجعل قبول الإسلام لذاته ، كما أن إطار الرسالة الإسلامية للإعلام والدعوة إطار سلمى ، إطار قدوة للعمل الخير المستقيم . فلا يعظ الإعلامى الإسلامى بقول دون أن يحققه هو فى سلوكه ، ولا يرفع مبدأ أو شعاراً دون أن يطبقه التطبيق العملى فى حياته .

وبهذا المنهج سار الدعاة ورجال الإعلام الإسلامى فى كل البلدان يوجهون دعوتهم إلى الله ، فى إخلاص وتجرد عن الغل والحقد تجاه من لا يؤمن بهذه الدعوة بعد عرضها عليه ، مسترشدين بقول الله تعالى ﴿ فإن عصوك فقل إنى برىء مما تعملون ﴾ الشعراء ٢١٦

الإعلام الإسلامى فى إفريقية :

ونكتفى هنا بالحديث عن انتشار الإسلام فى إفريقية بالإعلام الإسلامى وحده ، والذى استغرق وقتا أطول من الفتوحات الإسلامية الأولى ، حيث زاد فى إفريقية على عشرة قرون . وعن انتشار الإسلام بالإعلام والدعوة فى إفريقية يتحدث الكاتب المسيحى هوبير ديشان الذى كان حاكما للمستعمرات الفرنسية بإفريقية سنوات طويلة ، وشاهد بنفسه تقدم الإسلام وانتشاره .

يقول « إن انتشار دعوة الإسلام بإفريقية لم تقم على القسر ، وإنما قامت على الإقناع الذى كان يقوم به دعاة متفرقون لا يملكون حولا ولا طولا إلا إيمانهم العميق بدينهم .

وكثيرا ما انتشر الإسلام بالتسرب السلمى البطىء من قوم إلى قوم ، فكان إذا ما اعتنقته الأرستقراطية وهى هدف الدعاة الأول ، تبعتها بقية القبيلة . وقد يسر انتشار الإسلام أمر آخر هو أنه دين الفطرة بطبيعته ، سهل التناول ، لا لبس ولا تعقيد فى مبادئه ، سهل التكيف والتطبيق فى مختلف الظروف ، ووسائل الانتساب إليه أيسر وأسهل ، إذ لا يطلب من الشخص لإعلان إسلامه سوى النطق بالشهادتين حتى يصبح فى عداد المسلمين(١) » .

وإذا كان « ديشان » قد أوضح أن نشر الإسلام بإفريقية كان بالسلم فإن كاتبا غربيا آخر يؤكد أن نشر المسيحية بهذه القارة كان يتم فى أكثر الأحوال قسرا وبالعنف والإلزام .

يقول سير توماس أرنولد Sir Thomas Arnold « فى سنة ١٨٧٨ عقد الملك جون مجمعا يضم رجال الكنيسة الحبشية ، وقرروا فيه وجوب الاقتصار على دين واحد فى كافة أنحاء المملكة ، وأُلزم المسلمون بالتعميد خلال ثلاث سنوات والوثنيون خلال خمس سنوات ، بيد أن الملك سرعان ما استطال هذه المهلة ، فأذاع بعد أيام قليلة مرسوما أنذر فيه كل الموظفين المسلمين بأن المهلة الممنوحة لهم هى ثلاثة أشهر فقط » .

ويعلق Massaia الذى ينقل عنه T. Arnold إن كثيرين من الموظفين خضعوا لهذا التنصير الإجبارى ولكنه كان تنصيرا عديم الأثر . ويروى أنه شاهد بعضا من هؤلاء يخرجون من الكنيسة بعد التعميد قاصدين المسجد يلتمسون فيه رجلا مباركا من رجال دينهم يمحو عنهم ما لحقهم من التعميد الذى أرغموا عليه » .

ويقول الرحالة روبل Rubbell إنه كثيرا ما لاحظ أثناء رحلاته ببلاد الحبشة ، أنه عندما يراد شغل منصب من المناصب التى تتطلب أن يكون الشخص أمينا كل الأمانة موثوقا به تمام الثقة ، كان اختيارهم يقع على شخص مسلم (٢) .

وفى ١٨٠٢ م أصدر مجلس العموم البريطانى بحثا يؤكد فيه أن الإسلام قد سما بالإفريقيين الذين اعتنقوه إلى درجة جعلتهم قدوة للآخرين ، وسببا للدخول فى الدين الإسلامى . ومن هذا البحث ما يلى :

« منذ مدة لا تزيد على سبعين عاما ، استقرت جماعة صغيرة من المسلمين فى بلاد تبعد عن سيراليون من ناحية الشمال بما يقرب من أربعين ميلا ، اسمها بلاد الماندنجو . وكما هى العادة عند فقهاء هذا الدين « الإسلام » فتح هؤلاء مدارس تدرس فيها اللغة

---

(١) هوبير ديشان : الديانات فى إفريقية السوداء ، ص ١٢٨ — ١٢٩

(٢) نقلا من توماس أرنولد : السابق ، ص ١٣٩

العربية والعقائد التى جاء بها محمد ، وجروا على عادات المسلمين وخاصة فى عدم بيع أبناء دينهم بيع الرقيق . وقد أقاموا لأنفسهم شرائع استخرجوها من القرآن واستأصلوا ما كان هناك من عادات تساعد على تخريب الساحل من السكان . وعلى الرغم من وجود كثير من اضطرابات قومية جلبوا إلى البلاد حضارة بلغت درجة عظيمة نسبيا ، كما جلبوا إليها الاتحاد والطمأنينة . وكان من أثر ذلك أن ازداد السكان زيادة سريعة ، وانتقل إلى أيديهم شيئا فشيئا كل النفوذ فى تلك الجهة من البلاد التى يقيمون فيها . أما هؤلاء الذين تعلموا فى مدارسهم فإنهم يسيرون نحو الثراء والقوة فى البلاد المجاورة للماندنجو ، ويعودون ومعهم قسط وافر من الدين والشريعة . وهناك رؤساء آخرون ينتحلون الأسماء التى اتخذها هؤلاء المسلمون لأنفسهم بسبب ما يقترن بها من احترام وتوقير . ويبدو أنه من الممكن أن ينتشر الدين الإسلامى فى أمن وسلام انتشارا سلميا فى كل المنطقة التى تقع فيها مستعمرة الماندنجو ، حاملا تلك المزايا التى تتغلب فيما يظهر دائما على خرافات الزنوج(١) .

ولقد كان موقف الإسلام من الرق والتمييز العنصرى سببا من الأسباب القوية التى دفعت بالإفريقيين إلى اعتناق الإسلام الذى جعل الناس سواسية أمام الله ، وكفل لهم الحرية ، وأتاح لهم فرص الحياة الإنسانية الكريمة . وكل هذا لم يجدوه فى غيره من الديانات أو النظم الوضعية .

وفى هذا المعنى يقول سير توماس أرنولد « ولا شك أن نجاح الإسلام قد تقدم فى إفريقية الزنجية تقدما جوهريا ، بسبب عدم أى إحساس باحتقار الأسود . وفى الحق يظهر أن الإسلام لم يعامل الأسود قط على أنه من طبقة منحطة كما كانت الحال لسوء الحظ فى العالم المسيحى » .

وإلى جوار ما سبق ذكره عن انتشار الإسلام بقوته الذاتية وإمكانياته الطبيعية وما يدعو إليه من قيم عليا ، نجد أن الداعية الإسلامى كان مثلا أعلى أمام هؤلاء الإفريقيين ، وكانت وسائله الإعلامية إسلامية فى مضمونها وشكلها مظهرها ومخبرها ، مما يجعلنا نقرر أنهم قد سبقوا كل ما ذهبت إليه النظريات الحديثة فى الإعلام حول ضرورة أن يكون المصدر محل ثقة على النحو الذى فصلناه فى غير هذا الموضع . وقد وصف D. J. E. Ast الدعاة المسلمين فى إفريقية بقوله « إنهم يحظون بأوفى نصيب من الإجلال .. وفى بعض قبائل إفريقية الغربية تضم كل قرية دارا لاستقبالهم والحفاوة بهم . وهم يعاملون بأعظم مظاهر الإقدام والتقدير . ففى دارفور يحتلون أعظم مكانة بعد

(١) Claude George: The Rise of British west Africa pp. 130 - 131.

هؤلاء الذين يشغلون أكبر مناصب الحكومة . كما يحتلون بين الماندنجو مكانة أعظم شأنا وينالون احتراما يلي مكانة الملك ، ولذلك يعتبر الرؤساء أقل منهم هيبة . وفى الدول التى اتخذ فيها القرآن أساسا للحكم فى كل المسائل المدنية ، تحتاج الدولة لخدماتهم احتياجا شديدا لكى يفسروا معانى القرآن . وقد بلغ من إجلال الناس لأشخاص هؤلاء المعلمين أنه لا يتعرض لهم أحد حين يجوسون خلال إمارات يعادى بعضها بعضا ، أو يباشر أصحابها مع بعضهم البعض حربا فعلية . ويبجلهم الناس مثل هذا التبجيل لا فى البلاد حيث يحترمهم الناس باعتبارهم معلمى أبنائهم ، ويعتبرونهم واسطة بينهم وبين الله ، سواء فى الحصول على حاجاتهم أو فى درء المصائب وصرفها عنهم .

الفصل الثامن

الإعلام الإسلامى فى حاضره

نواصل فى هذا الفصل دراسة الإعلام الإسلامى فى حاضره تأسيسا على أنه حقق خلال عصور الدعوة الإسلامية وظائفه المنشودة ، متوسلا بكل الوسائل الإعلامية المتاحة شفهيا أو تدوينيا أو هما معا .

تطور الإعلام الإسلامى فى وسائله :

ومن ذلك مثلا أن الإعلام الشعرى كان من الوسائل الإعلامية التى تجمع بين خصائص الحضارة السمعية والحضارة التدوينية ، فقامت قصائد حسان بن ثابت بدور كبير فى مناصرة صاحب الدعوة الإسلامية . ثم فى عصر بنى أمية وجد ما يسمى بالشعر السياسى على نحو ما نعرف عن جرير والفرزدق والأخطل والراعى . وازدهر هذا الشعرُ فى العصر السياسى الذى استخدم فى الدعاية المذهبية للسنة ، أو المعتزلة ، أو الشيعة والخوارج . ثم فى عهود الخلافة الفاطمية والسلطنة الأيوبية وعهد المماليك ، وهى العهود التى شهدت الحروب الصليبية ، كان للشعر المكان الأول فى الإعلام والدعاية . وبالشعر كما بالسيف نجح الفاطميون فى مصر ، وبالشعر كما بالسيف نجح صلاح الدين وأولاده فى محاربة الصليبيين وفى التغلب عليهم وطردهم من البلاد الإسلامية .

وبقيت للإعلام الشعرى مكانته ووظيفته السياسية والاجتماعية والإعلامية والدعائية إلى يومنا هذا . ففى كل حادث هام أو موقف من المواقف السياسية والاجتماعية الخطيرة ، نسمع صوت الشاعر إلى جانب صوت الصحفى .

أما الدور الذى لعبه الإعلام الخطابى دينيا وسياسيا فى تاريخ العرب الدينى والسياسى ، فلا يقل فى خطورته عن دور الإعلام الشعرى ما لم يكن أكبر منه . فالإعلام الخطابى منذ ظهور الإسلام وسيلة أساسية للإعلام الإسلامى اعتمد عليها صاحب الدعوة عليه الصلاة والسلام فى نشر الدين الجديد ، وفى شرح المبادئ التى نادى بها فى الجزيرة العربية .

واعتمد الإعلام الإسلامى على الإعلام الخطابى عبر العصور وحتى عصرنا هذا ، حيث أفاد من الوسائل التكنولوجية . وفى التراث الإسلامى نماذج رفيعة للإعلام الخطابى على نحو ما يتضح فى خطب الإمام على كرم الله وجهه ، وفى خطب الراشدين والدولة الأموية والعباسية . بل وفى خطب الحروب الصليبية حيث بلغ الإعلام الخطابى الدينى السياسى مداه فى إثارة المشاعر والخواطر ، وفى التهيئة للحرب . وإذا ما انطلق النفير العام للقتال ارتفعت أصوات الخطباء فى المساجد الكبرى فى كل من القاهرة ودمشق أو القدس ، وذلك لتحميس المسلمين وتهيئتهم للجهاد فى سبيل الله . حتى إذا انتصر الجيش الإسلامى تسابق الخطباء إلى إلقاء الخطب التى كان أشهرها وأروعها إذ ذاك ما يلقى فى المسجد الأقصى ، وكما نجد الشعراء فى الوقت نفسه يتسابقون كذلك إلى نظم القصائد التى تثنى على الأبطال . وقد عرفت القصائد التى نظمت فى تهنئة صلاح الدين مثلا بانتصاراته على الصليبيين فى يوم حطين ، باسم مشهور فى تاريخ الأدب العربى هو « القدسيات » .

فالإعلام الخطابى فى رأينا مظهر من مظاهر الاتصال الشخصى الذى هو أخطر وسائل الإعلام قديما وحديثا . ولذلك وجدنا هذه الوسيلة الإعلامية لا تختفى فى عصر الوسائل التكنولوجية ، بل إن الإذاعة والتليفزيون والصحف تحرص جميعا على تسجيل هذه الخطب وإذاعتها ونشرها بهدف توسيع الحوار ليشمل الناس جميعا .

فلقد أفاد الإعلام الإسلامى إذن من هذه الوسائل ومن غيرها ، كالكتاب والمناظرة والندوة ، وكل وسائل الاتصال المتاحة فى عصور الحضارة السمعية والتدوينية . وحينما يطل عصر الحضارة الطباعية تصبح الصحافة علامة من علامات الإعلام الحديث والمعاصر .

الإعلام الإسلامى فى العصر الحديث :

ولكن الإعلام الإسلامى إذ تتاح له وسائل اتصال جديدة ، قد مر فى العصر الحديث بثلاثة أدوار :

محمد بن عبد الوهاب ..
ويقظة الإعلام الإسلامى :

الدور الأول وهو ما يمكن أن نطلق عليه « يقظة الإعلام الإسلامى » ، حيث انبعثت الدعوة الوهابية من قلب الجزيرة العربية مطالبة بتجديد العقيدة السلفية والرجوع بالدين إلى أصوله الأولى ، والابتعاد عن البدع الدخيلة .. فكان لهذه الدعوة

أثر كبير فى نفوس المسلمين ، إذ بعثت فيهم روحا جديدة ، وأحدثت يقظة فى مختلف أرجاء العالم الإسلامى .

وفى توضيح هذا المغزى يقول العالم الإسلامى الشهير أحمد أمين فى كتابه « زعماء الإصلاح فى العصر الحديث » :

« ورأى الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى أثناء إقامته فى الحجاز ورحلاته إلى كثير من بلاد العالم الإسلامى ، أن هذا التوحيد الذى هو مزية الإسلام الكبرى قد ضاع ودخله الكثير من الفساد .

فالتوحيد أساسه الاعتقاد بأن الله وحده هو خالق هذا العالم ، والمسيطر عليه ، وواضع قوانينه التى يسير عليها ، والمشرع له . وليس فى الخلق من يشاركه فى خلقه ولا فى حكمه ولا من يعينه على تصريف أموره ، لأنه تعالى ليس فى حاجة إلى عون أحد مهما كان من المقربين إليه . هو الذى بيده الحكم وحده وهو الذى بيده النفع والضر وحده لا شريك له . فمعنى لا إلٰه إلا الله ليس فى الوجود ذو سلطة حقيقية تُسيِّر العالم وفقا لما وضع من قوانين إلا هو ، وليس فى الوجود من يستحق العبادة والتعظيم إلا هو ، وهذا هو محور القرآن ﴿ قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ آل عمران ٦٤

إذن فما بال العالم الإسلامى اليوم يعدل عن هذا التوحيد المطلق الخالص من كل شائبة ، إلى أن يشرك مع الله كثيرا من خلقه ! فهذه الأولياء يحج إليها وتقدم لها النذور ويعتقد أنها قادرة على النفع والضر ، وهذه الأضرحة التى لا عداد لها تقام فى جميع أقطاره يشد الناس إليها رحالهم ويتمسحون بها ويتذللون لها ويطلبون جلب الخير لهم ودفع الشر عنهم . ففى كل بلدة ولىّ أو أولياء ، وفى كل بلدة ضريح أو أضرحة ، تشترك مع الله تعالى فى تصريف الأمور ودفع الأذى وجلب الخير . وكأن الله سلطان من سلاطين الدنيا يتقرب إليه بذوى الجاه وأهل الزلفى لديه ، ويرجعون فى تغيير القوانين وقضاء الحاجات . أليس هذا كما كان يقول مشركو العرب ﴿ ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ﴾ وقولهم ﴿ هؤلاء شفعاؤنا عند الله ﴾ ؟ بل واأسفاه لم يكتف المسلمون بذلك بل أشركوا مع الله حتى النبات والجماد . فهؤلاء أهل بلدة منفوحة باليمامة يعتقدون فى نخلة هناك أن لها قدرة عجيبة من قصدها من العرائس تزوجت لعامها . وهذا الغار فى الدرعية يحج إليه الناس للتبرك . وفى كل بلدة من البلاد

الإسلامية مثل هذا ، ففى مصر شجرة الحنفى ونعل الكلشنى وبوابة المتولى(١) . وفى كل قطر حجر وشجر ، فكيف يخلص التوحيد من كل هذه العقائد ؟

إنها تصد الناس عن الله الواحد وتشرك معه غيره ، وتسيء إلى النفوس وتجعلها ذليلة وضيعة مخرفة ، وتجردها من فكرة التوحيد وتفقدها التسامى .

هكذا شغلت ذهنه فكرة التوحيد فى العقيدة مجردة من كل شريك ، وفكرة التوحيد فى التشريع فلا مصدر له إلا الكتاب والسنة .

هذا هو أساس دعوة محمد بن عبد الوهاب ، وعلى هذا الأساس بنيت الجزئيات .

اقتفى محمد بن عبد الوهاب فى دعوته وتعاليمه عالما كبيرا ظهر فى القرن السابع الهجرى فى عهد السلطان الناصر هو « ابن تيمية » . وهو — مع أنه حنبلى — كان يقول بالاجتهاد ولو خالف الحنابلة . وكان حر التفكير فى حدود الكتاب وصحيح السنة ، ذلق اللسان ، قوى الحجة ، شجاع القلب لا يخشى أحدا إلا الله ، ولا يعبأ بسجن مظلم ولا تعذيب مرهق ، فهاجم الفقهاء والمتصوفة ودعا إلى عدم زيارة القبور والأضرحة وهدمها ، وألف فى ذلك الرسائل الكثيرة . ولم يعبأ إلا بما ورد فى الكتاب والسنة وخالف إمامه أحمد بن حنبل حين أداه اجتهاده إلى ذلك .

ويظهر أن محمد بن عبد الوهاب عرف ابن تيمية عن طريق دراسته الحنبلية ، فأعجب به وعكف على كتبه ورسائله يكتبها ويدرسها . وفى المتحف البريطانى بعض رسائل لابن تيمية مكتوبة بخط ابن عبد الوهاب .

دعا « محمد بن عبد الوهاب » مثله إلى ترك البدع والتوجه بالعبادة والدعاء إلى الله وحده لا إلى المشايخ والأولياء والأضرحة ، ولا بوساطة توسل ولا شفاعة . وزيارة القبور تكون للعظة والاعتبار لا للتوسل والاستشفاع ، فهم لا يملكون شيئا بجانب الله وقوانينه الثابتة التى لا تختلف ، والتى نظم الله بها كونه . فالذبح للقبور ، والنذور لها ، والاستغاثة بها ، والسجود عندها شرك لا يرضاه الله ، وهو هدم للتوحيد الذى جاء به الإسلام من أساسه . ومثل ذلك تجصيص القبور وبناية الأضرحة وتشييد الأبنية عليها وكسوتها بالحرير المذهب وما إلى ذلك . فكل هذه لا يعرفها الإسلام .

فكانت دعوة ابن عبد الوهاب حربا على كل ما ابتدع بعد الإسلام الأول من عادات وتقاليد ، فلا اجتماع لقراءة مولد ، ولا احتفاء بزيارة قبور ، ولا خروج

---

(١) شجرة الحنفى ، شجرة كانت فى جامع الحنفى بالقاهرة يتبرك بها . ونعل الكلشنى نعل قديمة فى تكية الكلشنى يزعمون أن الماء إذا شرب منها ينفع للتداوى من العشق . وبوابة المتولى بالقاهرة أيضا مملوءة بالمسامير بها تعلق الشعور والخيوط لقضاء حاجة من علقها .

للنساء وراء الجنازة ، ولا إقامة أذكار يغنى بها ويرقص ، ولا محمل يتبرك به ويتمسح ويحتفل به هذا الاحتفال الضخم وهو ليس إلا أعوادا خشبية لا تضر ولا تنفع .

كل هذا مخالف للإسلام الصحيح يجب أن يزال ويجب أن نعود إلى الإسلام فى بساطته الأولى وطهارته ونقائه ووحدانيته ، واتصال العبد بربه من غير واسطة ولا شريك فلا إله إلا الله معناها كل ذلك ، والكتب المملوءة بالتوسلات كتب ضارة بالعقائد كدلائل الخيرات وما فى البردة من مثل قوله :

يا أكرم الخلق مالى مَنْ ألوذ به   سواك عند حلوث الحادث العمم

وقوله :

إن لم تكن فى معادى آخذا بيدى   فضلا وإلا فقل يا زلة القدم

وقوله :

فإن من جودك الدنيا وضرتها   ومن علومك علم اللوح والقلم

ونحو ذلك أقوال فاسدة كاذبة ، فلا التجاء إلا إلى الله ، ولا اعتماد فى الدنيا والآخرة إلا عليه .

لقد كان محمد بن عبد الوهاب ومن نحا نحوه يرون أن ضعف المسلمين اليوم وسقوط نفسيتهم ليس له سبب إلا العقيدة ، فقد كانت العقيدة الإسلامية فى أول عهدها صافية نقية من أى شرك ، وكانت لا إله إلا الله معناها السمو بالنفس عن الأحجار والأوثان وعبادة العظماء وعدم الخوف من الموت فى سبيل الحق ، وعدم الخوف من استكار المنكر ، والأمر بالمعروف مهما تبع ذلك من عذاب . ولا قيمة للحياة إلا إذا بذلت فى رفع لواء الحق ودفع الظلم . وهذا هو الفرق الوحيد بين العرب فى الجاهلية والعرب فى الإسلام ، وبهذه العقيدة وحدها غزوا وفتحوا وحكموا . ثم ماذا ؟

ثم لم يتغير شىء إلا العقيدة ، فتدنوا من سمو التوحيد إلى حضيض الشرك فتعددت آلهتهم من حجر وشجر وأعواد خشب وقبور أولياء ! وركنوا إلى ذلك فى حياتهم العامة فالزرع ينجح لرضا ولى ، ويخيب لغضبه . والبقرة تحيا إذا نذرت للسيد البدوى أو مثله ، وتموت إذا لم تنذر . وهكذا فى الأمراض والعلل والغنى والفقر كلها لا ترجع إلى قوانين الله الطبيعية وإنما ترجع إلى غضب الأرواح ورضاها . ومثل هذه النفوس الضعيفة التى تذل للحجر والشجر والأرواح لا تستطيع أن تقف أمام الولاة والحكام الظالمين تأمرهم بمعروف أو تنهاهم عن منكر ، فذلوا للحكام والأغنياء كما ذلوا للخشب والأحجار . وما زال كل قرن يمر تزداد معه الآلهة عددا وتزداد النفوس ذلة ، حتى وصلت الحال بالأمة الإسلامية إلى فقد سيادتها وانهيار عزتها . ولا يصلح آخر الإسلام

إلا بما صلح به أوله ، فلا بد من العودة إلى الحياة الإسلامية الأولى حيث التوحيد الصحيح والعزة الحقة ، ولا بد من هدم هذه البدع والخرافات — باللين إن نجح وبالقوة إن لم ينجح — والله المستعان .

لم ينظر محمد بن عبد الوهاب إلى المدنية الحديثة وموقف المسلمين منها ، ولم يتجه فى إصلاحه إلى الحياة المادية وإنما اتجه إلى العقيدة وحدها . فعنده أن العقيدة والروح هما الأساس وهما القلب إن صلحا صلح كل شىء ، وإن فسدا فسد كل شىء .

هذا هو جوهر الدعوة التى دعا إليها محمد بن عبد الوهاب .

وتناول الدكتور طه حسين أستاذ الأدب العربى فى الجامعة المصرية ، الدعوة فى بحث نشره سنة ١٣٥٤ هـ عن الحياة الأدبية فى جزيرة العرب ، وهذا ما قاله عنها :

« ولا يستطيع الباحث عن الحياة العقلية والأدبية فى جزيرة العرب أن يهمل حركة عنيفة نشأت فيها أثناء القرن الثامن عشر الميلادى ، فلفتت إليها العالم الحديث فى الشرق والغرب واضطرته أن يهتم بأمرها ، وأحدثت فيها آثارا خطيرة هان شأنها بعض الشىء ، ولكنه عاد فاشتد فى هذه الأيام وأخذ يؤثر لا فى الجزيرة وحدها ، بل فى علاقاتها بالأمم الأوروبية .

هذه الحركة هى الحركة الوهابية التى أحدثها محمد بن عبد الوهاب شيخ من شيوخ نجد . نشأ محمد بن عبد الوهاب فى بيت علم وفقه وقضاء ، تثقف على أبيه ثم رحل إلى العراق فسمع من علماء البصرة وفقهائها ، وأظهر فيها آراءه الجديدة القديمة معا ، فسخط عليه الناس وأخرج من البصرة . وكان يريد أن يذهب إلى الشام فحال الفقر بينه وبين ذلك ، فعاد إلى نجد وأقام مع أبيه حينا يناظر ويدعو إلى آرائه ، حتى ظهر أمره وانتشر مذهبه ، وانقسم الناس فيه قسمين فكان له أنصار وكان له خصوم . وتعرضت حياته آخر الأمر للخطر فأخذ يعرض نفسه على الأمراء رؤساء العشائر ليجيروه ويحموا دعوته . حتى انتهى به الأمر إلى الدرعية وهناك عرض نفسه على أميرها محمد بن سعود فأجاره وبايعه على المعونة والنصرة . ومن ذلك اليوم أصبح المذهب الجديد مذهبا رسميا يعتمد على قوة سياسية تؤيده وتحميه ، بل تنشره فى أقطار نجد بالدعوة اللينة حينا وبالسيف والحرب فى أكثر الأحيان .

وعن هذا التحالف بين الدين والسياسة نشأت فى الجزيرة العربية دولة سياسية عظم أمرها ، واشتد خطرها حتى أشفق منها الترك أشد الإشفاق فقاوموها ما وسعتهم المقاومة . فلما لم يفلحوا استعانوا بالمصريين ، وكان أمرهم إذ ذاك إلى محمد على باشا ، فنجح المصريون فى إضعاف هذه الحركة وإزالة هذه الدولة الجديدة ورد أمرائها إلى

ما كانوا عليه من قبل ذلك الوضع . فلا بد من وقفة قصيرة عند هذا المذهب الجديد لنعرف ما هو وما مبلغ تأثيره فى الحياة العقلية العربية فى هذا العصر الحديث .

قلت إن هذا المذهب جديد وقديم معا . والواقع أنه جديد بالنسبة إلى المعاصرين ولكنه قديم فى حقيقة الأمر لأنه ليس إلا الدعوة القوية إلى الإسلام الخالص النقى المطهر من كل شوائب الشرك والوثنية . هو الدعوة إلى الإسلام كما جاء به النبى خالصا لله وحده ملغيا كل واسطة بين الله وبين الناس . هو إحياء للإسلام وتطهير له مما أصابه من نتائج الجهل ومن نتائج الاختلاط بغير العرب ، فقد أنكر محمد بن عبد الوهاب على أهل نجد ما كانوا قد عادوا إليه من جاهلية فى العقيدة والسيرة .. كانوا يعظمون القبور ويتخذون بعض الموتى شفعاء عند الله ، ويعظمون الأشجار والأحجار ويرون أن لها من القوة ما ينفع ويضر ، وكانوا قد عادوا فى سيرتهم إلى حياة العرب الجاهليين فعاشوا من الغزو والحرب ونسوا الزكاة والصلاة ، وأصبح الدين اسما لا معنى له . فأراد محمد بن عبد الوهاب أن يجعل من هؤلاء الأعراب الجفاة المشركين قوما مسلمين حقا ، على نحو ما فعل النبى بأهل الحجاز منذ أكثر من أحد عشر قرنا .

ومن الغريب أن ظهور هذا المذهب الجديد فى نجد قد أحاطت به ظروف تذكر بظهور الإسلام فى الحجاز ، فقد دعا صاحبه إليه باللين أول الأمر فتبعه بعض الناس ، ثم أظهر دعوته فأصابه الاضطراب وتعرض للخطر ، ثم أخذ يعرض نفسه على الأمراء ورؤساء العشائر كما عرض النبى نفسه على القبائل ، ثم هاجر إلى الدرعية وبايعه أهلها على النصر كما هاجر النبى إلى المدينة . ولكن ابن عبد الوهاب لم يرد أن يشتغل بأمور الدنيا فترك السياسة وأصحابها أداة لدعوته ، فلما تم له هذا دعا الناس إلى مذهبه فمن أجاب منهم نجا ، ومن امتنع أغرى عليه السيف وشب عليه الحرب . وقد انقاد أهل نجد لهذا المذهب وأخلصوا له الطاعة وضحوا بحياتهم فى سبيله على نحو ما انقاد العرب للنبى وهاجروا معه .

ولولا أن الترك والمصريين اجتمعوا على حرب هذا المذهب وحاربوه فى داره بقوى وأسلحة لا عهد لأهل البادية بها ، لكان من المرجو أن يوحد هذا المذهب كلمة العرب فى القرن الثانى عشر والثالث عشر للهجرة ، كما وحد ظهور الإسلام كلمتهم فى القرن الأول.

ولكن الذى يعنينا من أمر هذا المذهب أثره فى الحياة العقلية والأدبية عند العرب . وقد كان هذا الأثر عظيما خطيرا من نواح مختلفة ، فهو قد أيقظ النفس العربية ووضع أمامها مثلا أعلى أحبته وجاهدت فى سبيله بالسيف والقلم واللسان . وهو قد لفت المسلمين جميعا — وأهل العراق والشام بنوع خاص — إلى جزيرة العرب ، .

وتناول الأستاذ عباس العقاد فى كتابه « الإسلام فى القرن العشرين » حركة الإصلاح وقال ما نصه :

« وظاهر من سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أنه لقى فى رسالته عنتا فاشتد كما يشتد من يدعو غير سميع ، ومن العنت إطباق الناس على الجهل والتوسل بما لا يضر ولا ينفع والتماس المصالح بغير أسبابها ، وإتيان المسالك من غير أبوابها . وقد مرّ على البادية زمن كانوا يتكلمون فيه على التعاويذ والتمائم وأضاليل المشعوذين والمنجمين ، ويدّعون السعى من وجوهه توسلا بأباطيل السحرة والدجالين ، حتى الاستسقاء ودفع الوباء . فكان حقا على الدعاة أن يصرفوهم عن هذه الجهالة . وكان من أثر الدعوة الوهابية أنها صرفتهم عن ألوان من البدع والخرافات .

وقال أيضا فى الكتاب نفسه وهو يتكلم عن كتاب التوحيد تأليف الإمام ما يلى : إن الكتاب الذى تضمن دعوة الشيخ — وفيه يحصى الشيخ الذنوب التى تكفر صاحبها وتعتبر شركا بالله ، وأكثرها من البدع والخرافات والمغالاة بتعظيم الأحبار والأولياء .

ومن الشرك لبس الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه .

ومن الشرك اتخاذ الرقى والتمائم للوقاية ، والتبرك بالشجر والحجر والذبح لغير الله ، والنذر لغير الله ، والاستعانة بغير الله ، والعبادة عند القبور ، وأن الغلو فى عبادة الصالحين يصيرها أوثانا تعبد من دون الله ، وأن الكهانة والعيافة والتبطير والتنجيم من الشيطان . وأورد الشيخ الآيات والأحاديث التى تحرم الاستسقاء بالأنواء ، وأنكر على الصوفية تأويلاتهم وخوارقهم ، واستشهد على تحريم الصور بقوله عليه السلام فيما يرويه عن ربه (ومن أظلم ممن ذهب بخلق كخلقى) ؟ ويقول عن عائشة (أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله) ، وحذر من المغالاة فى تعظيم النبى عليه السلام مستشهدا بقول أنس : إن ناسا قالوا يا رسول الله يا خيرنا وابن سيدنا ، فقال (أيها الناس قولوا بقولكم ولا يستهوينكم الشيطان ، أنا محمد عبد الله ورسوله ما أحب أن ترفعونى فوق منزلتى التى أنزلنى الله عز وجل) .

وكان الشيخ ينكر الغلو ويستشهد بقول الرسول عليه السلام (إياكم والغلو فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو) . وقوله عليه السلام (هلك المتنطعون . هلك المتنطعون . هلك المتنطعون) .

وأدى الأستاذ أحمد حسين العالم المصرى ومؤسس حزب مصر الفتاة فريضة الحج فى سنة ١٩٤٨ م (١٣٦٧ هـ) ، ثم أصدر بعد عودته كتابا قيما جعل اسمه « مشاهداتى فى جزيرة العرب » وهاك ما كتبه عن الدعوة ومؤسسها العظيم . قال بعد

أن وصف ما كانت تخب فيه جزيرة العرب من جهالة قبل ظهور الدعوة ما يلى :

« وفى وسط هذا الجو ولد محمد بن عبد الوهاب ، وكان أبوه الشيخ عبد الوهاب بن سليمان قاضى بلدة العيينة وكان شيخا عالما جليل القدر ، فقرأ على أبيه الفقه وسرعان ما ظهرت عليه علائم النجابة . وبدأ يدرك على الفور ما تردت فيه البادية من همجية وردة عن دين الإسلام ، وبدأت تجيش نفسه بما تجيش به نفس كل مصلح من عزم على تغيير هذه الحال . فلما بلغ من العمر عشرين ربيعا بدأ يستخدم فصاحته وعلمه فى مناقشة أنداده وأضرابه — بل ومن هم أكبر منه سنا — فى فساد الحال فلم يجد منهم أذنا مصغية ، خوف بطش العامة وطغيانهم » .

وبعد أن ذكر سفر الشيخ إلى الحجاز وأدائه فريضة الحج ، وذهابه إلى البصرة ورجوعه ثانية إلى نجد ، وهجرته إلى الدرعية واستقراره فيها واتفاقه مع محمد بن سعود ، ختم هذا البحث بقوله :

« تلك هى قصة الشيخ محمد بن عبد الوهاب كما بدأت والتى لم تكمل حتى الآن ، فلا يزال أحفاد محمد بن سعود وأحفاد الشيخ محمد يحملون لواء التوحيد وينافحون عنه . وإذا كان العالم الإسلامى كله اليوم تحت تأثير النور والعرف فإنه قد بدأ يدرك بفطرته هذا الذى دعا إليه محمد بن عبد الوهاب ويتعشقه فسيظل التاريخ يسجل لآل سعود الذين كانوا أول من نصره واستجاب له » .

وقال الأستاذ فيليب حتى وهو مؤرخ لبنانى فى كتابه « تاريخ العرب » :

« ولقد تأثر محمد بن عبد الوهاب بفكرة هى أن الإسلام كما يمارسه معاصروه قد انحرف كثيرا عمليا ونظريا عن طريق السنة التى استنها القرآن ، وقرر أن ينقيها هو بنفسه » .

وقد تناول المستر لوثروب ستودارد الأميركى فى كتابه « حاضر العالم الإسلامى » وقد عربه الأستاذ عجاج نويهض وعلق عليه الأمير شكيب أرسلان حركة الإصلاح الدينى ، فقال :

« بلغ العالم الإسلامى فى القرن الثانى عشر الهجرى أعظم مبلغ من التضعضع ومن التدنى والانحطاط ، فاربد جوه ، وطبقت الظلمة كل صقع من أصقاعه ورجاء من أرجائه ، وانتشر فيه فساد الأخلاق والآداب ، وساد الجهل وانطفأت قبسات العلم الضئيلة ، وانقلبت الحكومات الإسلامية إلى مطايا استبداد وفوضى واغتيال . أما الدين فقد غشيته غاشية سوداء فألبست الوحدانية التى علمها صاحب الرسالة سجفا من الخرافات وقشورا من الصوفية ، وخلت المساجد من أرباب الصلوات ، وكثر عدد

الأدعياء الجهلاء ، وطوائف الفقراء والمساكين ، يخرجون من مكان إلى مكان يحملون فى أعناقهم التمائم والتعاويذ والسبحات ، ويؤمون الناس بالأباطيل والشبهات ، ويرغبونهم فى الخروج إلى قبور الأولياء ، ويزينون للناس التماس الشفاعة من دفناء القبور .

وغابت عن الناس فضائل القرآن . ونال مكة والمدينة مانال غيرهما من سائر مدن الإسلام ، وعلى الجملة فقد بدل المسلمون غير المسلمين ، وهبطوا مهبطا بعيد القرار ، فلو عاد صاحب الرسالة إلى الأرض فى ذلك العصر ورأى ما كان يدعى الإسلام لغضب .

وبينما العالم الإسلامي مستغرق فى هجعته ، ومدلج فى ظلمته ، إذا بصوت يدوى من قلب الصحراء فى شبه الجزيرة العربية مهد الإسلام ، فيوقظ المؤمنين ، ويدعوهم إلى الإصلاح والرجوع إلى سواء السبيل ، والصراط المستقيم . فكان الصارخ لهذا الصوت إنما هو المصلح المشهور محمد بن عبد الوهاب ، الذى أشعل نار الوهابية فاشتعلت واتقدت ، ثم أخذ هذا الداعى يحض المسلمين على إصلاح النفوس واستعادة المجد الإسلامى القويم » .

وقد تناول المستشرق الألمانى الكبير كارل بروكلمان فى كتابه « تاريخ الشعوب الإسلامية » الحركة الوهابية بالدرس والتحليل فى الجزء الرابع ، وهذا ما قاله :

« واصطدم محمد على باشا بحركة انبعاث وطنية كبرى .. ومفصل ذلك أنه ولد فى نجد المرتفعة فى قلب جزيرة العرب محمد بن عبد الوهاب من قبيلة تميم ، ما بين أواخر القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر (م) ، فنشأ محبا للعلم ، واقفا نفسه على دراسة لفقه والشريعة . وقصد وفقا للعادة القديمة إلى عواصم الشرق الإسلامى طلبا للعلم فى مدارسها ، وفى بغداد درس فقه الإمام أحمد بن حنبل(١) مؤسس آخر المذاهب السنية الأربعة ، والذى دافع بشدة وثبات عن مبدأ الأخذ بالحديث والاعتماد عليه اعتمادا كليا ، ضد نزعة الفقهاء القائلين بالأخذ بالرأى .

ثم درس مؤلفات الشيخ ابن تيمية الذى كان قد أحيا فى القرن الرابع عشر تعاليم ابن حنبل . والواقع أن دراسته لآراء هذين الإمامين انتهت به إلى الإيمان بأن الإسلام فى شكله السائد فى عصره ، وخاصة بين الأتراك ، مشرب بالمساوئ التى لا تمت إلى الدين الصحيح بنسب . فلما ذهب إلى بلده الأول سعى أول ما سعى إلى أن يعيد إلى

---

(١) لم يثبت أنه زار بغداد

العقيدة والحياة الإسلامية صفاءهما الأصلى فى محيطه الضيق ، ولكنه لم يكن ينكر مظاهر التقديس التى كان يحاط بها « سعد » وهو الولى الخاص بمسقط رأسه « العيينة » ، ويفرض بين أتباعه القصاص المفروض على الزانية ، حتى نفى من البلاد فلجأ فى سنة ١٧٤٠ م إلى الدرعية فلقى حفاوة وترحيبا ، حتى إذا انقضت فترة قصيرة اكتسبت تعاليمه أنصارا ومريدين . ولقد أنكر تقديس الرسول والأولياء على اختلاف صوره وكان ذلك قد شاع بين المسلمين منذ قرون تقليدا للنصرانية — وبعض الطقوس الدينية الأكثر بدائية ، راميا بالشرك أولئك المسلمين الذين يشاركون فى هذا التقديس ، والذين يأذن القرآن بحربهم حتى يرجعوا عن غيهم أو يبادوا .

وأخذ الشيخ أتباعه بأداء صلاة الجمعة فى شدة لا تعرف الرحمة ، ونهى عن كل زينة فى اللباس ، وعن لبس الحرير خاصة ، وحرم أيما تزيين أو زخرفة للمساجد والأضرحة . وليس هذا فحسب بل لقد توسع فى فهم التحريم الإسلامى لمختلف ضروب المسكر ، فحرم تدخين التبغ الذى أعلن جميع الفقهاء تقريبا من الحنابلة وغير الحنابلة معارضتهم له أول دخوله إلى بلاد الشرق .

والواقع أن هذا المصلح كان يتأسى بسيرة الرسول ويحذو حذوه ، وينحو نحوه فى التفكير . وكان كالرسول قادرا على إلهاب نار الحماسة فى قلوب أصحابه ، وعلى استثمار محبتهم العارمة للحرب فى سبيل قضيته » .

وقال الدكتور « أكوبرت فون ميكوس » المؤرخ الألمانى فى كتابه « عبد العزيز » وقد صدر فى ألمانيا سنة ١٩٥٣ ونقله إلى العربية الدكتور أمين رويحة على الحركة الوهابية ما ننقله بحروفه :

« وكان لآل سعود إلى جانب سيفهم الذى يستخدمونه فى الفتح ، سلاح معنوى آخر يدينون له بأعظم قسط من نجاحهم . ذلك السلاح من صنع الشيخ محمد بن عبد الوهاب أحد رجال الدين المطاردين فى سبيل عقيدتهم ، والذى لجأ إلى « الدرعية » عاصمة آل سعود فى ذلك الحين فلقى لديهم الحماية والأمان .

« وكانت تملأ قلب محمد بن عبد الوهاب فكرة تجديد القوى العربية على أساس دينى ، ناسبا إلى ابتعادهم عن سيرة السلف الصالح وانقسامهم إلى شيع ، وإلى ابتعادهم عن خلقهم العربى الأصيل سبب تلاشيهم الذى جعلهم فى متناول النفوذ الأجنبى . وقد لمس الشيخ محمد فى رحلاته المتعددة ، وشاهد بأم عينيه ضعف المسلمين وعجزهم عن مقاومة سلطان الغرب الذى كان يتغلغل أكثر فأكثر ، حتى أصبحوا ضحايا رخيصة للمدنية الغربية .

« ورأى الشيخ أن سبيل الإنقاذ هو الرجوع إلى تعاليم الدين المشروعة .. إلى تعاليم الرسول الصحيحة ، فراح يبشر بوحى من ضميره وعقيدته بمحاربة البدع التى أدخلت على الإسلام عبر العصور الغابرة ، والضال المضل من تقارير علماء الدين ، غير مقيم وزنا إلا لما نص عليه القرآن صراحة ، أو لما يمكن نسبته بصورة قاطعة للنبى محمد . وراح يحارب بكل قواه المستمدة من عقيدته الصلبة تقديس الأولياء وجعلهم واسطة بين الله والناس ، وينادى بهدم الأضرحة ومزارات الأولياء وإزالة معالمها ، اقتداء بالنبى الكريم الذى حارب بدعة تقديس الهياكل وعبادة الأصنام الموروثة من الجاهلية . كذلك كان يحارب الميوعة والبهرجة فى اللباس وطريقة العيش ، والمظهر ، والتنعم بالملاذ الدنيوية ، وهى متع بخلت الطبيعة إلا بالقليل منها على الجزيرة العربية ، لذلك كان الحصول عليها يقتضى الخضوع للأجنبى . وكان هدفه أن يجعل من بلاد العرب ومن موطن الإسلام مصدر بعثه الجديدة ، فيتمرس أبناؤها بالحياة البدائية القاسية ، ويتمسكون بوحدانية الله الذى هو مصدر كل شىء فى الوجود .

« وكان مثل هذه الأفكار يجول فى أذهان آل سعود عندما لجأ إلى حماهم ذلك المبشر المطارد ، وتبنوا تعاليمه فقدموا لدعوته السيف الذى تحتاج إليه ، والذى مهد لها طريق الانتشار ، فإذا بالحركة الوهابية التى سميت باسم مؤسسها عاصفة تجتاح البلاد العربية جميعا .

« وبلغت الدعوة أوجها إبان حكم سعود الكبير فى القرن التاسع عشر ، الذى تم له احتلال الجزء الأكبر من الجزيرة ، حتى لكأن موكب النصر الوهابى يسير بحيث لا يتمكن أحد من الوقوف فى وجهه . وفى نفس الوقت الذى كان فيه عرش السلطان « الخليفة » الذى دام ٤٠٠ سنة مهددا بالزوال ، لاح أن نجم الحركة العربية الذى خبا وتوارى وراء الغيوم مئات السنين يوشك أن ينبثق ، ولكن الوقت لم يكن قد حان ، كما أن الإنسان العربى لم يكن قد تم نضجا لذلك بعد » .

وقال المستشرق الأستاذ ويلفرد كانتول فى كتاب « الإسلام فى نظر الغرب » ألفه جماعة من المستشرقين « كان محمد بن عبد الوهاب يقول قبل كل شىء يجب أن تعيشوا حسب الشرع الإسلامى ، وهذا هو معنى أن تكونوا مسلمين . لا ذاك الرغاء العاطفى والتقى والحرارة التى يقدمها لكم الصوفيون . فأساس الإسلام هو الشرع ، وإذا كنتم تريدون أن تكونوا مسلمين فيجب أن تعيشوا حسب أوامر الشرع » .

وقال برنارد لويس فى كتابه « العرب فى التاريخ » ما يلى :

« وباسم الإسلام الخالى من الشوائب الذى ساد فى القرن الأول ، نادى محمد بن

عبد الوهاب بالابتعاد عن جميع ما أضيف للعقيدة والعبادات من زيادات باعتبارها بدعا خرافية غريبة عن الإسلام الصحيح » .

وقال شيخ المستشرقين جولد صهير النمسوى فى كتابه « العقيدة والشريعة » ما يلى :

« وإذا أردنا البحث فى علاقة الإسلام السنى بالحركة الوهابية ، نجد أنه مما يسترعى انتباهنا خاصة من وجهة النظر الخاصة بالتاريخ الدينى الحقيقة التالية يجب على من ينصب نفسه للحكم على الحوادث الإسلامية أن يعتبر الوهابيين أنصارا للديانة الإسلامية على الصورة التى وضعها النبى والصحابة ، إن الوهابية تريد إعادة الإسلام كما كان » .

وقال المستشرق الفرنسى سيدبو فى كتابه « تاريخ العرب العام » وهو يتكلم عن الوهابية وسيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب « فرأى الشيخ أنه إذا ما حمل المسلمين على مراعاة أحكام القرآن بإحكام ، رجعت إليهم تلك الحماسة التى تعود بها عظمة الماضى . ولم يكن للإصلاح الذى بدأه من هدف سوى إعادة شريعة الرسول الخالصة إلى سابق عهدها » .

وقال المستشرق البريطانى « جب » فى كتابه « المحمدية » :

« وفى جزيرة العرب قام حوالى سنة ١٧٤٤ م (١١٥٧ هـ) محمد بن عبد الوهاب مع أمراء الدرعية آل سعود ، لتحقيق الدعوة إلى المدرسة « المذهب » الحنبلية التى دعا إليها ابن تيمية فى القرن الرابع عشر » .

وقال أيضا فى كتابه « الاتجاهات المدنية فى الإسلام »

« أما فى مجال الفكر فإن الوهابية بما قامت به من المقاومة ضد التدخلات العدوانية ، وضد الأصول القائلة بوحدة الوجود التى تريد تدنيس التوحيد فى الإسلام ، فقد كانت عاملا مفيدا للخلاص الأبدى ، وحركة تجديد أخذت تنجح فى العالم الإسلامى شيئا فشيئا .

وجاء فى دائرة المعارف البريطانية وهى تتكلم عن الوهابية ما يلى :

« الوهابية اسم لحركة التطهير فى الإسلام ، والوهابيون يتبعون تعاليم الرسول وحده ويهملون كل ما سواها .

« وأعداء الوهابية هم أعداء الإسلام الصحيح » .

النهضة الإعلامية الإسلامية :

الدور الثانى : وهو ما يمكن أن نطلق عليه « دور النهضة الإعلامية الإسلامية » . وفى هذه المرحلة قام كثيرون من دعاة الإصلاح فى معظم بلاد العالم الإسلامى ، حيث أثارت دعوة الحق التى قام بها الإمام محمد بن عبد الوهاب بعثا جديدا فى الأمة الإسلامية بأسرها ، وسرت تعاليمها إلى اليمن والعراق والسودان وشمال إفريقيا ، وانتشرت كذلك فى بقاع نائية مثل نيجيريا وسومطرة(١) . فظهر فى اليمن الإمام الشوكانى(٢) وسار على نهج الإمام محمد بن عبد الوهاب فى دعوته واجتهاده ، وأصبح له فى اليمن تلاميذ ومريدون . وكانت دعوة « السيد أحمد » فى الهند دعوة وهابية خالصة(٣) فكان يدعو إلى نظام الإسلام الكامل ، وتنفيذ الشريعة فى الأرض ، ومحاربة البدع والخرافات . « ومع أن حركته لم تنجح فى إقامة نظام الإسلام وتأسيس بنيان الحكومة الإسلامية الراشدة المنشودة ، فإنها نجحت فى إيقاظ الحمية الإسلامية وبعث الهمم الراكدة »(٤) . وانتشرت فى الأمة الإسلامية الحركات الإصلاحية التى تدعو إلى العودة إلى المنابع الإسلامية الأولى ، وكان بعض هذه الحركات الإصلاحية متأثرا بالدعوة الوهابية ، مثل السيد أحمد فى الهند ، والإمام الشوكانى فى اليمن . وكان البعض الآخر متأثرا بالحضارة الغربية التى بدأت تتسرب إلى البلاد الإسلامية ، مثل السيد أحمد خان ، والسيد أمير على ، ومدحت باشا ، ومليكم خان ، وغير هؤلاء كثيرون . كما تأسست الطرق الدينية المختلفة مثل السنوسية والقادرية والتيجانية والشاذلية(٥) .

الإعلام الإسلامى والجامعة الإسلامية :

الدور الثالث : وهو الذى تطورت فيه التيارات الفكرية والحركات الإصلاحية ، حتى اتخذت صورتها الأخيرة التى عرفت باسم « الجامعة الإسلامية » . وفى هذا الدور ظهر جمال الدين الأفغانى ولاءم بين مختلف التيارات التى ظهرت فى الأمة الإسلامية ، ودعا إلى تكوين جامعة إسلامية بعد أن تبلورت آراؤه فى الإصلاح فى المرحلة الأخيرة من حياته ، حينما أصدر جريدة العروة الوثقى فى باريس . وهذه الدعوة إلى الجامعة

---

(١) د . عبد الباسط محمد حسن : السابق ، ص ٦٨

(٢) عبد المتعال الصعيدى : المجددون فى الإسلام من القرن الأول ، ص ٤٧٢ — ٤٧٥

(٣) د . عبد الباسط محمد حسن : السابق ، ص ٦٨

(٤) الندوى : نظرة إجمالية فى تاريخ الدعوة الإسلامية فى الهند ، ص ٥٣

(٥) د . عبد الباسط محمد حسن : السابق ، ص ٦٩

الإسلامية كان لها مظهرها السياسي من جهة ، والاجتماعي من جهة أخرى . فمن الناحية السياسية دعا إلى الوحدة الإسلامية وتمكين الألفة بين المسلمين ، وتقوية الروابط بينهم حتى يعودوا كما كانوا إخوانا متآلفين يجمعهم لواء دولة واحدة عظيمة . يقول جمال الدين من مقال « **الوحدة الإسلامية** » المنشور بجريدة **العروة الوثقى** ص ١٥٣ :

« فالمسلمون لا يحتاجون فى صيانة حقوقهم إلا إلى تنبيه أفكارهم لمعرفة ما به يكون الدفاع ، واتفاق آرائهم على القيام به عند لزومه ، وارتباط قلوبهم الناشئ عن إحساس بما يطرأ على الملة من الأخطار » .

وعلى « المسلم أن يأخذ بيد أخيه وأن ينظر إليه بما حكم الله فى قوله ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ فيقيمون بالوحدة سدا يحول عنهم هذه السيول المتدفقة عليهم من جميع الجوانب » .

« وأن الميل للوحدة والتطلع للسيادة وصدق الرغبة فى حفظ حوزة الإسلام ، كل هذه صفات كامنة فى نفوس المسلمين قاطبة » .

ثم يسأل الله تعالى « ثباتا للمسلمين على أصول الاتحاد وقواعد الألفة ، وأن لا يميل بهم الهوى إلى جعل الاختلاف فى المسائل الثانوية سببا فى حل الجامعة الإسلامية التى قوامها الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر ، وأن لا يجعلوا هذا الخلاف ذريعة العدو إلى محق ملتهم وإفساد ولايتهم .. والله يهدى من يشاء إلى سواء السبيل » .

ومن الناحية الاجتماعية اتجه جمال الدين إلى التجديد الدينى لمواجهة الحملات العنيفة التى شنها الأوربيون على الإسلام ، وما تضمنته من أكاذيب ومفتريات ، وما ذهب إليه مبشروهم المسيحيون إلى اتهام الإسلام بأنه غير قابل للإصلاح والتجديد(١) .

جمال الدين الأفغانى وتجديد الإعلام الإسلامى :

وتأسيسا على هذا الفهم اتجه جمال الدين بدعوته إلى التجديد الدينى ، وطالب المسلمين فى « الرد على الدهريين » بتحقيق نهضة دينية تلائم مقتضيات العصر الحديث ، وذلك بأن « تكون عقائد الأمة مبنية على البراهين القويمة والأدلة الصحيحة » . وقال « إن الدين يطالب المتدينين أن يأخذوا بالبرهان فى أصول دينهم ، وكلما خاطب العقل ، كلما احتكم إلى العقل » . ثم طالب جمال الدين بأن يكون فى كل أمة **تنظيم إعلامى إسلامى** تتولاه طائفة يختص عملها بتعليم سائر الأمة ، وطائفة أخرى تقوم على النفوس تتولى تهذيبها وتثقيفها . ذلك أن الإعلام الإسلامى عند

(١) د . عبد الباسط محمد حسن : السابق .

جمال الدين يقوم على أساس أن « الإسلام لم يكن عقبة فى سبيل أى لون من ألوان المعرفة » . بخلاف أكاذيب « رينان » الذى قال « إن الإسلام لا يشجع على العلم والبحث الحر » . ولذلك رد عليه جمال الدين ردا علميا أفحمه وجعله يتنازل عن كثير من هذه الترهات .

فالإعلام الإسلامى — إذن — فى هذا الدور دعا على يد جمال الدين المستنيرين من المسلمين إلى النظر فى حالتهم لتحقيق نهضة دينية تجديدية تلائم مقتضيات العصر الحديث ، وتبين لهم أن الإسلام إذا فهم على وجهه الصحيح يستطيع أن ينمو نموا طبيعيا ، وأن يتقدم تقدما يجمع بين المصالح المتجددة للحياة العملية وبين المطالب العالية للنفس الإنسانية .

ولقد كانت « الجامعة الإسلامية » نتاجا للإعلام الإسلامى فى هذا الدور التاريخى ، وهى الجامعة التى تنظر لوحدة العالم الإسلامى على أساس من رابطة الدين ، ورابطة الحج ، ورابطة الخلافة .

فالإسلام دين وجامعة ، آخى بين المسلمين وجعلهم بنعمته إخوانا . فهو يسمو بهم فوق مستوى الأمم والعصبيات والأجناس ، ويدعوهم إلى الاتحاد بقوله ﴿ إنما المؤمنون إخوة ﴾ ، « لا عصبية فى الإسلام » .

يقول جمال الدين : « وليس عليهم فى استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى مقامهم الأول ، إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم ، وذلك أيسر ما يكون عليهم من بعد تمكين الجامعة الدينية بينهم » . « وإن للمسلمين شدة فى دينهم ، وقوة فى إيمانهم ، وثباتا على عقيدتهم وإن فى عقيدتهم أوثق الأسباب لارتباط بعضهم ببعض » .

« وإن اتفقوا فليس ذلك ببدع منهم ، فالاتفاق من أصول دينهم » .

« وما هذا بغريب على المسلمين ، فإن رابطتهم الملية أقوى من روابط الجنسية واللغة ، وما دام القرآن يتلى بينهم وفى آياته ما لا يصعب على إفهام قارئيه ، فلن يستطيع الدهر أن يذلهم » .

فالإعلام الإسلامى — عند جمال الدين — فى رأينا ، يطالب بإحياء الرابطة الدينية حتى يستعيد المسلمون مكانتهم الأولى .

والحج — عند جمال الدين — عامل أساسى من عوامل تحقيق الإعلام الإسلامى لأغراض الاتحاد بين المسلمين وتعاطفهم . ففى كل عام يلتقى فى مكة عدد كبير من المسلمين من مختلف أرجاء العالم ، وفى القرن الماضى كانت بلاد الحجاز قبلة كل قاصد

علم يبغى التفقه فى أمور الدين والانقطاع للعبادة ، كما كانت موطن التفكير الدينى الخالص ، ومنبت كل دعوة وإرشاد حتى قيل « إن الدارس للثقافة العربية ليدهش من السرعة التى كانت تنتقل بها المعلومات بين أطراف العالم الإسلامى » وذلك لأن مكة هى واسطة العقد فى الإعلام الإسلامى الذى ينتشر منها إلى أقصى أرجاء العالم ، وقد قصد جمال الدين مكة لأداء فريضة الحج ، وظل بها نحو سنة فأدرك أهمية الحج فى الإعلام الإسلامى ، ولذلك يقول « إن العلماء العاملين لو وجهوا فكرتهم لإيصال أصوات بعض المسلمين إلى مسامع بعض ، لأمكنهم أن يجمعوا بين أهوائهم فى أقرب وقت ، وليس بعسير عليهم ذلك بعدما اختص الله من بقاع الأرض بيته الحرام بالاحترام ، وفرض على كل مسلم أن يحجه ما استطاع ، وفى تلك البقعة يحشر الله من جميع أجيال المسلمين — عشائرهم وأجناسهم . » وما هى إلا كلمة تقال ينهم من ذى مكانة فى نفوسهم تهتز لها أرجاء الأرض ، وتضطرب لها سواكن القلوب ، هذا ما أعدتهم له العقائد الدينية »(١) .

وهو يطالب رجال الإعلام الإسلامى فى جميع أنحاء الأمة الإسلامية بأن يرتبطوا معا « ويجعلوا لهم مراكز فى أقطار مختلفة يرجعون إليها فى شئون وحدتهم ، ويجمعوا أطراف الوشائج إلى مقعد واحد يكون مركزه فى الأقطار المقدسة وأشرفها بيت الله الحرام »(٢) .

ومن ذلك يتضح مكان الحج فى الإعلام الإسلامى عند جمال الدين ، وأثره فى تقوية الروابط بين المسلمين ، والاعتماد عليه كوسيلة إعلام عظمى عن الجامعة الإسلامية .

الأمر الذى يرتبط فى رؤياه كذلك بالخلافة كوسيلة لجمع الكلمة وإعادة الوحدة بين المسلمين ، ولذلك أراد أن يعيد لها مكانتها القديمة حتى تستعيد الأمة الإسلامية مجدها وقوتها . ومن قوله :

« كانت الملة كجسم عظيم قوى البنية ، صحيح المزاج ، فنزل به من العوارض ما أضعف الالتئام ، ثم انثلمت وحدة الخلافة فانقسمت إلى أقسام : عباسية فى بغداد ، وفاطمية فى مصر والمغرب ، وأموية فى أطراف الأندلس ، تفرقت بهذا كلمة الأمة ، وانشقت عصاها ، وانحطت رتبة الخلافة »(٣) .

---

(١) جمال الدين الأفغانى : مقال « الوحدة والسيادة » . فى « العروة الوثقى » ، ص ١٦٨

(٢) جمال الدين الأفغانى : مقال « انحطاط المسلمين وسكونهم وسبب ذلك . فى « العروة الوثقى » ، ص ٩٤

(٣) نفسه ، ص ٩١ — ٩٢

ثم اتجهت آمال جمال الدين نحو إيران فطالب بالقضاء على الخلافات المذهبية بين السنة والشيعة ، ليكون ذلك بداية لاتحاد الإيرانيين والأفغانيين .. وكان يطالب الإيرانيين بأن يكونوا للوحدة الإسلامية دعامة ، كما كانوا للنشأة الإسلامية وقاية ، فليس ببعيد على همم الإيرانيين أن يكونوا أول القائمين بتجديد الوحدة الإسلامية ، وتقوية الصلات الدينية »(١) .

العروة الوثقى والصحافة الإسلامية :

ويعنينا فى صدد دراستنا للإعلام الإسلامى ، أن نخصص جانبا منها **لجريدة العروة الوثقى** على اعتبار أنها من الصحف الرائدة للإعلام الإسلامى فى العصر الحديث ، والذى نعم بالطباعة كوسيلة من وسائل النشر والإعلام . ذلك أنه قد تبين مما سبق أن جمال الدين قد توسل بالوسائل الإعلامية المعروفة فى عصره وقبل عصره ، ولذلك ذهب إلى باريس ليصدر هذه الصحيفة التى أراد لها أن تعبر عن آراء « جمعية العروة الوثقى » وهى جمعية إسلامية تكونت فى ذلك الوقت . وكان القائمون عليها جماعة من أهل مصر والهند سعوا إلى إعادة الحكم الإسلامى ، ودعوة الأمم إلى الاتحاد والتضامن ومقاومة الاستعمار فى الهند ومصر . وأخذوا ينشرون الدعوة بوسائل الإعلام المعروفة فى ذلك الحين ، فاتخذوا من موسم الحج وسيلة إعلامية بين المسلمين . ثم لجأوا إلى الصحافة كوسيلة حديثة فى الاتصال بالمسلمين ، وأرادوا أن تكون لهم صحيفة « تصدر بلسان عربى ، فى مدينة حرة كمدينة باريس ليتمكنوا بواسطتها من بث آرائهم ، وتوصيل أصواتهم إلى الأقطار القاصية تنبيها للغافل وتذكيرا للذاهل ، فرغبوا إلى السيد جمال الدين الحسينى الأفغانى أن ينشئ تلك الجريدة بحيث تتبع مشربهم ، وتذهب مذهبهم »(٢)

وكان الشيخ محمد عبده — فى ذلك الحين — بمنفاه فى بيروت ، وكتب رسالة إلى السيد جمال الدين قال فيها :

« وها نحن سالكون فى سننك وعلى سنتك ، وكنا كذلك ولا نزال إلى انقضاء الأجيال . ولولا أطفال لنا رضع ، ونساء لنا طوع ، أبينا لهم الذل ، وأنفنا لهم الضيم ، فأتينا بهم إلى هنا — إلى حيث أقمنا — لكنت أول من تلقاك فى مدينة باريس » .

---

(١) جمال الدين : مقال « دعوة الفرس إلى الاتحاد مع الأفغانيين » . فى « العروة الوثقى » ، ص ٢١٦ — د . عبد الباسط محمد حسن : السابق .

(٢) العروة الوثقى : خاتمة المقالات ، العدد الأول ، ص ٤٢ ، ٤٣ — د . عبد الباسط محمد حسن : السابق .

ولم يلبث السيد جمال الدين أن بعث للشيخ محمد عبده ليوافيه فى باريس ، وليعملا معا فى جريدة **العروة الوثقى** وليكون محررها الأول ، فأجاب الشيخ محمد عبده السيد جمال الدين ، وسافر إلى باريس فى أوائل عام ١٨٨٤ م . ووضع الشيخ محمد عبده صيغة القسم الذى يربط أعضاء جمعية العروة الوثقى وقد جاء فيه :

« أقسم بالله العالم بالكلى والجزئى ، والجلى والخفى ، والقائم على كل نفس بما كسبت ، الآخذ لكل جارحة بما اجترحت ، لأحكمن بكتاب الله فى أعمالى وأخلاقى بلا تأويل ولا تضليل ، ولأدعون لنصرته .. أقسم بالله لأبذلن ما فى وسعى لإحياء الأخوة الإسلامية .. » .

وكانت هذه الجمعية تنفق على الجريدة لتوزع مجانا على كل من يطلبها ، ولقد صدر العدد الأول من العروة الوثقى فى ٥ جمادى الأولى من عام ١٣٠١ هـ ــ الموافق ١٣ مارس من عام ١٨٨٤ م ، وكان السيد جمال الدين مديرا للجريدة والشيخ محمد عبده محررا لها . ولذلك جمعت مقالاتها بين روح السيد جمال الدين وقلم الشيخ محمد عبده ، فجمعت بين قوة المعنى ورصانة الأسلوب . وكان يقوم بالترجمة من الصحف الإنجليزية فارسى اسمه « مرزا محمد باقر » تعلم فى مدارس الهند الإنجليزية وهو صغير ، فتنصر وسمى « ميرزا يوحنا » . وكان السيد جمال الدين قد عرفه من قبل فى ثغر « بوشير » فى إيران ، وكان يقول الأشعار فى هجاء الرسول ، ولكنه لم يلبث أن جعل يتردد على السيد جمال الدين من وقت إلى آخر إلى أن وافاه بباريس وأخبره برجوعه إلى الإسلام ، وأظهر استعداده للعمل لخدمة الإسلام والمسلمين ، وعرض على « السيد » رغبته فى العمل بجريدة « العروة الوثقى » فكلفه بالترجمة عن اللغة الإنجليزية التى كان يتقنها نثرا ونظما .

وقد لخصت الجريدة أغراضها فى عددها الأول ، ومنها :

١ ــ إفهام الشرقيين واجباتهم التى كان التفريط فيها موجبا لسقوطهم ، وتوضيح الطرق التى يجب سلوكها لتدارك ما فات .

٢ ــ إفهامهم كذلك أن الأمل فى النجاح قريب ، وإزالة ما حل بهم من اليأس .

٣ ــ دعوة المسلمين كافة إلى التمسك بالأصول التى كان عليها آباؤهم وأسلافهم ، فلا يصلح آخر هذا الأمر إلا بما يصلح به أوله ..

٤ ــ الدفاع عما يُرمى به الشرقيون عموما ــ والمسلمون خصوصا ــ من التهم ، وإبطال زعم الزاعمين أن المسلمين لا يتقدمون فى المدنية ماداموا متمسكين بأصول دينهم .

٥ ـ إخبار الشرقيين بما يهمهم من حوادث السياسة العامة والخاصة.

٦ ـ تقوية الروابط والصلات بين الأمم الشرقية .. وتمكين الألفة بين أفرادها، وتأييد المنافع المشتركة بينهم.

ومن تحليلنا لمضمون العروة الوثقى يتضح أنها عنيت بهذه الأغراض جميعا، فى إطار الدعوة إلى الجامعة الإسلامية.

يقول السيد جمال الدين:

« إذا تصفحنا تاريخ كل جنس، واستقرينا أحوال الشعوب فى حظها من الوجود على مقدار حظها من الوحدة، ومبلغها من العظة عى حسب تطاولها فى الغلب..

وما أهلك الله قبيلا إلا بعد ما رزئوا بالافتراق، وابتلوا بالشقاق ».

ويقول أيضا:

« وليس على المسلمين فى استرجاع مكانتهم الأولى والصعود إلى مقامهم الأول، إلا أن يجمعوا كلمتهم ويتعاونوا على ما يقصدون من إعزاز ملتهم ».

وكان يبدأ مقالاته بآيات من كتاب الله وأحاديث الرسول، معظمها يدعو إلى الاتحاد ويحض على ترك المنازعات بين المسلمين، من ذلك ما افتتح به بعض مقالاته:

﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ﴾ آل عمران ١٠٣.

﴿ وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم ﴾. الأنفال ٤٦.

ولقد أحس بعض ساسة الإنجليز بخطر « العروة الوثقى » وأخذت الجرائد الإنجليزية تنادى بضرورة وقفها ومنعها عن الصدور. فرد عليهم فى العروة الوثقى بقوله:

« ولكن فلتعلم الحكومة الإنجليزية أننا لا يعجزنا بث أفكارنا فى البلاد الشرقية، سواء بهذه الجريدة أو بوسيلة أخرى إذا دعا الحال، فإن أنصار الحق كثيرون ».

وكانت العروة الوثقى توزع فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى، كما عنيت الجرائد الهندية بترجمة مقالاتها ونقلها إلى اللسان الهندى، وخاصة جريدة « أخبار دار السلطنة » التى تطبع فى كلكتا وجريدة « مشير قيصر » التى تطبع فى « الكهنو ».

ولم تلبث الحكومة الإنجليزية أن أمرت بمنع العروة الوثقى من الدخول فى مصر والهند، وانعقد مجلس النظار المصرى فى القاهرة، واهتم بالبحث فى شأن « العروة الوثقى »، ثم أصدر قراره إلى نظارة الداخلية المصرية بأن تشدد فى منع الجريدة من دخول الأقطار المصرية « حفظا للنظام العمومى ». وقد علقت « العروة الوثقى » على هذا القرار بقولها:

« وبلغنا أن الجريدة الرسمية بعد نشرها صورة الأوامر التى أعلنت أن كل من توجد

عنده « العروة الوثقى » يغرم مبلغا من خمسة جنيهات مصرية إلى خمسة وعشرين جنيها . أما نحن فلا نظن أحدا من النظار المصريين له رأى اختيارى فى هذا القرار ، بل لا نتوهم فى المستوى على كرسى الخديوية ميلا إلى مثل هذا الحكم .

« فلا غرابة فى صدور مثل هذا الجور منها ، غير أننا نعلن أن همم الرجال لا تقعدها أمثال هذه المظالم ، وليس يعجزنا إدخال هذه الجريدة فى كل بقعة تحوطها السلطة الإنجليزية الظالمة ، ذلك بعزائم أولى العزم الذين قاموا بإنشاء العروة الوثقى » .

ولكن العروة الوثقى لم تلبث أن احتجبت ، وسافر الشيخ محمد عبده إلى بيروت بينما بقى السيد جمال الدين فى فرنسا . ومع ذلك ظل أثرها عميقا فى الأمة الإسلامية ، يقول الشيخ رشيد رضا :

« سمعت أستاذنا الشيخ حسينا الجسر — عالم سوريا الوحيد فى الجمع بين العلوم الإسلامية ومعرفة حالة العصر السياسية والمدنية يقول : ما كان أحد يشك فى أن جريدة العروة الوثقى ستحدث انقلابا عظيما فى العالم الإسلامى لو طال عليها الزمان » .

انطلاقه جديدة للإعلام الإسلامى :

ومن العروة الوثقى انطلق الإعلام الإسلامى إلى مرحلة جديدة على يد الشيخ محمد عبده والشيخ محمد رضا والشيخ مصطفى عبد الرازق والأستاذ محمد فريد وجدى والشاعر محمد إقبال ، من الذين جعلوا الإعلام الإسلامى فى العصر الحديث قائما على تحكيم العقل ، والرجوع إلى القرآن الكريم . فلفت الإعلام الإسلامى فى أواخر القرن الماضى وبداية هذا القرن أنظار الأوربيين والمهتمين منهم بالإسلام بصفة خاصة .

فكان على الإعلام الإسلامى فى هذه المرحلة أن يدافع عن الإسلام ضد أعدائه من الذين رموه بشتى التهم ، على نحو ما فعل السيد جمال الدين ، وعلى نحو ما فعل الشيخ محمد عبده فى رده على « جابرييل هانوتو » وزير الخارجية الفرنسية ، وفى رده على فرح أنطوان محرر مجلة « الجامعة » . وكان رده على خصومه قويا وقائما على أساس من التفكير المستقيم ، كما كانت صحيفتا « اللواء » لمحررها مصطفى كامل و « المؤيد » لمحررها الشيخ على يوسف فى مصر معبرتين عن هذا الاتجاه أصدق تعبير وأحسنه .

إقبال والإعلام الإسلامى :

أما إقبال فقد قام بدور كبير فى الإعلام الإسلامى . يقول :

« إن على المسلم اليوم عملا شاقا ، عليه أن يعيد النظر فى الإسلام كله دون انقطاع عن الماضى . وقد أدرك جمال الدين الأفغانى خطر العمل وسعته ، وكان حريا أن يكون

حلقة حية بين الماضى والمستقبل بنظره الثاقب، ونفاذه إلى حقيقة تاريخ المسلمين وتاريخ ثقافتهم، إلى ما أوتى من إدراك واسع يسرته له تجاربه فى الناس والأخلاق. فلو قصر جهاده الدائب على الإسلام من حيث هو نظام للعقائد والأعمال الإنسانية لكانت قواعد الفكر الإسلامى اليوم أقوى وأقوم ».

إقحام القومية والعنصرية على الإسلام :

ويمكن النظر إلى مواقف وأفكار جمال الدين الأفغانى على أنها كانت فى نطاق مقاومة الاستعمار الذى كان يستهدف الانفراد بالتوجيه داخل الشعوب الإسلامية، والتبشير بالفكر الأوربى وبالمسيحية، وتيئيس المسلمين فى مستقبلهم وفى علاقتهم بإسلامهم. وكان للاستعمار دوره فى دخول الاضطراب والبلبلة فى جوهر أهداف الإعلام الإسلامى فى مطلع القرن الحالى، بإقحام القومية والعنصرية وخلط بينهما وبين الإسلام، بصورة تفاعلت بعد ذلك بشكل خطير جدا، أدى إلى ما نراه اليوم من تضارب فى الأهداف وتباين فى وجهات النظر واختلاف فى الوسائل.

ولذلك وجدنا جمال الدين الأفغانى يحمل على السيد أحمد خان وينقد اتجاهه الطبيعى نقدا مرا فى كتابه « الرد على الدهريين ». وفى الوقت نفسه يدعو المسلمين جميعا إلى العودة إلى القرآن الكريم، ونبذ الخصومة المذهبية، والرجوع إلى حال المسلمين الأول قبل انفصال الرتبة العلمية عن رتبة الخلافة، وقتما قنع العباسيون باسم الخلافة دون أن يحوزوا شرف العلم والتفقه فى الدين والاجتهاد فى أصوله وفروعه، كما كان الراشدون رضى الله عنهم(١).

إقبال يهاجم القاديانية :

ووجدنا محمد إقبال يهاجم **القاديانية** هجوما عنيفا من الوجهة الإسلامية، وفى الوقت نفسه يكتب كتابه « تجديد الفكر الدينى فى الإسلام ».

ويوضح فيه محاولته لتقرير « علم الكلام » الإسلامى فى صورة حديثة، كما يوضح مزايا التعاليم الإسلامية فى خلق جماعة حية قوية، ويطلب إلى المسلمين أن يفهموا الإسلام فى ضوء الحياة المعاصرة، وأن يسعوا فى تكييفها وطبعها بطابع إسلامى، بدلا من وقوفهم عند حد مفاهيم عصر الركود للمبادئ الإسلامية.

---

(١) العروة الوثقى، ص ٧٨

محمد عبده يهاجم الاستشراق :

ونرى الشيخ محمد عبده يهاجم الاستشراق ، ثم يضطره هذا الهجوم إلى الكتابة عن مزايا الإسلام بالنسبة للمسيحية . وفى الوقت ذاته يضع منهجه التربوى لفهم الإسلام فى ضوء القرآن والسنة الصحيحة ، بدلا من إسلام المتكلمين وإسلام أرباب الكتب المتأخرة التى كانت تعيش فى عزلة عن الحياة العامة نفسها . وهذه الحياة العامة نفسها كان طابعها هو الانقسام إلى شيع ، والتعصب والتقليد الضار ، والضعف السياسى والاقتصادى . وسينعكس هذا كله على كتابات العصر لو عاشت فيه .

حملات الاستشراق الصليبى :

ولقد واجه الإعلام الإسلامى حملات شرسة من جانب الاستشراق الصليبى الذى تستر بدوره بستار البحث العلمى والمعرفة الفعلية ، فيحدثنا المستشرق النمساوى ليوبولد فايس الذى أسلم وتسمى باسم « محمد أسد » ، وتولى رياسة قسم الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية الباكستانية فترة من الزمن ، يحدثنا فى كتابه « الإسلام على مفترق الطرق » عن أثر الحملة الصليبية فى تشويه الإسلام ، وعن دراسة الاستشراق لتعاليمه ، يقول :

« إلا أن الشر الذى بعثه الصليبيون لم يقتصر على صليل السلاح ، ولكنه كان قبل كل شيء وفى مقدمة كل شيء شرا ثقافيا ! لقد نشأ تسميم العقل الأوربى عما شوهه قادة الأوربيين من تعاليم الإسلام ومثله العليا أمام الجموع الجاهلية فى الغرب ! فى ذلك الحين استقرت تلك الفكرة المضحكة فى عقول الأوربيين .. من أن الإسلام دين شهوانية ، وعنف حيوانى ، وأنه تمسك بفروق شكلية وليس تزكية للقلوب . . . سيرا لها ، ثم بقيت هذه الفكرة حيث استقرت ؟ »

« إن من أبرز الحقائق على ذلك الفيلسوف والشاعر الفرنسى فولتير ، وهو من ألد أعداء النصرانية وكنيستها فى القرن الثامن عشر — لكنه كان فى الوقت نفسه مبغضا مغاليا للإسلام ولرسول الإسلام(١) » .

أما وصفه لعمل « المستشرقين » فيودعه فى عباراته الآتية : لا تجد موقف الأوربى موقف كره فى غير مبالاة فحسب .. كما هى الحال فى موقفه من سائر الأديان والثقافات عدا الإسلام . بل هو كره عميق الجذور يقوم فى الأكثر على صدود من التعصب الشديد ؟ وهذا الكره ليس عقليا فقط ، ولكنه أيضا يصطبغ بصبغة عاطفية قوية ؟ !

---

(١) الإسلام على مفترق الطرق ، ص ٥٨ ، د . عبد الباسط محمد حسن : السابق

« قد لا تقبل أوربا تعاليم الفلسفة « البوذية » أو « الهندوكية » ، ولكنها تحتفظ دائما فيما يتعلق بهذين المذهبين بموقف عقلي متزن ومبني على التفكير ؟!

« إلا أنها طالما تتجه إلى « الإسلام » يختل التوازن ويأخذ الميل العاطفي في التسرب ، حتى إن أبرز المستشرقين الأوربيين جعلوا من أنفسهم فريسة التخريب غير العلمي في كتاباتهم عن الإسلام .. ويظهر في جميع بحوثهم على الأكثر كما لو أن « الإسلام » لا يمكن أن يعالج على أنه « موضوع » بحث في البحث العلمي ، بل إنه « متهم » يقف أمام قضاته ! إن بعض المستشرقين يحتلون دور « المدعي العام » الذي يحاول إثبات الجريمة ، وبعضهم يقوم مقام « المحامي » في الدفاع !! فهو مع اقتناعه شخصيا بإجرام موكله لا يستطيع أكثر من أن يطلب له — مع شيء من الفتور — اعتبار « الأسباب المخففة » !!

« وعلى الجملة ، فإن طريقة الاستقراء والاستنتاج التي يتبعها أكثر المستشرقين تذكرنا بوقائع « دواوين التفتيش » ، تلك الدواوين التي انشأتها الكنيسة الكاثوليكية لخصومها في العصور الوسطى ! أي تلك الطريقة التي لم يتفق لها أبدا أن نظرت في القرائن التاريخية بتجرد وغير تحزب ، ولكنها كانت في كل دعوى تبدأ باستنتاج متفق عليه قبل قد أملاه عليها تعصبها لرأيها . ويختار المستشرقون « شهودهم » حسب الاستنتاج الذي يقصدون أن يصلوا إليه مبدئيا . وإذا تعذر عليهم الاختيار العرفي للشهود عمدوا إلى اقتطاع أقسام من الحقيقة التي شهد بها الشهود الحاضرون ، ثم فصلوها عن المتن ، أو تأولوا الشهادات بروح غير علمي من سوء قصد من غير أن ينسبوا قيمة ما إلى عرض القضية من وجهة نظر الجانب الآخر .. أي من قبل المسلمين أنفسهم »(١) .

وهكذا فإننا نرى أن الإعلام الإسلامي بعد بداية القرن الحاضر قد عني بدراسة المستشرقين وواجه تشويههم للإسلام ، كما واجه من جانب آخر الفكر المادي المنكر للروحية أو المستخف بها ، وواجه ويواجه كذلك الدعوات المنحرفة التي أوجدها الاستعمار والصهيونية ، وسخر لها القوة المادية والفنية ، ودعمها بشتى الوسائل لإيقاع البلبلة في أفكار المسلمين على نحو ما يتضح في القاديانية والبهائية بوجه خاص .

ونقدم فيما يلي نماذج من أبحاث المستشرقين تعرض لمواقفهم وآرائهم وأثرهم في تشويه جوهر الإعلام الإسلامي :

١ — يتابع يوسف شاخت أستاذه جولد تسيهر « وهما مستشرقان يهوديان » في الغض من شأن الشريعة الإسلامية ، ويحاول الادعاء بأن الشريعة الإسلامية لا تختلف عن أعراف الجاهلية ، وهو ادعاء باطل تصدى له كثير من الباحثين .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٥١ — ٥٢ .

ومن أكاذيب شخت وأضاليله: الادعاء بأن للفكر الإغريقى فضلا على الفكر الإسلامى. وقد أثبت علماء الغرب أنفسهم مثل « سيديو، درابر، وسارطون » وغيرهم أن الإسلام هو الذى أدخل إلى الغرب المنهج العلمى التجريبى، وأن الحضارة العالمية المعاصرة مدينة للمسلمين بهذا المنهج الذى هو أساس الحضارة الإسلامية.

٢ — أنكر برتلو أن تكون الكتب الكيمائية اللاتينية التى تحمل اسم جابر بن حيان هى كتب عربية الأصل كتبها عالم مسلم، لمجرد أن أصولها العربية فقدت. وقد تصدى لبرتلو علماء راسخون ردوا عليه خطأه، بل اتهمه بعضهم بالجهل والتحيز. وقال سارطون: إن أى شخص يعرف العربية لا يخطئ مطلقا فى اكتشاف أن هذه الكتب اللاتينية ترجمات لكتب عربية، إذ تبدو الأساليب العربية واضحة من الترجمة اللاتينية، سواء كانت لجابر أو لغيره.

٣ — ويزعم سلرسكى أن جانبا مما ورد فى القرآن أو التفاسير والسير من الأخبار يرجع إلى الإجادة اليهودية والتوراة والأناجيل. وقد بيّن الدكتور بشر فارس فساد هذا الرأى وقال: إن بين النصوص الإسلامية والنصوص اليهودية والمسيحية مسافات، وإن اتفق بعضها أو تقارب ..

٤ — وحاول نلينو أن ينفى حقيقة أن قريشا كانت أفصح العرب، وله فى ذلك مغالطات واسعة ترمى إلى التشكيك فى هذه الحقيقة، ويقول: إن تفضيل لغة قريش لم يكن مصدره سوى حب العرب للرسول.

٥ — وزعم لويس شيخو اليسوعى أن معظم شعراء الجاهلية وصدر الإسلام كانوا نصارى، وأن الغسانيين كانوا نصارى. وهو قول لا يسلم به المطلعون على أخبار العرب فى عهد الجاهلية، لأن من الغساسنة من كان على الوثنية ومنهم من دان باليهودية وطائفة كانت تدين بالنصرانية. وممن عداهم نصارى من الشعراء.. الأخنس بن شهاب وامرؤ القيس وأمية بن أبى الصلت والسموءل.

وهكذا جرت بحوث المستشرقين وراء بث الشبهات حول القرآن الكريم ولغته والحديث الشريف والتشريع الإسلامى، ولا يتسع المقام للتوسع فى ضرب الأمثال(١).

لا نكران أن طائفة من المستشرقين اتسموا بالاعتدال والإنصاف على تفاوت فيما بينهم، فمنهم من أخطأ وأصاب ومنهم من انتهى به البحث الحر النزيه إلى الإيمان والإسلام. ويعتبر من الفريق الأول « رينان » الذى انتهى به بحثه عن المسيح عليه السلام

---

(١) راجع: « دفاع عن العقيدة والشريعة » للشيخ محمد الغزالى — الإسلام فى وجه التغريب: « مخططات الاستشراق والتبشير » للأستاذ أنور الجندى — د. عبد الباسط محمد حسن: السابق.

إلى إثبات أنه لم يكن إلٰها ولا ابن إلٰه، وإنما هو إنسان يمتاز بالخلق السامى والروح الكريمة، وأن السير العربية للنبى محمد « ﷺ » كسيرة ابن هشام لها ميزة تاريخية أكبر من الأناجيل المتداولة بين النصارى.

ومنهم: « كارلايل » الذى عدّ « محمدا » ﷺ فى الأبطال وخصه بصفحات كثيرة من كتابه « الأبطال » يقول فيه: « من العار أن يصغى أى إنسان متمدين من أبناء هذا الجيل إلى وهم القائلين إن دين الإسلام كذب، وأن محمدا لم يكن على حق. فالرسالة التى دعا إليها هذا النبى ظلت سراجا منيرا أربعة عشر قرنا من الزمان لملايين كثيرة من الناس، وما الرسالة التى أداها محمد « ﷺ » إلا الصدق والحق، وما كلمته إلا صوت صادق صادر من العالم المجهول، وما هو إلا شهاب أضاء العالم أجمع، ذلك أمر الله، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

ومنهم « تولستوى » أكبر كتاب روسيا، فإنه لما رأى الحملة الظالمة على الإسلام ورسوله، كتب رأيه معربا عن الإعجاب بالإسلام، وتحدث عن المسيحية فأنكر على المسيحيين اعتقادهم بألوهية المسيح، وخلص إلى أن بولس لم يفهم تعاليم المسيح بل طمسها، والكنيسة زادت تعاليم المسيح فى العقيدة غموضا.. ويقول إن المسيحيين واليهود والمسلمين يعتقد جميعهم بالوحى الإلٰهى، فالمسلمون يعتقدون نبوة موسى وعيسى ولكنهم يعتقدون كما أعتقد بأنه دخل التحريف والتشويه على كتب الديانتين. وهم يعتقدون بأن محمدا خاتم الأنبياء، وأنه أوضح فى القرآن تعاليم موسى وعيسى كما قالاها دون زيادة ولا نقص.. وينتهى بالحديث عن رسول الله محمد ﷺ حديث الإكبار والتعظيم. وكان مما قاله تولستوى: « لا ريب أن هذا النبى من كبار الرجال المصلحين الذين خدموا الهيئة الاجتماعية خدمة جليلة، ويكفيه فخرا أنه هدى أمه برمتها إلى نور الحق، وجعلها تجنح للسلام وتكف عن سفك الدماء وتقديم الضحايا، ويكفيه فخرا أنه فتح طريق الرقى والتقدم، وهذا عمل عظيم لا يفوز به إلا شخص أوتى قوة وحكمة وعلما، ورجل مثله جدير بالاحترام والإجلال ». وقد كان جزاؤه على كلمة الحق التى قالها أن حرمه البابا من الرحمة(١).

ومن المستشرقين الذين انتهى بهم البحث عن الحق إلى الإسلام اللورد هيدلى، وأتيين دينيه « ناصر الدين »، والشاعر الألمانى الكبير جوتيه، والدكتور جرينيه الذى كان عضوا فى مجلس النواب الفرنسى، وقد سئل عن سبب إسلامه فقال: « إنى تتبعت كل

(١) « التبشير والاستشراق » أحقاد وحملات، للمستشار محمد عزت إسماعيل الطهطاوى، ص ٥٩ — ٦٢

الآيات القرآنية التى لها ارتباط بالعلوم الطبية والصحية والطبيعية والتى درستها من صغرى وأعلمها جيدا ، فوجدت هذه الآيات منطبقه كل الانطباق على معارفنا الحديثة ، فأسلمت لأنى تيقنت أن محمدا « أتى بالحق الصراح من قبل ألف سنة ، من قبل أن يكون له معلم أو مدرس من البشر . ولو أن كل صاحب فن من الفنون ، أو علم من العلوم ، قارن كل الآيات القرآنية المرتبطة بما تعلم جيدا كما قارنت أيضا ، لأسلم بلا شك إن كان عاقلا خاليا من الأغراض »(١) .

وصدق الله العظيم ﴿ سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾(٢) .

أيقن أعداء الإسلام .. أنه لا سبيل إليه وعقيدته حية فى قلوب المسلمين ، فكان بداية التبشير .. مع نهاية الحروب الصليبية فشلا فى مهمتها . وهو ما صرح به « ملخص تاريخ التبشير » ..

ويقول القسيس المبشر زويمر إن جزيرة العرب التى هى مهد الإسلام لم تزل نذير خطر للمسيحية . ويكمل وليم جيفورد بالكراف المعنى فيقول : متى توارى القرآن ومدينة مكة عن بلاد العرب ، يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه .

واتخذ التبشير لدعوة المسلمين أساليب عديدة .. أظهرها لنا :

(أ) المدارس المختلفة التى فتحت فى أرجاء العالم الإسلامى ولم تنج منها حتى عاصمة الخلافة الإسلامية نفسها ، وباشرت تلك المدارس التأثير على الطفولة البريئة والشبيبة الغضة .. من أبناء المسلمين ، وكانت لها نتائج إيجابية محدودة .. لكنها إن لم تمح فى المجموع عقائد التلاميذ فيكفى أنها بذرت فيها بذور الشك أو الانحراف . ولا تزال من آثار تلك المدارس .. الجامعة الأمريكية فى مصر ، والجامعة الأمريكية فى بيروت ، الأمر الذى لا ينكره رجالات الغرب أنفسهم .

ويلحق بهذه الوسيلة تغريب التعليم أو علمانيته ، وهو ما فعلته إنجلترا فى مصر والهند .

(ب) ومن أخطر هذه الوسائل البعثات إلى الدول المسيحية الغربية ، وأول مثل لأثر البعثات ما حدث لرفاعة الطهطاوى الذى أقام فى باريس من سنة ١٢٤٢هـ «١٨٢٦م» إلى سنة ١٢٤٧هـ «١٨٣١م» فقد عاد ذلك الشيخ .. بغير العقل الذى ذهب به .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٦٧ — و « أوربا والإسلام » للدكتور عبد الحليم محمود .

(٢) فصلت ٥٣

ورسول الله ﷺ يقول (لكل بنى آدم حظ من الزنا .. فالعينان تزنيان وزناهما النظر ، واليدان تزنيان وزناهما البطش ، والرجلان تزنيان وزناهما المشى ، والفم يزنى وزناه القبل ، والقلب يهوى ويتمنى ، والفرج يصدق ذلك أو يكذبه) .. صدق رسول الله عليه الصلاة والسلام .

وتحدث عن المشاعر الوطنية ليحلها محل المشاعر الدينية ، وراح يثير الجاهلية القديمة فيتحدث عن مصر الفرعونية وينسى مصر الإسلامية ، وأعجب الطهطاوى بالحرية لكنه لم يفهمها الفهم الإسلامى ، الذى تتحقق به عبودية المسلم لله وحده ، ويتحقق تحرره من كل عبودية لسوى الله . لكنه فهمها الفهم الغربى الذى يؤدى إلى التحرر من الأخلاق ومن الدين نفسه !

وقس على الشيخ رفاعة من ذهبوا بعده .

(جـ) ثم تأتى سائر وسائل التبشير .. فتح المستشفيات وبعث الإرساليات الطبية .. التى يقرر كثير من المبشرين فى مؤتمراتهم وكتاباتهم أنها أدت إلى نتائج أسرع وأفضل من عمل القسس التبشيرية .

(د) ثم المحاضرات والندوات .. والكتب والمجلات والصحف والنشرات إلخ .

أما مؤتمرات التبشير فقد تعددت .. نذكر منها :

١ ــ مؤتمر القاهرة سنة ١٣٢٤ هـ (١٩٠٦م) المنعقد فى منزل زعيم الثورة العرابية المسلم فى باب اللوق ، تحت سمع الحكومة وبصرها !

٢ ــ مؤتمر إدنبرج سنة ١٣٢٨ هـ (١٩١٠ م) فى إنجلترا .

٣ ــ مؤتمر لكنوه سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م) بالهند .

٤ ــ مؤتمر القدس سنة ١٣٤٣ هـ (١٩٢٤م) .

٥ ــ مؤتمر القدس سنة ١٣٥٤ هـ (١٩٣٥م) .

٦ ــ مؤتمر القدس سنة ١٣٨٠ هـ (١٩٦١ م) .

وما بلغنا عنها إلا القليل . وأشهره ما نشرته مجلة « العالم الإسلامى » .

ولا نعتقد أن ما نشر هو كل ما قيل وحدث ..

ومع ذلك تشير الدراسات إلى نماذج من المؤتمرين الأول والثالث .

---

(١) د . عبد الباسط محمد حسن : السابق

وقد تناول المؤتمر وسائل تبشير المسلمين بالنصرانية فى كتاب خاص كتب عليه نشرة خاصة، ليكون قاصرا على فئة من المبشرين.. وهو من إعداد القسيس الأمريكى فليمنج.

ثم تعرض المؤتمر للأزهر فنعى أن باب التعليم مفتوح للجميع، خصوصا وأن أوقاف الأزهر الكثيرة تساعد على التعليم فيه مجانا.

وطالب سكرتير المؤتمر فى مواجهة ذلك بإنشاء معهد مسيحى لتنصير الممالك الإسلامية « قيل إن أساس تكوين الجامعة الأمريكية فى مصر كان تنفيذا لتلك الوصية ».

ثم عرض المؤتمر لخريطة تنصير العالم الإسلامى فى هذا العصر.

وقدم القسيس « زويمر » رئيس المؤتمر » بمعاونة بعض زملائه كتابا تحت عنوان « العالم الإسلامى اليوم » أشار إلى صلابة عقيدة المسلمين « وهو ما يقتضى الاشتداد فى حربها » وقال ما نصه « لم يسبق وجود عقيدة مبنية على التوحيد أعظم من عقيدة الدين الإسلامى الذى اقتحم قارتى آسيا وإفريقية، وبث فى مائتى مليون من البشر عقائده وشرائعه وتقاليده، وأحكم عروة ارتباطهم باللغة العربية ».

ثم قدم القسيس زويمر بعض النصائح من بينها:

(أ) وجوب إقناع المسلمين بأن النصارى ليسوا أعداءهم.

(ب) وأخطرها يجب تبشير المسلمين بواسطة رسول من أنفسهم ومن بين صفوفهم، لأن الشجرة يجب أن يقطعها أحد أعضائها.

وأخيرا بشر المبشرين ألا يقطنوا، إذ من المحقق أن المسلمين قد نما فى قلوبهم الميل الشديد إلى علوم الأوربيين وإلى تحرير النساء.

وفى مؤتمر لكنوه المنعقد فى الهند سنة ١٣٢٩ هـ (١٩١١ م). كانت مواده كثيرة أخطرها:

(أ) النظر فى حركة الجامعة الإسلامية ومقاصدها وطرقها، والتأليف بينها وبين تنصير المسلمين.

(ب) الارتقاء الاجتماعى والنفسى بين النساء المسلمات « يلاحظ اختيار الألفاظ المهذبة لتغطية المعنى المقصود.. فإن المبشرين المسيحيين لا يهمهم فى شيء ارتقاء النساء المسلمات ».

وكان أخطرها حديث زويمر الذى أشار إلى أن عبد الحميد « خليفة المسلمين » سجين فى سلانيك.. أشار إلى أنه لم يبق غير ٢٧,١٢٨,٨٠٠ مسلم تحت سلطة

الحكومات الإسلامية .. وانتقلت السلطة على الباقين من الخلافة الإسلامية إلى أيدى كل من إنجلترا وفرنسا وروسيا وهولندا . أشار إلى أن عدد المسلمين الذى تحت سلطة الدول النصرانية سيزداد كثيرا عقب انقلابات قريبة الحصول ؟؟

وكان من بين قرارات المؤتمر :

« من الضرورى العاجل تأسيس مدرسة فى مصر خاصة بالتبشير » .

« دخول النساء فى أعمال التبشير لتنصير النساء المسلمات وأولادهن » .

وهم الآن لا يدعون المسلمين إلى المسيحية ، بل يحاولون تشويه الإسلام وإضعاف قيمه .

سلبيات الإعلام المعاصرة فى الأمة الإسلامية :

ومما تقدم جميعا نحاول فيما يلى استخلاص الإيجابيات والسلبيات التى تكتنف الإعلام الإسلامى فى حاضره ، ومنها :

أ ــ أنه كان من الضرورى التصدى بقوة لإقحام المفاهيم المستوردة على جوهر الإسلام .

ب ــ التصدى للبلبلة التى وقع فيها العالم الإسلامى نتيجة لكثرة الآراء والاتجاهات وإدخال الكثير من الضلالات والمفتريات التى سبقت الإشارة إلى بعضها ، مثل الدعوات المنحرفة التى أوجدها الاستعمار والصهيونية ، وسخر لها القوة المادية والفنية ودعمها بشتى الوسائل لإيقاع البلبلة فى أفكار المسلمين : القاديانية والبهائية بوجه خاص ، مع العلم بأن هناك صلات قائمة إلى الآن بين الدعوات المنحرفة وأعداء الإسلام « الاستعمار والصهيونية » .

الصهيونية والخطر الدعائى والإعلامى :

والصهيونية من أخطر أعداء الإسلام ، بما تفرضه من قهر سياسى وقسر فكرى وتمايز عنصرى . وفى بروتوكولات صهيون يتضح هذا المعنى تماما ، فهى تعتمد على تقويض أركان المجتمع العالمى وبث عناصر للانحلال تعبث فى كيانه ، وتعمل على إشاعة الفوضى الاجتماعية والفكرية ، وسبيلها إلى ذلك **الدعاية** المنظمة التى تتوسل بأجهزة الإعلام والاتصال بالجماهير بهدف اغتصاب العقل البشرى والسيطرة عليه ، سواء كانت هذه الأجهزة منظمات يهودية سافرة ، أم منظمات اجتماعية سرية أو علنية ، كالجمعيات الماسونية وفرسان المعبد وجماعات الصليب الوردى ويهود يهوه والكباك وغيرها من الهيئات والمنظمات والجمعيات التى بثوها فى أقطار العالم ، يعملون فيها على

وأد الشعور الديني لدى المنتمين إليها من شتى الأجناس والأديان . ويسيطر على وسائل الإعلام كالإذاعة والصحافة والسينما ووكالات الأنباء، يستخدمونها فى الحرب النفسية وإشاعة الفوضى وزعزعة القيم الأخلاقية .

ومن بروتوكولات حكماء صهيون التى تعتبر الدستور العلمى للحركة الصهيونية ، يتضح أن أهدافها تتلخص فيما يلى :

١ — إشاعة الفوضى الشاملة :

جاء فى البروتوكول الخامس : « إننا نقرأ فى قاموس الأنبياء أن الله اختارنا لحكم العالم ، وقد وهبنا الله العبقرية لنقوم بهذا العمل » . وقد تركزت هذه العبقرية — مع الأسف — فى الافتنان فى وسائل الفساد والتخريب ، وفساد الحكومات والمجتمعات ، وتخريب الدول والنفوس ، وعلى هذا الأساس فضلت البروتوكولات المناهج العلمية لتقويض الحكم القائم فى شتى الدول ، وإقامة حكومة يهودية جامعة على أنقاضها : « أروع النتائج التى يمكن الحصول عليها فى سبيل حكم العالم ، يتحقق باستخدام العنف والتهديد لا بالمناقشات الأكاديمية » .. « وإن الذى يحكم يجب أن يلجأ إلى الحيلة والنفاق ، وفى السياسة تستحيل الصفات الإنسانية من أمانة وصدق إلى رذائل تؤدى إلى سقوط الملك عن عرشه » .. « يجب أن يكون شعارنا : جميع وسائل القوة والنفاق تحتم أن يكون البطش هو المبدأ ، والحيلة والنفاق هما القاعدة لدى الحكومات التى لا تريد أن تضع تاجها تحت أقدام أعوان أى حكم جديد .. وهذا الشر هو السبيل الوحيد لبلوغ الخير ، فعلينا ألا نتردد أمام شراء الذمم والغدر والاحتيال إذا كان ذلك يخدم قضيتنا » .

وتنشأ عن هذه الخطط والوسائل الصهيونية إشاعة الفوضى فى العالم والتسلل اليهودى من خلالها ، وهذا ما تعانيه البشرية اليوم : فوضى عاتية جائحة ، سياسية وفكرية وروحية واجتماعية واقتصادية .

٢ — إثارة الفتن والوقيعة بين شعوب العالم ودوله :

كشف الحاخام عمانوئيل رابينوفتش عن خطة الصهيونية فى خطابه بمؤتمر الربانيين بمدينة بوادبست سنة ١٩٥٤ م « ١٣٧٣ هـ » حيث قال : « هل تذكرون حملاتنا الدعائية الناجحة عام ١٩٣٠ ؟ لقد أثارت الحقد على الأمريكيين فى ألمانيا والألمانيين فى أمريكا وهذا هو ما أدى إلى نشوب الحرب العالمية الثانية . وقد شرعنا فى شن حملات مماثلة فى سائر أنحاء العالم فأثرنا فى روسيا موجة من الحقد ضد الولايات المتحدة ، وفى نفس الوقت أثرنا فى الولايات المتحدة شعورا بالخوف والتوجس إزاء الشيوعيين ،

وتؤدى هذه الحملات إلى دفع الدول الصغيرة إلى تحديد موقفها إما مع روسيا وإما مع أمريكا ».

وهذا تطبيق لما رسمته البروتوكولات صراحة، ففى البروتوكول العاشر: « يجب بث الاضطرابات بصفة مستديمة فى العلاقات القائمة بين الشعب والحكومات، وإشاعة الأعمال العدوانية والأحقاد، وحتى عذاب الجوع والحاجة والأمراض، لدرجة لا يرى معها غير اليهود مخرجا للأرزاء التى تحل بهم سوى الالتجاء إلى أموالنا وإلى سيادتنا المطلقة ».

وفى البروتوكول الحادى عشر: « غير اليهود كقطيع من الأغنام، أما نحن فإننا الذئاب، وهل تعلمون ما تفعل الأغنام إذا اقتحم الذئاب حظيرتها؟ إنها تغمض عينيها، وسندفعهم إلى ذلك ».

ويتضح فى البروتوكول الخامس عشر كيف يعمل الصهيونيون لتحقيق أهدافهم: « وإذا ما تولينا السلطة بما نكون قد أعددناه من انقلابات تحدث فى جميع الدول فى وقت واحد — بمجرد أن يعلن رسميا عجز حكومات تلك الدول عن حكم الشعب، وقد يمضى على ذلك وقت طويل ربما يبلغ قرنا — سنبذل كل جهدنا لمنع المؤامرات ضدنا ».

وإعمالا لهذه التعاليم نلاحظ أن اليهود دائما ضالعون مع كل حركة تخريب فى العالم، فقد كانوا وراء الحرب العالمية الأولى يظاهرونها ويذكون أوارها انتقاما من روسيا التى تصدت لليهود وانتقمت منهم.. وقد استغل اليهود تلك الحرب الضروس لفائدتهم المالية بإقراض الدول بالربا الفاحش، وترويج تجارتهم فى مواد القتال التى يحتكرونها، والقضاء على شعوب أوربا وتقويض دولها.

كما حاول اليهود استغلال الثورة البلشفية فى روسيا، وفرضوا وصايتهم عليها لتحقيق مآربهم العنصرية التى فشلوا فى تحقيقها فى عهد القياصرة.

وقد نجحت العناصر الصهيونية فى حكومة البلاشفة فى ممالأة اليهود والتستر على ما قد يسيء إليهم ويفضح نواياهم، فلما طبعت البروتوكولات فى روسيا سنة ١٩١٧ باللغة الفرنسية صودرت هذه الطبعة رسميا، ولم يسمح بطبعها بعد ذلك.

٣ — الإرهاب الفكرى وإفساد الرأى العام:

يشرح البروتوكول الخامس كيفية إفساد الرأى العام وبلبلة الأفكار فيقول « ولكى نطمئن إلى الرأى العام يجب أن نربكه تماما، فنسمعه من كل جانب وبشتى الوسائل آراء متناقضة لدرجة يضل معها غير اليهود الطريق ».. ويوصى بـ« مضاعفة الأخطاء التى

ترتكب ، والعادات والعواطف والقوانين الوضعية فى البلاد لدرجة يتعذر معها على الناس التفكير تفكيرا سليما وسط تلك الفوضى ، وهكذا يكف الناس عن فهم بعضهم بعضا .. وسوف تساعدنا تلك السياسة على بث الفرقة بين جميع الأحزاب ، وعلى حل الجماعات القوية ، وعلى تثبيط عزيمة كل عمل فردى يمكن أن يعرقل مشروعاتنا » .

وفى البروتوكول السابع « يجب أن نقوم بالتأثير على الحكومات غير اليهودية عن طريق ما يسمونه الرأى العام الذى هيأناه عن طريق أعظم قوة وهى الصحافة ، التى ـ فيما عدا بعض الحالات الاستثنائية التى لا قيمة لها ـ توجد كلها فى قبضتنا » .

وفى البرتوكول الثامن « لا يتيسر إسناد المناصب الرئيسية فى الحكومة إلى إخواننا اليهود ، فإننا سنسند المناصب الهامة إلى أناس من ذوى السمعة السيئة حتى تنشأ بينهم وبين الشعب هوة سحيقة ، أو إلى أناس يمكن محاكمتهم والزج بهم فى السجون إذا ما حالوا دون تنفيذ أمرنا » .

ولقد بلغ من جرأة اليهود أن استباحوا جلال العلم لإشباع حقدهم ونزواتهم بإفساد العقول والأخلاق ، والعبث بالقيم والفضائل الإنسانية ، فابتدعوا نظريات علمية تسوغ لهم ما يبيتون من مكر وكيد وما ينفثون من آراء هدامة .. فاليهود وراء كل دعوة تستخف بالقيم الأخلاقية ، وترمى إلى هدم القواعد التى يقوم عليها المجتمع الإنسانى ، فاليهودى كارل ماركس وراء الشيوعية التى تهدم قواعد الأخلاق والأديان .. واليهودى دركيم وراء علم الاجتماع الذى يلحق نظام الأسرة بالأوضاع المصطنعة ، ويحاول أن يبطل آثارها فى تطور الفضائل والآداب .. واليهودى سارتر وراء الوجودية التى جنح بها إلى حيوانية تصيب الفرد والجماعة بآفات السقوط والانحلال[١] .

وفى البروتوكول الثانى « .. نحن الذين هيأنا دارون وماركس ونيتشه ، ولم يفتنا تقدير الآثار السيئة التى تركتها هذه النظريات فى أذهان غير اليهود » .

٤ ــ إشاعة الفوضى والفساد فى المجتمع :

رسم البروتوكول الأول لليهود كيف يكيدون لسائر شعوب الأرض ، ويبذرون الفوضى والانحلال فيقول « إن الشباب لدى المسيحيين أضحى متبلد الذهن تحت تأثير الخمر ، كما أن الشباب قد انتابه العته لانغماسه فى الفسق المبكر الذى دفعه إليه أعواننا من المدرسين والخدم والمربيات اللاتى يعملن فى بيوت الأثرياء والموظفين ، والنساء اللواتى يعملن فى أماكن اللهو ، ونساء المجتمع المزعومات اللواتى يقلدنهن فى الفسق والترف » .

---

(١) العقاد : الصهيونية العالمية .

وفى البروتوكول التاسع « لقد أتلفنا الجيل الحاضر من غير اليهود ، وأفسدنا خلقه بتلقينه المبادئ والنظريات التى نعلم أنها مبادئ ونظريات فاسدة ، وعملنا على ترسيخها فى ذهنه ، ودون أن نعمل على تعديل القوانين القائمة فعلا أمكننا التلاعب بها وتفسيرها التفسير الذى لم يخطر على بال واضعيها للحصول على نتيجة فعالة » .

٥ ــ افتعال الأزمات الاقتصادية :

يفضل البروتوكول الثالث السلاح الاقتصادى الذى يستعين به اليهود على تقويض الحكومات « وسنعمد إلى خلق أزمة اقتصادية عالمية بكافة الطرق الملتوية الممكنة بواسطة الذهب الذى يجرى بين أيدينا » .

وفى البروتوكول الرابع « يجب أن نقيم التجارة على أسس المضاربة ، ويكون نتيجة ذلك منع غير اليهود من الاحتفاظ بالثروات التى انتجتها الأرض . وعن طريق المضاربة تدخل تلك الثروات خزائننا » .

ويوضح البروتوكول السادس كيف يعمل اليهود على الإضرار بالإنتاج « وسنعمل على تقويض الإنتاج من أساسه عن طريق نشر الفوضى بين العمال وتحريضهم على شرب الخمر ، كما أنه لا بد من استخدام جميع الوسائل الممكنة لطرد الأذكياء من غير اليهود من وجه البسيطة » .

٦ ــ القضاء على الأديان :

فى البروتوكول الرابع عشر « عندما نصبح أسياد الأرض لا نسمح بقيام دين غير ديننا .. من أجل ذلك يجب علينا إزالة العقائد . وإذا كانت النتيجة التى وصلنا إليها مؤقتا قد أسفرت عن خلق الملحدين ، فإن هدفنا لن يتأثر بذلك .. بل يكون ذلك مثلا للأجيال القادمة التى ستستمع إلى دين موسى ، هذا الدين الذى فرض علينا مبدؤه الثابت النابه وضع جميع الأمم تحت أقدامنا » ..

وفى البروتوكول السابع عشر « لقد عنينا عناية خاصة بالعيب فى رجال الدين غير اليهود ، وانحط من قدرهم فى نظر الشعب ، وأفلحنا كذلك فى الإضرار برسالتهم التى تنحصر فى تعويق أهدافنا والوقوف فى سبيلها ، حتى لقد أخذ نفوذهم ينهار مع الأيام ..

وإن حرية العقيدة معترف بها اليوم فى كل مكان ، ولا يفصلنا عن انهيار المسيحية إلا بضع سنوات ، وسيكون القضاء على الأديان الأخرى أيسر من ذلك ، لكن الوقت لم يحن بعد لمناقشة هذه الرسالة ..

وسنعمل على أن يكون دور رجال الدين وتعاليمهم تافها، ونجعل تأثيرهم فى نفوس الشعب فاترا إلى حد يجعل أثر تعاليمهم عكسيا ».

ومن هنا كان الإسلام بعد المسيحية المجال الرئيسى الذى كرست له الصهيونية نشاطها للنيل منهما بدأب حثيث، وكانت محاربتهما هدفا لليهود منذ أزمان سحيقة، ففى التلمود: « حيث أن المسيح كذاب، وحيث أن محمدا اعترف به، والمعترف بالكذاب كذاب مثله، فيجب أن نقاتل الكذاب الثانى كما قاتلنا الكذاب الأول »[1].

وقد جاهر حاخام إسرائيل فى الحفل الذى أقيم لوضع الحجر الأساسى للمحفل الماسونى فى تل أبيب سنة ١٣٧٧ هـ بقوله « إننا نعمل جميعا لهدف واحد هو العودة لكل الشعوب إلى أول دين محترم أنزله الله على ظهر هذه الأرض، وما عدا ذلك فهى أديان باطلة .. أديان أوجدت الفرقة بين أهل البلد الواحد، وبين أى شعب وشعب، ونتيجة لجهوداتكم سيأتى يوم يتحطم فيه الدين المسيحى والدين الإسلامى، ويتخلص المسلمون والمسيحيون من معتقداتهم المتعفنة، ويصل جميع البشر لنور الحق ».

وينبغى ألا ننسى أن الحاخام يوجه خطابه ويوعز بتحريضه إلى أعضاء المحفل الماسونى الذى تزعم تقاليده أنه بنجوة من التعصب الدينى، وأنه يتحلى بالجهاد تجاه العقائد.

محاربة الصهيونية للإسلام :

حرصت دولة إسرائيل على محاربة الدين الإسلامى فى نطاقها المحلى، تطبيقا للمبادئ التى نص عليها البروتوكولان السابقان، فعمدت إلى إجبار التلاميذ المسلمين على دراسة اللغة العبرية والديانة اليهودية وحفظ التوراة، ومنعتهم من حفظ القرآن الكريم ودراسة التاريخ الإسلامى.

وتطاولت إسرائيل على القرآن الكريم فطبعت فى عامى ١٣٨٠ و ١٣٨٨ هـ نسخا مزورة من المصحف الشريف، أسقطت منها بعض الألفاظ أو بعض الآيات وأحيانا سورة بحذافيرها، أو تناولت بعض الألفاظ بالتحريف — تبتغى بذلك تحريف بعض المعانى القرآنية والتشكيك فى سلامة كتاب الله — بيد أن المسلمين كانوا بالمرصاد حريصين على تعقب كل ما يصدره أعداء الله من طبعات محرفة من المصحف، والحيلولة دون تداولها.

---

(١) د . محمد الزعبى : « دفائن النفسية اليهودية »، ص ١٢٨ ؛ د . عبد الباسط محمد حسن : السابق .

ودأب اليهود منذ ظهور الإسلام على محاولة إفساد شرائعه، وتشويه مصدر أحكامه، فدسوا كثيرا من البدع المضللة . ومنهم من انتحل الإسلام نفاقا ورياء ليفترى على الإسلام مزاعم ما أنزل الله بها من سلطان، ليكيد بها للإسلام ويثير الفتنة بين جمهرة المسلمين . وقد عرفت هذه الزيوف عند المسلمين بالإسرائيليات، وهى كل ما دسه اليهود على تفسير القرآن الكريم أو الحديث النبوى من تأويلات فاسدة وأساطير خرافية فيها إغراب وزيغ عن المعنى المقصود، قصد بها التضليل والإرجاف والبلبلة وإثارة الشبهات بتشويه حقائق الإسلام الناصعة(١) .

ومن دهاة اليهود عبد الله بن سبأ الحميرى « ابن السوداء » الذى ترجع إليه طوائف غلاة الشيعة، وهو القائل بمذهب الرجعة ومذهب الحلول « يزعم أن عبد الرحمن بن ملجم لم يقتل عليا، وإنما المقتول شيطان تصور للناس فى صورة علىّ، أما علىّ رضى الله عنه فقد صعد إلى السماء على أن يرجع إلى الأرض بوصفه « المهدى المنتظر » حيث ينتقم من أعدائه ويقيم العدل والحق ..

الإعلام العربى مهمة إسلامية :

وإذا كان المسلم ينظر إلى العالم العربى بغير العين التى ينظر بها الأوربى، وبغير العين التى ينظر بها المواطن العربى، فإنه ينظر إليه كمهد الإسلام ومشرق نوره، ومعقل الإنسانية، وموضع القيادة العالمية . ومن هنا يصبح الكشف عن استراتيجية للإعلام العربى وسط الظروف التى تخوضها الأمة العربية والإسلامية، مهمة إسلامية من الطراز الأول . وبصرف النظر عن المعنى الأصلى لكلمة « استراتيجية » فى الاصطلاحات العسكرية، لأنها استخدمت فيما بعد للدلالة على المهارة فى التخطيط والإدارة . بل إن العلوم الاجتماعية حين استعارت هذا الاصطلاح أضفت عليه مفهوما شاملا يعنى « الخطة العامة لوسائل تحقيق الأهداف » .

---

(١) من ذلك تفسيرهم الروح فى قوله تعالى ﴿ تنزل الملائكة والروح فيها ﴾ بأنه ملَك هائل لو التقم السموات السبع والأرضين السبع، كانت له لقمة واحدة، وغير ذلك .

الفصل التاسع

الإعلام الإنسانى والإعلام الدولى

نواصل فى هذا الفصل دراسة الإعلام الإسلامى فى مسيرته لمستقبلية، فنلاحظ ابتداء أن الإعلام الإسلامى قد أرسى دعائم تتفوق على ما يعرف اليوم بالإعلام الدولى . ذلك أن الإسلام قد أرسل للناس كافة ، وأكد على الاتصال والتفاهم بين الأمم والشعوب فقال الله جل شأنه فى كتابه الكريم ﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ الحجرات ١٣ .

فالإعلام الإسلامى أشمل من مفهوم الإعلام الدولى بالمصطلح الحديث ، ذلك أن القرآن يؤكد أن الإنسانية كلها أمة واحدة .

ويقول سبحانه وتعالى فى كتابه الكريم ﴿ كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم ﴾ . البقرة ٢١٣

الإعلام الإسلامى والإعلام الدولى :

ومن ذلك يتضح ما نعنيه بشمولية الإعلام الإسلامى فى المصطلح الحديث ، ذلك أن القرآن الكريم الذى تنبع منه نظرية الإعلام الإسلامى يؤكد على وحدة الإنسانية .

يقول الله تعالى ﴿ يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبث منهما رجالا كثيرا ونساء واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيبا ﴾ : النساء ١

فالإعلام الإسلامى يقوم على أساس من صلة الرحم بين بنى الإنسان ، وعلى أساس من التعارف والمودة وإقرار السلام . ولذلك فإن الأصل فى الإعلام الإسلامى هو الود والتراحم لا العداوة القاطعة ، ولذلك يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ۝ فإن زللتم من بعد ما جاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم ﴾ . البقرة ٢٠٨ ــ ٢٠٩

وتأسيسا على هذا الفهم يمكن القول أن الإعلام الإسلامى يتجاوز مصطلح « الإعلام الدولى » إلى أن يكون هو « الإعلام الإنسانى » الأشمل الذى يدعو إلى دين الوحدانية والوحدة الإنسانية فى آن معا ، وإن اختلف الناس أجناسا وقبائل . قال جل شأنه فى القرآن الكريم :

﴿ ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن فى ذلك لآيات للعالمين ﴾ . الروم ٢٢

ونظرية الإعلام الإسلامى الإنسانية ، التى تتجاوز مصطلح الإعلام الدولى المعاصر ، تقوم على أساس المساواة كما جاء فى قول الله تعالى :

﴿ يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ . الحجرات ١٣

فالمساواة هى أساس الإعلام الإنسانى فى الإسلام ، كما أن التعارف يقتضى من وسائل الإعلام إشاعة المودة والتعاون فى كل أنحاء العالم .

والعدالة أساس العلاقات الإنسانية فى الإعلام الإنسانى ، يقول الله تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾ . النساء ١٣٥

ودستور الإعلام الإسلامى فى العلاقة الإنسانية العامة ، قول الله سبحانه وتعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون ﴾ . المائدة ٨

وقوله جل شأنه :

﴿ إن الله يأمر بالعدل والإحسان ﴾ النحل ٩٠

الإعلام الإسلامى والرأى العام العالمى :

وليس من قبيل التعصب أن نذهب إلى أن الإعلام الإسلامى قد وضع الحلول الناجعة لكل المشكلات التى يعانى منها اليوم الإعلام الدولى بالمصطلح الحديث . International Communication والذى يسعى إلى تكوين الرأى العام العالمى ، فى حين أن الإعلام الإسلامى يسعى إلى تكوين الرأى العام الإنسانى فى إطار من الوحدة الإنسانية ، وعلى أسس من العدالة والتعاون والتواد والسلام .

وهنا تتضح الفروق بين ما نعنيه بمصطلح « الإعلام الإنسانى » فى الإسلام ، ومصطلح الإعلام الدولى المعاصر . ذلك أن الأخير يعانى من الاحتكاك والصراع الدولى ، وفى كثير من الأحيان يصبح من أهم عوامل هذا الصراع الذى قد يؤدى إلى الحروب والدمار . لأن الإعلام الدولى المعاصر يسعى إلى السيطرة على العقل البشرى من خلال عملية الاتصال التطويعية Persuasive Communication وغيرهـــا من العمليات الاتصالية . فالإعلام الدولى تعبير عن طبيعة العلاقات الدولية المعاصرة والتى يغلب عليها طابع الحرب النفسية وتحطيم الروح المعنوية لدى الشعوب الأخرى ، على نحو ما نعرف اليوم من دلالات المصطلحات التى شاعت فى عصرنا كالحرب الباردة والحرب الأيدولوجية وحرب الأعصاب والحرب السياسية وحرب القوة الفكرية وما إلى ذلك ، بما يكشف فى مجموعه عن عدم موضوعية ما يطلق عليه تجاوزا بالإعلام الدولى ، واستهدافه التأثير على آراء وسلوك وعواطف جماعات أو دول أجنبية عدائية أو محايدة أو صديقة ، وذلك من أجل متابعة سياسة الدولة ومصالحها .

وعلى هذا الفهم يمكننا أن نتعرف على الحلول الشاملة والجذرية التى يقدمها الإعلام الإنسانى فى الإسلام لمشكلات الإعلام الدولى ، والتى تظهر من خلال المؤتمرات الدولية للصحفيين فى شيكاغو وبلجيكا عام ١٨٩٣ ، والتى لم تحقق شيئا يذكر غير بعض التوصيات التى محتها الدعاية والرقابة خلال الحربين العالميتين (١) . ويمكن أن نجد هذا الصدى كذلك فى اهتمام عصبة الأمم بمشكلات الإعلام الدولى من خلال المؤتمرات التى عقدت تحت رعايتها عام ١٩٢٧ فى جنيف وعام ١٩٣٢ فى كوبنهاجن وعام ١٩٣٣ فى مدريد . وكانت أهداف مؤتمر خبراء الصحافة الذى عقد فى نيف ما يلى:

أولا : البحث فى الوسائل التى تكفل الانتقال السريع للأ ار الصحفية بأقل النفقات ، مع نظرة إلى تقليل مخاطر سوء التفاهم الدولى .

ثانيا : مناقشة جميع المشاكل الفنية التى يرى الخبراء أن سيو-دى إلى تهدئة الرأى العام فى الدول المختلفة . وقد ظهرت رغبة عصبة الأمم فى القضاء على انتشار **المعلومات الكاذبة** عن الدول فى مؤتمر مكاتب الصحافة الحكومية الذى عقد عام ١٩٣٢ . وقد أصر المجتمعون على ألا تكون الإجراءات التى تتخذ لتحقيق هذا الأمر ماسة بالحريات الأساسية للصحافة . وقد نوقشت هذه المشكلة ذاتها فى مؤتمر مكاتب الصحافة الحكومية الذى عقد عام ١٩٣٣ ولكن شيئا محددا لم ينبثق عن هذه المؤتمرات(٢) .

---

(١) William Read, " 50 Years of Resolutions from State for U. N. Talks, " Editor and Publisher, V. 80, N. 16, April 12, 1947, p. 17.

(٢) د . أحمد بدر : الإعلام الدولى ، ص ١٣٦

الإعلام الإسلامى وحقوق الإنسان :

واهتمت هيئة الأمم كذلك بعد الحرب العالمية الثانية بمشكلة حرية الإعلام ، وجاء ذكر **حقوق الإنسان** ومن بينها حرية الإعلام سبع مرات فى ميثاق الأمم المتحدة ، كما نوقشت هذه الكلمة فى الجمعية العامة والمجلس الاقتصادى والاجتماعى مرات عديدة . وتضمن دستور اليونسكو أنه « لما كانت الحروب تبدأ فى عقول الرجال فينبغى أن تبنى دفاعات السلام فى عقول الرجال أيضا » إشارة إلى ضرورة الاهتمام بالإعلام عن حقائق العلم والثقافة والتربية من أجل بناء وتدعيم السلام .

وهنا نجد أن النظرية الإعلامية فى الإسلام تقوم على أساس إنسانى ، وتؤكد حقوق الإنسان قبل كل الأيديولوجيات والمواثيق الدولية تأكيدا ينبع من مخاطبة الفطرة الإنسانية ، وإن دستور الإعلام الإسلامى يتجمع ويتبلور فى قول الله تعالى ﴿ لا إكراه فى الدين ﴾ . وفى قوله الكريم الموجه إلى الرسول الكريم ﷺ ﴿ أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ﴾ ؟ . فالإسلام ليس دين إكراه ، ولكنه يفرض على الإعلام الإسلامى أن يبشر بالهداية والدعوة بالكلمة الطيبة والموعظة الحسنة . ومن الحقائق الثابتة أنه ما أكره على الإسلام فرد واحد من أصحاب العقائد السماوية ، فى حين أن الدعاية الدولية اليوم تحرص على اغتصاب عقول الجماهير باسم الإعلام الدولى تارة ، والاتصال الثقافى تارة أخرى ، ولكنها تتفق فى عمليات غسل المخ الجماعية ، وممارسة أساليب الضغط على الجماهير لاعتناق أفكار معينة ومعتقدات جديدة . وهذه الأساليب يطلق عليها أساليب قتل العقل Menticide كما يقول العالم النفسى الهولندى ميرلو ، لأنها تحيل الإنسان إلى كائن لا حول له ولا قوة ، وتخضعه إخضاعا للتعاليم الجديدة ، إذ تتضافر فنون الضغط الثقافى والعاطفى مرتبطة بالضغط البدنى للسيطرة على الإنسان .

فالإعلام الدولى بالمصطلح الحديث لا يخرج عن مفهوم الدعاية كنشاط أو فن لإغراء الغير بالتصرف بطريقة معينة ، على نحو ما نعرف عن الدعاية التبشيرية فى المسيحية ؛ والدعاية السياسية فى وسائل الإعلام العالمية ، والدعاية الرمزية فى الحرب النفسية .. على نحو ما نعرف عن عمليات الانتقام النازية التى كان يقصد منها إرهاب الفئات الأخرى التى قد تحاول المقاومة . وما تعرفه عن الغارة الإنجليزية التى وجهت إلى برلين أثناء إلقاء الوزير جورنج خطابا له من الإذاعة ، كانت أصوات القنابل الإنجليزية وهى تنفجر فى سماء برلين تكذب ما كان يزعمه جورنج من أن سماء برلين لا يمكن أن تقهر . وكذلك ما قامت به العصابات الصهيونية يومى ٨ و ٩ أبريل

سنة ١٩٤٨ إبان الحملة التى شنها اليهود لتعبيد طريق تل أبيب ـ القدس الذى وقع فيه أعنف قتال شهدته الحرب . فقد احتل أعضاء عصابتى أرجون وشتيرن القرية العربية « دير ياسين » التى تقع بالقرب من القدس ، وذبحوا سكانها جميعا وكان عددهم يبلغ ٢٥٤ رجلا وامرأة وطفلا . ولقد زعم مناحم بيجين فيما بعد أن قوات الأرجون فعلت ذلك لبث الرعب فى قلوب عرب فلسطين .

فالدعاية الدولية مفهوم متدهور لا يرمى إلى الإقناع بقدر ما يرمى إلى الاغتصاب النفسى وانتهاك حقوق الإنسان . ولكن الإعلام الإنسانى فى الإسلام ينطلق أساسا من الحرص على حقوق الإنسان ، ويتوسل بالإقناع والتعبير الموضوعى عن عقلية البشر فى وضوح وصدق وأمانة . وهو لذلك يقوم على التنوير والتثقيف ، وضمان حريات الناس وأمنهم على أرواحهم وأموالهم وأعراضهم . فالإسلام الذى حرر العبيد ، هو نفسه الذى رسم السبيل لتحرير الإنسان وضمان حقوقه . ولذلك فإن نظرية الإعلام فى الإسلام هى النظرية المثلى فى معالجة مشكلات الإنسان المعاصر التى حار فى علاجها المفكرون والفلاسفة فى شتى بقاع العالم .. إذ أن الإعلام الإسلامى هو الذى يسكب فى النفس الطمأنينة والرضا ، ويحفظ على الإنسان كرامته وحريته ، وينشئ لديه رقابة ذاتية تحميه وتحمى مجتمعه وأمته الإنسانية .

ولذلك يمكن القول إن النظريات الإعلامية المعاصرة هى نظريات تهتم بالجانب المادى للإنسان ، والتقدم العلمى للسيطرة على عقول الناس ، وتروج للفلسفات المادية والإلحادية والنزوات الشريرة لكى تطغى على الإنسان ، فأصبح الإنسان أسيرا لوسائل الإعلام المعاصرة التى جعلته يعيش فى فراغ وضياع ، وفقد جوهر إنسانيته فأصبح على الرغم من التكنولوجيا الحديثة مفتقدا لإنسانيته . وهنا لا مفر من الرجوع إلى الإسلام فى الوصول إلى نظرية إعلامية تواجه حقوق الإنسان . يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ﴾ . الصف ٩

وفى سورة الفاتحة الدعاء الذى يتغياه الإعلام الإنسانى فى الإسلام :
﴿ اهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ . الحمد ٦

الإعلام الإنسانى فى الإسلام :

والإعلام الإنسانى فى الإسلام إعلام إيجابى يصل بين الإنسان وخالقه ، ويوضح حقائق الهداية ، ويوجه الإنسان إلى البناء من أجل الدنيا والآخرة .

ويقوم الإعلام الإسلامى على أساس من الخير الشامل الذى لم يستطع مذهب من المذاهب الأخلاقية الإعلامية أن يكفله مبرأ من الإنسانية ، أو الاستجابة لنوازع الأهواء الدعائية سياسيا أو دينيا . ذلك أن الإعلام الإسلامى ينهل من الأخلاق المثلى التى وضعها الإسلام لتحقق الخير المحض للإنسان فى كل زمان ومكان . كما تمتاز نظرية الإعلام الإسلامى بأنها نظرية صالحة لكل الشعوب فى كل زمان ومكان ، لا إرهاق فيها ولا إعنات .

يقول الله تعالى ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ . البقرة ١٨٥
ويقول جل شأنه ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ . البقرة ٢٨٦
ويقول تبارك وتعالى ﴿ وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسا إلا وسعها ﴾ . الأنعام ١٥٢

هذه الصلاحية وهذا اليسر محققان فى الإعلام الإسلامى ، على حين أن مذهب السلطة الإعلامية أو مذهب الحرية أو المسئولية الاجتماعية فى الإعلام هى مذاهب ضيقة المجال فى بنيانها وزمانها . ولكن الإسلام يصلح لكل المجتمعات لأنه دين المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وفى الثواب والعقاب ، وفى الحسنات والسيئات ، الأمر الذى يجعل الإعلام الإسلامى مستهدفا الحض على الأخلاق الكريمة ، والفضائل العليا التى تصلح للأفراد والمجتمعات فى كل مكان وزمان .

هذه الصورة المثلى التى ينشدها علماء الإعلام لا تتحقق إلا فى نظرية الإعلام الإسلامى ، ذلك أن النظريات الإعلامية الوضعية فى عالم اليوم إنما هى خضم عجيب .. الأخلاقيات أصبحت تحكمها المصالح ، والوطنية أناشيد رنانة يطرب لها الناس ، والمصالح المشتركة شباك تطلق من الجانبين يصطاد بها كل جانب ما وسعه أن يصطاد على حساب الطرف الآخر ، والوفاق الدولى شبكة كبيرة تقع تحت طائلتها مصالح الدول والدويلات المسكينة التى يسمح لها بالعيش فى إطار حماية العملاق أو العملاقين أصحاب الشبكة التى تم صنعها بالوفاق ، وكذلك حماية المصالح .

الإعلام الإسلامي والمذاهب الوضعية :

يتأثر تشكيل النظام الإعلامي بالبيئة الفكرية إلى حد كبير ، فالأفكار السائدة فى مجتمع ما تشكل مؤسساته ، كما تشكلها كذلك القوى الاقتصادية والاجتماعية . ولذلك شاع اصطلاح « النظام الإعلامي » وخاصة منذ اتخذه البعض معيارا للتفرقة بين البلاد التى تعتنق أى أيديولوجيات مختلفة ، كالرأسمالية والاشتراكية مثلا .

و « النظام الإعلامي » اصطلاح متشعب العناصر ، يكاد يشمل كافة جوانب الحياة المجتمعية ، بغض النظر عن الأيديولوجية التى يدين بها سواء عن اقتناع بضرورتها أو كانت مفروضة عليه بفعل القهر والإكراه من قوى فى الداخل أو بالضغط من الخارج « نقول هذا لأنه كثيرا ما تكون ظروف المجتمع العامة لا تسمح بالأخذ بمذهبية معينة ، إما لأن الذين يدعون إليها قلة ، وإما لأنها مستوردة من مجتمع خارجى ، ولكن تنجح قوى معينة ، لسبب أو لآخر ، فى القفز إلى ذرى السلطة فتكره الناس على اتباع هذه المذهبية فيرضخون ويستسلمون »(١) .

من أجل ذلك نرى أن العصر الحديث أحوج ما يكون إلى دراسة النظم الإسلامية بعامة والإعلامية بخاصة ، لعدد من الأسباب منها :

أولا : الهجوم السياسى والثقافى على العالم الإسلامي بسبب الدعايات الرأسمالية (الليبرالية) والاشتراكية . فإن كلا من المعسكرين — الرأسمالى والاشتراكى — يحاول جاهدا أن يضم البلاد الإسلامية إليه . وكانت أخطر هذه المحاولات هى التى تحاول التقريب بينها وبين الإسلام ، وادعاء كل الفريقين — الرأسمالى الليبرالى والاشتراكى — أن الإسلام ينتمى إليه . فلما رفض المسلمون ذلك احتاجوا إلى إظهار النظام الإسلامي فى الإعلام والسياسة والاجتماع والاقتصاد وبيان الفرق بينه وبين هذين النظامين(٢) .

ثانيا : إن ميل بعض الدول الإسلامية المعاصرة إلى النظام الرأسمالى الليبرالى وميل بعضها الآخر إلى النظام الاشتراكى أدى إلى الخلاف والشقاق ، بل والصراع المسلح أحيانا مما كان له أسوأ الأثر فى التضامن الإسلامي وأدى إلى عجز المسلمين عن مواجهة المشاكل التى تبدد مصالحهم المشتركة . وقد فطن المسلمون أخيرا إلى خطورة هذا الانقسام وحاجتهم إلى كلمة سواء تجمعهم جميعا(٣) .

---

(١) د . راشد البراوى : القرآن والنظم الاجتماعية المعاصرة ، ص ٩

(٢) د . مصطفى كمال وصفى : خصائص النظام الإسلامي ، ص ٤

(٣) المرجع نفسه ، ص ٥

ثالثا : فشل الشعارات القومية والعنصرية فى تجميع المسلمين العرب وعدم كفايتها فى إقامة صرح الدفاع عن مصالحهم .. ففى مستهل القرن الحالى ــ عندما أزمعت الدول الأجنبية تصفية الدول العثمانية ــ جنح المسلمون إلى إحياء أصولهم القديمة ــ كالفرعونية والحيثية والفينيقية ونحو ذلك ــ فقضوا بذلك على وحدتهم الإسلامية . ثم عادوا وتمسكوا بالقومية العربية ولكنها لم تثمر كثيرا ، لأن العروبة ليس لها نظام أو نظرية خاصة بها ، بخلاف الإسلام الذى ينطوى على جميع القيم الحضارية بدون عنصرية .

ولذلك فقد تطلبت هذه الظروف مجتمعة ــ وغيرها ــ الاهتمام بإبراز النظام الإسلامى وتحديده لصد الغزو السياسى والفكرى ــ من ناحية ــ وإقامة أساس للتكامل السياسى والاقتصادى بين المسلمين العرب من ناحية أخرى .

ولم تتقبل الأفكار الوضعية فى الدول الإسلامية هذا المنافس الجديد ــ وهو النظام الإسلامى ــ بسهولة . بل واجهته بالعنف والشدة أحيانا ، أو بالمُمالأة أحيانا أخرى .

ويمكن القول بأن هذه المواجهة اتخذت ثلاثة أدوار متميزة(١) :

الدور الأول : الإنكار التام لوجود نظم إسلامية سياسية أو اقتصادية أو غيرها ، والادعاء بأن الدين عقيدة وعبادة فقط ولا شأن له بالحياة العامة . وكان ذلك فى بدء ظهور الوعى الإسلامى بالنظم الإسلامية والمطالبة بأن تطبق هذه النظم على البلاد فى الثلاثينات من هذا القرن . وكان المنكرون لوجود النظم الإسلامية من أصحاب الثقافة الأوربية التى تشبعت بالفصل بين الدين والدنيا بعد انتصار الحكومات على الكنيسة فى صراعها الطويل على السلطة .

فلما تبين ــ من مراجعة الكتب الفقهية الإسلامية ــ أن الحقيقة هى أن الإسلام هو نظام اجتماعى ومنهج للحياة ، وأنه ليس قاصرا على العقيدة والعبادة فقط ، لم يجد المنكرون بدا من التسليم بهذه الحقيقة الواقعة والاعتراف بوجود النظم الإسلامية .

الدور الثانى : الادعاء بأن النظم الإسلامية هي نظم قديمة رجعية . وكان ذلك عقب التسليم بوجود هذه النظم ، وقالوا إنه لا يعقل أن نظاما ظهر منذ أربعة عشر قرنا يصلح للتطبيق فى هذا الزمان .

ولكن تبين من الحوار الذى دار حول هذه المسألة الهامة أن النظام الإسلامى ليس متخلفا ولا متأخرا وأنه صالح لهذا الزمان ، بل هو أفضل من سائر النظم المطبقة فى هذا العصر .

---

(١) المرجع نفسه ، ص ٦

الدور الثالث : محاولات التقريب بين الإسلام والنظم المعاصرة . فإنه لما تبين فضل النظام الإسلامى ومتانته ، اتجهت الأفكار الوضعية إلى تملق الإسلام والالتصاق به . فأشاد الرأسماليون الليبراليون بما يتميز به الإسلام من الحرية فى القول بالتشابه بين النظامين . وأشاد الاشتراكيون بما يتميز به الإسلام من النظام والتضامن للقول بتشابههما واستند كل فريق بحجج من آيات القرآن والأحاديث وأقوال الفقهاء لتدعيم ما يذهب كل منهما إليه .

وإزاء هذا اللبس اتجهت جهود علماء الإسلام ومفكريه إلى الفصل بين الإسلام والنظم الحديثة والتمييز بينهما . وصدر فى مصر الدستور عام ١٩٧١ ناصا على أن مبادئ الشريعة مصدر أساسى للتشريع وأعدت مشروعات قوانين متعددة على الأساس الإسلامى . وأسست بنوك إسلامية ونشطت فكرة التضامن الإسلامى . ثم فكرة الإعلام الإسلامى من بعد .

الفصل العاشر

الأسس الإعلامية للدعوة الإسلامية

نتناول فى هذا الفصل الأسس الإعلامية للدعوة الإسلامية ، على النحو الذى تيسر لنا استقراؤه من دراسة الإعلام فى صدر الإسلام ، وما أسفرت عنه الدراسة من نتائج تفيد الدراسات الإعلامية المعاصرة فتؤكد على إيجابياتها ، وتعالج سلبياتها بهدف الوصول إلى النظرية المثلى المستقرأة من الإعلام الإسلامى .. استنادا إلى جوهر الدعوة الإسلامية ذاتها التى خاطبت الإنسانية كلها برسالة واحدة ، على نقيض ما اتسمت به الدعوات السابقة للإسلام من خصوصية ، حيث كان الرسول قبل الإسلام يأتى لقومه فقط ، فكان ما يناسب بيئة لا يناسبه أخرى ، ومن هنا تعددت الرسالات قبل الإسلام وفقا لتعدد البيئات .

وبنظرة موضوعية فى تاريخ الرسالات نرى أن الدعوة الإسلامية هى الرسالة العامة إلى كل الخلق ، وأن الرسالات السابقة تعتبر تمهيدا للإسلام . وقد صور النبى ﷺ هذه الحقيقة بقوله (مثلى ومثل الأنبياء من قبلى كمثل رجل بنى بنيانا فأحسنه وأجمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه ، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون ويقولون : هلا وضعت هذه اللبنة ! فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين) . « صحيح مسلم جـ٧ ص ٦٤ ، ٦٥ » .

ومع هذا الترابط بين دعوات الله فى الناس ، فإن الدعوة الإسلامية تتميز عن سائر الدعوات الإلـٰهية بميزات نرى أنها تمثل سمات الإعلام الإسلامى ، ومنها :

١ ـــ أن الإعلام الإسلامى وسيلة لدعوة اكتملت فيها نعمة الله باكتمال دعوته فى العالمين ، ومناسبتها للرقى الإنسانى فى أرقى مظاهره فى كل زمان ومكان .

٢ ـــ أن الإعلام الإسلامى يحقق التعادلية بين المادة والروح فى الحياة الفردية والجماعية ، وبذلك يخالف الماديين الذين يتجهون إلى نيل أكبر قسط من المادة مع إغفال كثير من المعانى الإنسانية ، ويخالف الروحانيين الذين ينادون بقتل النفس بالزهد والحرمان .

وعلى ذلك فإن التحليل الوظيفى للإعلام الإسلامى يذهب إلى أنه يرضى ضرورات الجسد والروح معا : النفس والنسل والعقل والدين والمال ، وهى الضرورات التى

تتعلق بها مصالح الدنيا والآخرة ، ويتحقق بها السلام والسعادة . يقول الشاطبى « ومجموع الضرورات خمس : وهى حفظ الدين ، والنفس ، والنسل ، والمال ، والعقل ، وهذه الضرورات إن فقدت لم تجر مصالح الدنيا على استقامة بل على فساد والرجوع بالخسران المبين » .

٣ — إن الإعلام الإسلامى — كما تقدم — ينبع من شمول التشريع الإسلامى لأنواع الناس ولكافة مراحل تطور الإنسان ، وبذلك تشمل كيان الفرد كله والمجتمع بأسره ، ولا تفرقة بين ذكر وأنثى ، ولا ميزة للون أو لجنس ، أو لعارض من عوارض الدنيا . وبذلك يسعى الإعلام الإسلامى لتحقيق الإخاء والعدل والحرية والمساواة .

٤ — يراعى الإعلام الإسلامى طبيعة الإنسان ويتفق مع فطرته فى كل أمور دينه ودنياه ، قال تعالى ﴿ ومن يطع الله ورسوله فقد فاز فوزا عظيما ﴾ الأحزاب ٧١ .

الإعلام الإسلامى والفطرة الإنسانية :

تقوم الأسس الاتصالية للإعلام الإسلامى على قوانين الفطرة التى فطر الله الناس عليها ، وهى القوانين التى تدفع بمفكرى العصر إلى المناداة بدراسة الإنسان . فالإعلام الإسلامى إذن يقوم على « إنسانية الإنسان » . يقول سبحانه وتعالى فى سورة العلق :

﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ٥ خلق الإنسان من علق ٥ اقرأ وربك الأكرم ٥ الذى علم بالقلم ٥ علم الإنسان ما لم يعلم ٥ كلا إن الإنسان ليطغى ٥ أن رآه استغنى ٥ إن إلى ربك الرجعى ﴾ .

فعبادة الإنسان لله سبحانه وتعالى إرادية وواعية فى جانب منها على الأقل ، بخلاف عبادة غيره من الكائنات . فإذا كانت الذرة تعبد الله بالطاعة لا إرادة فيها ولا وعى . وإذا كان الكون والأرض وما عليها من نبات وحيوان تعبد الله على نفس الطريقة ، فإن الإنسان إلى جانب هذا اللون من الطاعة قد ألهم طريقين لا طريقا واحدا : طريق الطاعة وطريق العصيان ، وأعطى القدرة على التمييز بين الطريقين واختيار أحدهما والمضى فيه ﴿ وهديناه النجدين ﴾ ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ البلد ١٠

﴿ ونفس وما سواها ٥ فألهمها فجورها وتقواها ﴾ . الإنسان ٣ ﴿ قد أفلح من زكاها ، وقد خاب من دساها ﴾ الشمس ٧ — ١٠ ومن ثم فالإنسان هو المخلوق الوحيد — من مخلوقات الأرض — الذى يعبد الله عن وعى وفهم وإدراك . وهو كذلك المخلوق الوحيد فى الأرض الذى يعصى الله حين ينحرف عن طريق الهداية ويختار طريق العصيان . ولكنه فى الحالين « يدرك » وجود الله سبحانه وتعالى .

ـريتهم وأشهدهم على

ـه والإيمان بوجوده ،

ـى الفطرة ، ويخاطب
، وقد حفل القرآن
ـبح العقل « درسا »
ـه ، وفيما يصدر منه .

ويعيب القرآن الكريم على من يهمل عقله ، يقول تعالى : ﴿ أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون ﴾ البقرة ٤٤

فتراه سبحانه ينكر تعطيل العقل عند من يفعل ذلك ، ويوضح الزمخشرى فى تفسيره هذا وهو يقول أفلا تفطنون لقبح ما أقدمتم عليه حتى يصدكم استقباحه عن ارتكابه ، وكأنكم فى ذلك مسلوبو العقول فإنها فى الواقع تأباه وتدفعه . يقول تعالى :

﴿ إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون ﴾ الأنفال ٢٢

ومن أجل ذلك يشترط الإعلام الإسلامى الالتزام بمعايير الصدق والأمانة ، وتزويد الناس بالمعلومات الصحيحة والحقائق الواضحة التى يمكن التثبت من صحتها أو دقتها بالنسبة للمصدر الذى تنبع منه أو تنتسب إليه . وقد بين الله تعالى ذلك فقال جل شأنه :

﴿ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب ﴾ آل عمران ١٩٠ .

يقول ابن كثير بعد أن عدد بعض ما فى هذه الآيات من عجب إنها لأصحاب العقول التامة التى تدرك الأشياء بحقائقها على طبيعتها ، ذلك لأن اللب هو كمال حال العقل .

وتأسيسا على هذا الفهم يمكن القول إن الإعلام الإسلامى يخاطب الفطرة الإنسانية ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى قد خلق الإنسان فى أحسن تقويم ، وكرمه على كثير من خلقه ، ورزقه من الطيبات وابتلاه بالخير والشر فتنة . ونفخ فيه من روحه ، ووهبه العقل ، ومنّ عليه بالرسل والأنبياء ينيرون له طريق الحياة ويهدونه سواء السبيل ، ثم جعله مسئولا ، وإن أحسن فلنفسه وإن أساء فعليها .

والصفات الآتية هى الصفات التى فطر الله الناس عليها كما وردت فى القرآن الكريم :

ــ كرمه الله ورزقه وفضله على كثير من خلقه :

﴿ ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا ﴾ الإسراء ٧٠

ــ خلقه الله تعالى فى أحسن تقويم .. خلْقا وخلُقا وعقلا :

﴿ يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم ، الذى خلقك فسواك فعدلك ٥ فى أى صورة ما شاء ركبك ٥ كلا بل تكذبون بالدين ٥ وإنا عليكم لحافظين ٥ كراما كاتبين ٥ يعلمون ما تفعلون ﴾ ﴿ لقد خلقنا الإنسان فى أحسن تقويم ٥ ثم رددناه أسفل سافلين ٥ إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون ﴾ التين ٤ ــ ٦

— نفخ الله فيه من روحه :

﴿ ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم ه الذى أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ه ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ه ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون ﴾ الحج ٦ — ٩

— استخلفه الله تعالى فى أرضه :

﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون ﴾ البقرة ٣٠

— مكنه الله تعالى فى الأرض :

﴿ ولقد مكناكم فى الأرض وجعلنا لكم فيها معايش قليلا ما تشكرون ﴾ الأعراف ١٠

— الصالحون منهم يرثون الأرض :

﴿ ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادى الصالحون ﴾ الأنبياء ١٠٥

— مسئول :

﴿ ومن يكسب إثما فإنما يكسبه على نفسه وكان الله عليما حكيما ﴾ النساء ١١١

﴿ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر ﴾ الكهف ٢٩

﴿ ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ الإسراء ٣٦ .

﴿ وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ه وأن سعيه سوف يرى ه ثم يجزاه الجزاء الأوفى ﴾ النجم ٣٩ — ٤١

﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾ المدثر ٣٨

— فقير إلى الله :

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنى الحميد ﴾ فاطر ١٥

— خلق فى كبد :

﴿ لا أقسم بهذا البلد ه وأنت حل بهذا البلد ه ووالد وما ولد ه لقد خلقنا الإنسان فى كبد ﴾ البلد ١ — ٤

— مبتلى من الله تعالى :

يبتليه الله بالخير والشر فتنة ، ليعجم عوده ويبين الغث من السمين ، والمؤمن الصابر من الكافر الجزوع . ﴿ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج فجعلناه سميعا بصيرا ٥ إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا ﴾ الإنسان ٢ — ٣

﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات وبشر الصابرين ﴾ البقرة ١٥٥

﴿ ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم ﴾ محمد ٣١ .

ومن هذه الآيات القرآنية الكريمة يتضح لنا أن للإعلام الإسلامى فى مخاطبته الإنسان خصائصه المميزة ، التى تفرده من سائر النظريات الإعلامية ، وتجعل له الريادة والكشف والسبق لكل ما يستحدث من نظريات ، تتطور فى إطاره وتنمو وتتقدم .

وهذه الخصائص التى تخاطب الفطرة الإنسانية ، هى التى جعلت الدراسات الإعلامية المعاصرة تذهب إلى أن الناس يقبلون على الإعلام إذا كانوا يجدون فيه فائدة محققة لهم ، أو إشباعا لحاجاتهم . وقد تفيد المعلومات فائدة عاجلة كما قد تفيد فائدة آجلة ، على النحو الذى يجعل الناس فى وسائل الاتصال بالجماهير يجدون معلومات ترشدهم وتفيدهم . وفضلا عن ذلك تساعد المعلومات على تأكيد الثقة بالنفس وتحقيق الانسجام الداخلى والائتلاف الاجتماعى ، وهو الأمر الذى تحققه مبادئ الإعلام الإسلامى التى تنبع من الإيمان بالله ، من حيث تنظيم علاقة الفرد بنفسه ، وعلاقة الفرد بالفرد الآخر ، ثم علاقة الفرد بأمته ومجتمعه ، وبالكون الذى يعيش فيه . كما أن الإعلام الإسلامى يخاطب المجتمع العالمى الإنسانى بالوشائج القوية من الإخاء والمحبة والتسامح والتعاون والتكامل .

وإذا كانت الدراسات الإعلامية الحديثة تذهب إلى أن الرسالة الإعلامية التى يحتاجها المستقبل ويشعر بأنها تلبى حاجاته ، تظفر منه بالتقبل والاهتمام والسعى للحصول عليها .. فإن الإعلام الإسلامى يدور فى إطار يشمل الإنسانية فى كافة أقطارها وأزمانها ، ويمنح قلب المستقبل راحة وهدوءا ، ويتيح لعقله طمأنينة واستقرارا ، حيث يجد أنه — إذ يتصل بالله سبحانه وتعالى — يتصل بحقيقة المؤثرات الفاعلة فى هذا الوجود ، كما هى فى عالم الحقيقة والواقع ، كما يصفى ضمير المستقبل من الغرور ، ويخلص نفسه من الكبرياء ، ويمحو ما أصاب عقله من جهالة ، ومن ثم يدور الإعلام الإسلامى فى صور متعددة ، تتناول كل صورة منها بعدا من أبعاد الإنسان المستقبل بالتهذيب والتوجيه حتى تتناسق الجماعة كلها ، وتتلاقى فى مجتمع

حىّ الضمير ، متماسك البنيان ، واعى الفكر ، مرهف المشاعر ، واقعى النظرة ، خيّر النزعة ، مستقيم السلوك ، يشيع بين أفراده إحساسا بالمسئولية ، ويسودهم شعور بالتساوى يلزمهم بالحرية .

وإذا كان الإعلام يقبل عليه الناس فى عصرنا لأنه يعطيهم من الأفكار والمعلومات ما يستخدمونه فى رفع مستوى معارفهم ، فإن الإعلام الإسلامى قد أكد على ذلك ، وأدى إلى دعم إتجاهاتهم النفسية وتعزيز قيمهم ومعتقداتهم . قال رسول الله ﷺ (بنى الإسلام على خمس : شهادة أن لا إلـه إلا الله وأن محمدا رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، والحج ، وصوم رمضان) . رواه البخارى ومسلم .

فمن هذا الحديث الشريف يتضح أن الإسلام الذى ينبع منه الإعلام الإسلامى يعنى التصديق بالقلب والتصديق باللسان ، مع الوفاء بالفعل والاستسلام لله فى جميع ما قضى وقدر . والشهادة قول صادر عن علم حصل لمشاهدة بصر أو بصيرة ، وتقال لمطلق الإقرار والاعتراف بالإلـه المعبود . والصلاة فى الأصل الدعاء ، وتقال للعبادة المعروفة لما فيها من الدعاء والتوجه إلى الله . وإقامتها تقويمها بالخشوع فيها ، والتفكر فى معانيها ، وتذكر من أقيمت له ، فهى من أقام العود إذا قومه . والصلاة إذن توثق صلة العبد بربه ، فيفيض عليه من خيره ، وتطهر نفسه من التكالب على أعراض الدنيا ، وتعوده الإخلاص والابتعاد عن النفاق . أما الزكاة فقد أطلقت فى عرف الشارع على ما يخرجه الإنسان من ماله حقا لله تعالى ليصرف لذوى الحاجات وفى المصالح العامة . والصوم يذكى فى الإنسان روح التفكير ، إذ البطنة تذهب بالفطنة ، ويذكره فى كل لحظة بالله رب نعمته ، فترطب بذكره لسانه . والحج فى اللغة القصد ، والمراد به فى لسان الشارع قصد البيت الحرام — الكعبة — وفيه يتجلى الإعلام الإسلامى فى أوضح صوره ، والوقوف على حال المسلمين فى الأقطار المختلفة . والإعلام أول خطوة إلى العمل بدعائم الإسلام وقيمه الأصيلة .

الأسس الاتصالية فى الإعلام الإسلامى :

وانطلاقا من هذا الفهم يتضح أن الإعلام الإسلامى يقوم على أسس اتصالية رائدة بالقياس إلى النظريات الإعلامية المعاصرة ، ذلك أنه خاطب الفطرة الإنسانية على نحو غير مسبوق ، وهو الأمر الذى تسعى إليه جاهدة نظريات الإعلام فى عصرنا هذا بهدف دراسة وتحليل محددات السلوك Determinants Behavior . وبعض هذه المحددات هى : المحددات الوراثية الخاصة بالجينات genetic المحددات البيولوجية والفسيولوجية ، المحددات اللاواعية أو اللاشعورية ... إلخ .

ومن هذه الدراسات المعاصرة يحاول علماء الاتصال (من أمثال ألبورت ١٩٤٧ [١] وبارتليت ١٩٥٨ [٢] وبرونر ١٩٥٨ [٣] — وهوفلاند ١٩٥٣ [٤] وشرام ١٩٦١ [٥]، التعرف على التعرض للاتصال، وتفسير المضمون، وتذكر الاتصال، والنتائج السلوكية والوقفية المترتبة على الاتصال، كل ذلك يحكمه — بصفة خاصة — الاستعداد المسبق لدى الشخص المستقبل.

وتركز هذه الدراسات على التغيير السلوكى من خلال دراسة مكونات عملية الاتصال والمتغيرات التى ترتبط بكل منها، وتتضمن عملية الاتصال كما سبق وأوضحنا فى الفصل الأول:

أ — المصدر.
ب — الرسالة.
جـ — المستقبل.
د — قناة الاتصال.

ونحاول فى هذه الصفحات دراسة العناصر المتعلقة بالمصدر، مرجئين دراسة قناة الاتصال لكتابنا التالى على اعتبار أنها تمثل القاسم المشترك بين العصور المختلفة فى تطور الإعلام الإسلامى، وعلى اعتبار أننا درسنا عنصر الرسالة فى الفصول المتقدمة.

---

(١) Allport, 6, W., " The Historical Background of Modern Social Psychology " in Lindsey, G. (Ed.), Handbook of Social Psychology vol. 1, Reading Mass. : Addison Wesley, 1959.

and Postman, L., The Psychology of Rumor N. Y. : Halt, 1947.

(٢) Bartlett, F. C., " Social Factors in Recall "in Maccoby, E. E. Neucomls, T. M., and Hartly, E. L. (Eds), Reading in Social Psychology, N. Y.Holt, Rinehart and Winston, lnc, 1958, pp. 47 - 54.

(٣) Bruner, J. S., " Social Psychology and Perception " in Maccoby, E. E., et al (Eds.) Readings in Social Psycholog, N. Y. : Aolt, Rinehart and Winston, 1950, pp. 85 - 94.

(٤) Hovland, C. I., Janis, I. L., and Kalley, H. A., Communication and Persuasion, New Haven, Cann, : Yale University press, 1953

(٥) Schramm, W. (Ed.) The process and Effects of Mass Communication, Urbana, 111. : University of Illinois press, 1961.

مصدر الاتصال :

إن مصدر الاتصال — كما تقول الدراسات الحديثة — هو منشئ الرسالة . وفى مجال الإعلام الإسلامى فإن المصدر هو القرآن الكريم والسنة المطهرة ، ويكون الدعاة الإعلاميون هم الذين يمثلون عنصر « المرسل » الذى يؤدى رسالة المصدر . ولذلك فإن الدراسات الحديثة تركز فى هذا العنصر على قابلية المرسل أو المصدر للتصديق ، فقد وجد هوفلاند ووايس (١٩٥١)(١) وكليمان وهوفلاند (١٩٥٣)(٢) فى تجاربهم على المصادر عالية وقليلة القابلية للتصديق ، أن المعرضين للاتصال يكتسبون نفس الكمية من المعلومات بغض النظر عن درجة قابلية المصدر للتصديق . وإذا كان الاتصال منسوبا بالمصدر قليل القابلية للتصديق ، فإن المعرضين للاتصال سيحكمون على المعلومات بصورة أقل عدلا وسيجدون أن الاستنتاجات تبريرها أساسه ضعيف . وتوضح هذه الدراسات أن أمانة المصدر وجدارته بالثقة جانب هام من جوانب قابلية المصدر للتصديق .

ولقد أكد الإعلام الإسلامى على ضرورة توافر الصفات المثلى فى الدعاة ورجال الإعلام لكى يكونوا موضع تصديق ، ذلك أن هؤلاء هم ورثة النبى ﷺ فى مهمته الإعلامية ، والقائمون مقامه فى إبلاغ دين الله . وكان النبى ﷺ يؤكد للمسلمين على ذلك ، فقال لأصحابه (ألا ليبلغ الشاهد منكم الغائب) . صحيح البخارى جـ١ ص ٣٧ كتاب العلم — باب ليبلغ الشاهد منكم الغائب . وقال ﷺ : (تسمعون ويسمع منكم ويسمع ممن يسمع منكم) . الفتح الربانى جـ١ ص ٢٦٤ كتاب العلم — باب فضل تبليغ الحديث .

وانطلاقا من هذا الفهم يمكن أن نتناول هنا فى ضوء دراسة هذا العنصر الإعلامى ، المبادئ التى قام عليها الإعلام الإسلامى وفى مقدمتها :

الصدق : ذلك أن الإسلام جعل الصدق فضيلة للإنسان ، بوجه عام ، وهى بالقياس إلى الإعلام الإسلامى تكون أهم مقومات تصديق المصدر أو المرسل الذى يبلغ

---

(١) Hovland, C. I. and Weiss, W., " True influence of Soakc & Credibility on Communication Effectiveness ", Pubic Opinion Quarterly Vol. 15, (951, pp. 635 - 650).

(٢) Kelman, H. C. and Hovland, C. I. " Reinstatement of the Communication Delayed Measurment of Opinion Change " Journal of Abicor Wal and Social Psychology, Vol., 1053, pp. 327 - 335.

دعوة الله كما جاءت ، ويبين غوامضها ، وينقل كل بيان قيل فى شأنها . ولذلك كانت أهم صفة اشتهر بها الرسول عليه الصلاة والسلام هى صفة « الصادق الأمين » .

ولما سأل هرقل أبا سفيان — ولم يكن قد أسلم بعد — عن محمد قائلا : وهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ أجابه : لا . فقال هرقل : أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله(١) .

وهرقل هنا يمثل دور المستقبل الذى يشترط الصدق فى المصدر ، لأن من يلتزم الصدق مع الناس يكون صادقا مع ربه سبحانه وتعالى . وكان النبى ﷺ يؤكد على هذا المعنى الاتصالى فى بدء الدعوة والجهر بها حينما قال للناس : (لو أخبرتكم أن خيلا تخرج من سفح هذا الجبل . أكنتم مصدقى ؟) قالوا جميعا « ما جربنا عليك كذبا »(٢) .

وفى القرآن الكريم يؤكد الله تعالى فى أكثر من آية على التزام الصدق فى كل شىء ، فقال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين ﴾ التوبة ١١٩ .

وقال تعالى : ﴿ إنه كان صادق الوعد وكان رسولا نبيا ﴾ مريم ٥٤ .

وقال سبحانه : ﴿ وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾ الحشر ٨ .

وقال جل شأنه : ﴿ والذى جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ﴾ الزمر ٣٣ .

ويقول النبى عليه الصلاة وأزكى السلام : (عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر والبر يهدى إلى الجنة)(٣) .

والمرسل فى الإعلام الإسلامى يظهر صدقه فى وجهه وصوته وما يخط قلمه ، فقد كان ﷺ يتحدث إلى من لا يعرفونه فيقولون : والله ما هو بوجه كذاب ولا صوت كذاب(٤) .

وليس من شك فى أن ظهور أثر الصدق فى القائم بالإعلام الإسلامى يؤثر فى الجمهور المتلقى ويحمله ذلك على قبول رسالته الإعلامية واحترامها .

---

(١) صحيح البخارى ، جـ ١ ، ص ٥ — ٦ ، باب بدء الوحى .

(٢) صحيح البخارى ، جـ ٦ ، كتاب التفسير .

(٣) موطأ مالك ، جـ ٤ ، ص ٢٢٧ ، ما جاء فى الصدق .

(٣) تذكرة الدعاة ، للبهى الخولى .

الصبر والثبات :

فالمثابرة على الدعوة من أهم صفات الإعلامى المسلم ، وهذه المثابرة تقتضى الصبر الذى يعد نصف الإيمان ، وهو لغة : الحبس والكف ، وشرعا على ثلاثة أنواع : صبر على طاعة الله ، وصبر عن معصية الله ، وصبر على المصائب والبلاء . ذلك أن الإعلاميين والدعاة مبتلون بأذى الكفار والمارقين بالقول والكيد . قال تعالى :

﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ الأنعام ٣٤ .

وقال جل شأنه : ﴿ ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون ० فسبح بحمد ربك وكن من الساجدين ० واعبد ربك حتى يأتيك اليقين ﴾ الحجر ٩٧ — ٩٩ .

وقال سبحانه وتعالى : ﴿ فاصبر إن وعد الله حق ولا يستخفنك الذين لا يوقنون ﴾ الروم ٦٠ .

فالصبر والثبات هما عدة الإعلاميين والدعاة فى الإسلام ، وقد أوذى أصحاب الرسول عليه السلام فى قلة أشد الأذى ، وكان ﷺ يأمرهم بالصبر (صبراً آل ياسر إن موعدكم الجنة) . فالإعلاميون والدعاة المسلمون يقابلون الأذى بالصبر الجميل ، ولذلك يؤكد الدارسون المسلمون فى علم الدعوة على ضرورة توافر عدد من الشروط فى المرسل فى نظرية الإعلام الإسلامى :

١ — أن يدعو الإعلامى المسلم إلى الله على بصيرة بالوسائل والكيفيات المشروعة التى بينها القرآن الكريم وطبقها النبى عليه السلام . فإذا أدت هذه الوسائل إلى أذى يصيب الداعى فعليه أن يتقبله بالصبر لا بالجزع ، وبالثبات لا بالفرار .

٢ — إذا كان الإعلامى المسلم قادرا على توقى الأذى ، فعليه أن يتوقاه حسب الظروف والأحوال ، لأن فيه فتنة مهولة العاقبة . جاء فى الحديث الشريف (لا ينبغى للمؤمن أن يذل نفسه) .

قالوا « وكيف يذل نفسه يا رسول الله ؟ » .

قال (يتحمل من البلاء ما لا يطيق)(١) .

٣ — من الأدعية المأثورة أن يسأل المسلم ربه العفو والعافية . وفى وصيته عليه السلام لأسامة بن زيد وقد جعله أميرا على الجيش لغزو الروم قبل وفاته عليه السلام بأيام ، قال له (ولا تتمنوا لقاء العدو فإنكم لا تدرون لعلكم تبتلون بهم ، ولكن قولوا

---

(١) إمتاع الأسماع ، ص ٢٨

اللهم اكفناهم واكفف بأسهم)[١] ، وقال الله سبحانه وتعالى ﴿ وكفى الله المؤمنين القتال ﴾ . ولقد هاجر المسلمون من مكة إلى الحبشة فرارا بدينهم وتخلصا من أذى قريش ، فدل ذلك على جواز دفع البلاء والأذى وعدم الاستسلام له ، لأن نفس المسلم ليست ملكه وإنما هى ملك لله ، فلا يجوز إتلافها بلا فائدة تعود إلى الإسلام . والإعلامى أو الداعى المسلم لا يستدعى الأذى لنفسه ، بل يعمل على عدم وقوعه . وإذا وقع عمل على دفعه بكل وسيلة مشروعة فى ضوء القرآن والسنة .

٤ — إذا وقع الضرر والأذى على الإعلاميين والدعاة المسلمين رغم التزامهم بالسير المشروعة فى الدعوة والإعلام الإسلامى ، فعليهم أن يستعينوا بالله ويصبروا الصبر الجميل ، وليعلموا أن الأمور كلها بيد الله تعالى[٢] .

الرحمة والعفو والتواضع :

وهذه الأخلاق الإسلامية جميعا تعد من صفات الداعية المسلم ورجل الإعلام الإسلامى ، فقد قال عليه الصلاة والسلام (لا يرحم الله من لا يرحم الناس) ، (لا تنزع الرحمة إلا من شقى) ، (الراحمون يرحمهم الله تعالى ، ارحموا من فى الأرض يرحمكم من فى السماء) .

ذلك أن رسول الإسلام عليه أفضل الصلاة والسلام وقد وصفه الله سبحانه وتعالى فى القرآن الكريم بقوله ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ .

فالرحمة إذن مبدأ من المبادئ المثلى فى الإعلام الإسلامى ، لأنها تؤدى فى نهاية الأمر إلى تحقيق التواصل فى كيان الأمة الإسلامية على أرفع مستوى ، تحكم به كل نظريات الاتصال والإعلام فى القديم والحديث .

عن النعمان بن بشير رضى الله عنهما قال : قال رسول الله ﷺ (ترى المؤمنين فى تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم وتوادهم وتعاطفهم كمثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى) أخرجه البخارى ومسلم .

والتراحم لغة : التواد والتعاطف ، وكلها من باب التفاعل الذى يستدعى اشتراك الجماعة فى أصل الفعل ، وكذلك التواصل ، وبينها — وإن تقاربت فى المعنى — فرق لطيف . فالتراحم : رحمة بعضهم بعضا بأخوة الإيمان لا بسبب آخر . والتواد :

---

(١) سيرة ابن هشام ، ص ٣٣

(٢) د . عبد الكريم زيدان : أصول الدعوة ، جـ ١ ، ص ٥٣

التواصل الجالب للمحبة . والتعاطف إعانة بعضهم بعضا كما يعطف الثوب على الثوب تقوية له . وتداعوا : دعا بعضهم بعضا ، وهكذا يستخدم الرسول عليه الصلاة والسلام هذه الألفاظ الدالة على جوهر الاتصال والإعلام ودلالة التراحم فيهما ، فيمثل ﷺ المؤمنين فى هذه الخلال بالجسد الواحد . فكما أن الجسد إذا مرض منه عضو تألم له كل أعضائه ، فكذلك المؤمنون يسعون بالتعاطف لدفع الألم عن أى مصاب فيهم ، ويجلبون له الخير . فالمسلمون فى نظرية الاتصال الإسلامى كشخص واحد ، وكل فرد منهم بالنسبة للمجموع كالعضو بالنسبة للشخص ، فالخير يصيب الواحد منهم كأنما أصاب كلهم ، والشر يصيبه كأنما أصاب جميعهم .

ونخلص مما تقدم إلى أن نظرية الإعلام الإسلامى تذهب إلى العمل على نشر الدعوة الإسلامية بكل الوسائل المشروعة ، لأفراد الأمة الإسلامية ولغيرها من الأمم الأخرى .

تم الجزء الأول بحمد الله تعالى

ويليه الجزء الثانى :

الأسس الفنية ..

للإعلام الإسلامى

من مؤلفـــات

امينـــة الصـــاوى

(١) جارودى والحضارة الاسلامية

بالاشتراك مع د. عبد العزيز شرف

(٢) الاســلام وحضارة المستقبل

بالاشتراك مع د. عبد العزيز شرف

(٣) نظرية الاعلام فى الدعوة الاسلامية

بالاشتراك مع د. عبد العزيز شرف

(قصص دراميــة دينيــة)

(٤) المعجزة الكبرى وامرأة العزيز

(٥) حب بلا نهــاية

(٦) هو حبى وقد نذرت له قلبى

(٧) الأزهر الشريف

(٨) لا اله الا الله (مسلسل التلفزيون)